



جامعة الخليل
عمادة الدراسات العليا
برنامج اللغة العربية

حركة التّراث في شعر أبي تمام والمنتبي

إعداد الطالبة

نداء " محمد عزّالدين " محمود الحرباوي

إشراف

الدكتور . حسام التّيمي

أستاذ الأدب العباسي المشارك

قدّمت هذه الرّسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللّغة العربيّة
بعمادة الدّراسات العليا في جامعة الخليل .

1430 هـ - 2009 م

حركة التراث في شعر أبي تمام والمتنبي

إعداد الطالبة

نداء " محمد عزالدين " محمود الحرباوي

نوقشت هذه الرسالة يوم السبت تاريخ 30 / 5 / 2009م. الموافق 6 من جمادى الآخرة لسنة 1430 هـ وأجيزت .

أعضاء لجنة المناقشة :

1. الدكتور حسام التميمي
المشرف رئيساً
2. الأستاذ الدكتور خليل عودة
ممتحناً خارجياً
3. الدكتور نادر قاسم
ممتحناً داخلياً

ملخص البحث

حركة التراث في شعر أبي تمام والمنتبّي

جاء البحث في تمهيد وأربعة فصول , وقفت في التمهيد على مواقف النقاد القدماء من التراث , وأهميّة ثقافة الشاعر , وآراء النقاد المحدثين في الأخذ من التراث , أمّا الفصول الأربعة فقد توزّعت فيها مادّة البحث الأصليّة.

فتناولت في الفصل الأول أثر التراث الدّيني من حيث توظيف النّص القرآنيّ لفظاً ومعنى وصورة , وما يتعلّق به من قصص . وتوظيف الحديث النبوي الشريف , والتّواصل مع الكتاب المقدس .

وتناولت في الفصل الثّاني توظيف التراث الأدبيّ في شعر أبي تمام والمنتبّي من حيث توظيف قصص الشعراء ومواقفهم وألفاظهم ومعانيهم وصورهم , وغيرهم من أدباء وخطباء وبلغاء , وشخصيات اشتهرت بسمات معينة , وكذلك الأمثال.

وتناولت في الفصل الثّالث أثر التراث التاريخي في شعر أبي تمام والمنتبّي من حيث توظيف الشّخصيّات التاريخيّة , والأحداث التاريخيّة , والوقائع والمعارك.

كما تناولت في الفصل الرّابع والأخير أثر التراث في التّشكيل الفنّي في بناء القصيدة واللّغة والصّورة الشعريّة , والاقتباس والتّضمين , والتّناص في شعر أبي تمام والمنتبّي. وانتهى البحث بخاتمة تضمنت أهمّ النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث .

الإهداء

إلى أولئك الذين أحيا بهم ومعهم ، إلى أمي وأبي ، وشقيقتي ، وشقيقيّ.

الشكر والتقدير

إلى خالقي أتضرّع شاكرة ممتنة , فسبحانك اللهم راعياً للورى , فأنت الأحقّ بأن
تحمد , وأنت الأحقّ أن تشكر .

أتقدم بوافر الامتنان , وجزيل الشكر للدكتور . " حسام التميمي " مشرفاً على هذه
الرسالة, بدءاً باختياره الموضوع , وانتقالاً إلى ما بذله من توجيه ورعاية , فجزاه الله كلّ
الخير , وأطال في عمره سادناً للعلم والأدب .

وأتقدم بخالص شكري لكلّ من ذلّ عثرة في طريقي , وخاصة القائمين على مكتبة
الجامعة الأردنية , ومكتبة جامعة اليرموك .

أما الأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور خليل عودة عميد كلية
الآداب في جامعة النجاح الوطنية , والدكتور نادر قاسم أستاذ الأدب الحديث المشارك في
جامعة الخليل , فلهم مني عظيم الشكر والتقدير لما بذلوه من جهد في قراءة هذه الرسالة,
ولما أبدوه من ملاحظات قيّمة تنير البحث وتجلي الكثير ممّا أبهم فيه , وأسأل الله العليّ
العظيم التوفيق والرعاية .

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث	ت
الإهداء	ث
الشكر والتقدير	ج
مقدمة	ز
تمهيد	

موقف النقاد القدماء من التراث	1
• ثقافة الشاعر	1
• الأخذ من التراث	6
• الأخذ المحمود	7
• الأخذ المذموم	13
• موقف النقاد المحدثين من التراث	24
• التناص والسرقات الشعرية	26

الفصل الأول

التراث الديني في شعر أبي تمام والمنتبّي	30
توظيف القرآن الكريم في شعر أبي تمام	30

- استيحاء ألفاظ القرآن الكريم..... 31
- استدعاء صور من القرآن الكريم..... 39
- الإشارة إلى بعض الآيات..... 41
- توظيف القرآن الكريم في شعر المتنبي..... 43
- توظيف معاني القرآن الكريم وألفاظه في شعر المتنبي..... 44
- استدعاء صور من القرآن الكريم..... 49
- توظيف القصص القرآني في شعر أبي تمام 52
- توظيف القصص القرآني في شعر المتنبي..... 66
- الحديث النبوي الشريف..... 80
- توظيف الحديث النبوي في شعر أبي تمام..... 81
- توظيف الحديث النبوي الشريف في شعر المتنبي..... 84
- التواصل بالكتاب المقدس في شعر أبي تمام..... 89
- توظيف قصص أهل الكتاب..... 89
- توظيف ألفاظ من الكتاب المقدس..... 90
- التواصل بالكتاب المقدس في شعر المتنبي..... 92
- توظيف قصص أهل الكتاب..... 92
- توظيف ألفاظ أهل الكتاب..... 94

الفصل الثاني

- التراث الأدبي في شعر أبي تمام والمنتبي..... 97
- التراث الأدبي في شعر أبي تمام 97

- استدعاء نصوص بعض الشعراء..... 98
- استيحاء معاني الشعراء وألفاظهم 103
- استيحاء صور الشعراء..... 106
- توظيف قصص الشعراء ومواقفهم..... 110
- توظيف شخصيات الشعراء..... 111
- أشخاص ضربت بهم الأمثال بصفات معينة..... 115
- توظيف الأمثال في شعر أبي تمام..... 120
- التّراث الأدبي في شعر المتنبي 127
- استيحاء معاني الشعراء..... 128
- استيحاء ألفاظ الشعراء ومعانيهم 142
- استيحاء صور الشعراء..... 152
- توظيف مواقف الشعراء وقصصهم..... 156
- توظيف الأمثال في شعر المتنبي..... 160

الفصل الثالث

- التّراث التاريخي في شعر أبي تمام والمتنبي..... 162
- التّراث التاريخي في شعر أبي تمام 162
- شخصيات تاريخية 162
- الوقائع والمعارك..... 175
- قبائل وأنساب..... 183
- التّراث التاريخي في شعر المتنبي..... 188

- 188توظيف أحداث ومواقف تاريخية.
- 191توظيف شخصيات تاريخية.
- 196.....توظيف الأنساب في شعر المتنبي.
- 202الأسطورة.
- 202.....توظيف الأسطورة في شعر أبي تمام
- 207.....توظيف الأسطورة في شعر المتنبي.

الفصل الرابع

211.....أثر التّواصل بالتّراث في التّشكيل الفنّي

للقصيدة عند أبي تمام والمتنبي

- 211.....أثر التّراث في بناء القصيدة عند أبي تمام
- 218أثر التّراث في بناء القصيدة عند المتنبي.
- 224التّراث وتشكيل اللّغة.
- 225.....أثر التّراث في لغة أبي تمام.
- 231.....أثر التّراث في لغة المتنبي.
- 238.....التّراث ونسج الصّورة الشعريّة.
- 238أثر التّراث في الصّورة الشعريّة في شعر أبي تمام.
- 254.....أثر التّراث في الصّورة الشعريّة في شعر المتنبي.
- 263.....الاقْتباس والتّضمين.
- 268.....التّناسخ.

269	التّناص في شعر أبي تمام.....
280	التّناص في شعر المتنبي.....
286	خاتمة.....
290	المصادر والمراجع.....

مقدمة

الحمد لله الذي قدر لي أن أسير في هذا الدرب , وألهمني القدرة على مواصلته , وتحمل عثراته التي ما كانت لتذلل لولا إرادته , وما كنت لأستطيع تحمل هذا العبء لولا مشيئته . لقد كان موضوع حركة التراث في شعر أبي تمام والمنتبّي موضوع دراستي. وقد جاء الاختيار انطلاقاً من مدى أهميّة الموضوع النابعة من الحضور المميّز للتراث في شعر أبي تمام والمنتبّي . فالتراث مخزون الأمة الذي يحفظ هويتها , ووحدة كيانها بما يشتمل عليه من قيم فكريّة وثقافيّة وحضاريّة , تتشكّل عبر العصور حتّى تصبح جزءاً من كيانها , وهو مصدر إلهام للأدباء يثري إنتاجهم الفنيّ , ويشكّل إحياء للسّامع , فيترك في نفسه ألواناً لا يتركها غيره من المؤثّرات . والأدباء في كلّ عصر يستلهمون تراث أممهم , كما يستلهمون تراث غيرهم من الأمم , ولم يخل الشعر العربيّ من هذه الإشارات التراثية التي يوظّفها كلّ شاعر حسب قدراته على استلهام هذا التراث وتوظيفه .

لقد اعتمدت الدراسة في هذا البحث على المنهج الوصفيّ التحليليّ , للتّوصل إلى نتائج واضحة ومفيدة تبرز قيمة هذه الدراسة . وقد كثرت الدّراسات التي تناولت شعر أبي تمام والمنتبّي , وقد جاءت بعض تلك الدّراسات على شكل بحوث في كتب أو في دوريات , أو على شكل رسائل علميّة , ومن الكتب الحديثة المتعلّقة بهذا الموضوع كتاب ثقافة أبي تمام من شعره , وثقافة المنتبّي وأثرها في شعره , ومقدمة القصيدة في شعر أبي تمام والمنتبّي..... , ومن الدّوريات بحث عنوانه : استلهام التراث في شعر أبي تمام , والتّناص في شعر أبي تمام " قصيدة الحقّ أبلج نموذجاً " , ومن الرّسائل الجامعية , رسالة بعنوان : التّناص في شعر المنتبّي , رسالة دكتوراه لإبراهيم عقله عبد الرّحمن

جوخان , جامعة اليرموك , إربد - الأردن , 2006 .

وعلى الرغم من تنوع هذه الدراسات إلا أن هذه الدراسة قُدمت في شكل مختلف عن غيرها من الدراسات الأدبية في المجال نفسه , وهو أمر مردود إلى طبيعة المادة التي قامت عليها , والمحاور التي تناولتها هذه الدراسة .

أما المصادر والمراجع التي استندت إليها هذه الدراسة , فكانت ديواني الشعاعين : ديوان أبي تمام بشرح التبريزي تحقيق محمد عبده عزّام , وديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمّى " التبيان في شرح الديوان " , وغيرها من دواوين الشعراء الذين عاشوا قبل أبي تمام والمتنبي , والكتب النقدية القديمة مثل أخبار أبي تمام للصولي , والعمدة لابن رشيق القيرواني , والوساطة للجرجاني , والمثل السائر لابن الأثير , ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني.... . وقد كانت الكتب السماوية كذلك من مصادر الدراسة لارتباطها بموضوعها , إضافة إلى كتب الأحاديث النبوية الشريفة , وقصص الأنبياء , وكتب الأمثال والتاريخ , كما اعتمدت على مراجع متعدّدة , إذ استندت إلى بعض المسائل النظرية , ولم يكن لأي منها طغيان على الآخر .

وجاءت الرسالة في تمهيد وأربعة فصول , ووقفت الباحثة في التمهيد على مواقف النقاد القدماء من التراث , وأهمية ثقافة الشاعر , وآراء النقاد في طرق الأخذ من التراث , وآراء بعض النقاد المحدثين , أما الفصول الأربعة فقد توزّعت فيها مادة البحث الأصلية .

فتناولت الباحثة في الفصل الأول أثر التراث الديني في شعر أبي تمام والمتنبي المتمثّل بالقرآن الكريم وقصص الرسل والأنبياء منذ عهد آدم وحتى محمد - عليهم السلام - , والحديث النبوي الشريف , والكتاب المقدّس .

وتناولت الباحثة في الفصل الثاني التراث الأدبي في شعر أبي تمام والمنتبي , من حيث توظيف معاني الشعراء وألفاظهم وصورهم ومواقفهم وقصصهم , وغيرهم من أدباء وخطباء وممن اشتهروا بصفات معينة , وكذلك الأمثال.

وتناولت الباحثة في الفصل الثالث أثر التراث التاريخي في شعر أبي تمام والمنتبي من حيث توظيف الشخصيات , والأحداث التاريخية , والوقائع والمعارك في مختلف العصور, وتوظيف الأسطورة.

وأبرزت في الفصل الرابع أثر التواصل بالتراث في التشكيل الفني للقصيدة في شعر الشعراء, حيث بينت فيه أثر التراث في بناء القصيدة واللغة والصورة الشعرية والافتباس والتضمن, والتناص في شعر أبي تمام في قصيدة " الحق أبلج " , والتناص في شعر المنتبي في دليته التي يفخر فيها بنفسه , وذلك لتتبع التراث في هاتين القصيدتين , وتجنباً لتكرار النماذج المدروسة في فصول البحث : الأول , والثاني , والثالث.

وانتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج , وثبت بالمصادر والمراجع التي أفادت منها الدراسة .

وأخيراً وليس آخراً , فإن أكن قد وفقت فيما قدمت فبفضل من الله , له الحمد وجزيل الشكر , وإن كانت الأخرى سألته السداد والهداية والرشاد , له الأمر من قبل ومن بعد هو حسبي ونعم الوكيل .

تمهيد

موقف النقاد القدماء والمحدثين من التراث

ثقافة الشاعر

يعدّ الشعر علماً من علوم العرب (1)، وفناً من فنونها الكلامية، عماده وسرّ وجوده الملكة "الموهبة أو الطبع" (2) لدى الإنسان في فن الشعر بخاصة، غير أنّ هذه الملكة لا تخلق وحدها شاعراً مجيداً في فنّه، فعلى الشاعر أن يتعهدها بالعناية، ويزودها بما تفنقر إليه، فيتعهدها بالصقل والمران حتى تؤتي ثمارها، وتقتدر في فنّها. ووسيلة الشاعر إلى ذلك إطار شعري يمتلئ صلته بترائه الشعري وذلك من خلال دراسة ما يتسنّى له من الأشعار، وحفظ نماذج منها والنسج على منوالها، إضافة إلى الإلمام بالمعارف والعلوم المختلفة. وهذا لا يعني أنّ المطبوع لا يقدر على الخلق والإبداع، فقد يتحقّق له ذلك دون وعي وبصيرة، ومتى قصد الجيد تعثرت ملكته وقصرت عن غايتها "كالمقعد يجد في نفسه القوّة على النهوض فلا تعينه الآلة" (3).

وقد تنبّه الشعراء والنقاد قديماً إلى أهمية الحفظ في تنمية ملكة النظم لدى الشاعر، فكان الشاعر يلزم شاعراً آخر زمناً طويلاً يتتلمذ فيه على يديه، فيروي شعره ويتعلّم منه قوانين النظم وأصول الصنعة الشعرية. فكان زهير بن أبي سلمى راوية أوس بن حجر وطفيل الغنوي، وكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الإيادي (4).

وعكف كثير من الشعراء على دواوين القدماء وبخاصة الفحول يدرسونها ويحفظونها حتى يحققوا لأنفسهم ثقافة شعريّة واسعة، ومنهم أبو تمام الذي قال: "لم أنظم شعراً حتى

(1) الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه 15/1.

(2) "واعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفنقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل: ينبغي للكاتب أن يتعلّق بكل علم... وملاك ذلك كله الطبع، فإنه إذا لم يكن ثم طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئاً، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديد الذي يقدر بها، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديد شيئاً؟" ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 1/27.

(3) ابن رشيق، العمدة 1/178.

(4) نفسه 1/178.

حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال" (1) ولم يكن يضيّع أدنى فرصة تنهياً له ليحفظ المزيد من الشعر يغذي به ملكته . (2)

وحتّ النقاد القدماء الشاعر على التزوّد بالأخبار القديمة , والنهل منها وحفظ الشعر وروايته وإعادة تشكيله وبنائه , والأخذ من كلّ علم بطرف , ليستطيع أن يحذو حذو القدماء وينطبع بطباعهم , فعندما كانوا يميّزون شاعراً يصفونه بأنه متّصل بثقافة عصره , ونتاج من سبقوه , ويقول الجاحظ عن الفرزدق : إنه "راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم" . (3)

ويقول الأصمعي : "لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتّى يروي أشعار العرب , ويسمع الأخبار , ويعرف المعاني , وتدور في مسامعه الألفاظ" (4) . وأما ابن المدبّر فحضّ الكتاب الناشئين على التّمسّ بما يحتاجون إليه من علوم العربيّة , وأكّد ضرورة الاطّلاع على معارف العصر وتياراته الأجنبيّة . وطالبهم بالنّظر في "معاني العجم , وحدود المنطق , وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وتوقيعاتهم وسيرهم ومكايدهم في حروبهم" (5)

وأوجب ابن طبابا العلويّ على الشاعر أن "يديم النّظر في الأشعار ... لتلتصق معانيها بفهمه , وترسخ أصولها في قلبه , وتصير مواد لطبعه ويزرب لسانه بألفاظها , فإذا جاش فكره بالشعر أدّى إليه نتائج ما استفاده ممّا نظر فيه من تلك الأشعار ... " (6) . وأيده العسكري بقوله : " فألفاظ اللّغة إنّما يؤخذ جزلها وفصيحتها وغريبها من الشعر ... ومن لم يكن راوية لأشعار العرب تبين النقص في صناعته ... وكذلك لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها

(1) ابن الأثير, المثل السائر 2 / 365.

(2) أبو تمام , الديوان 4 / 604.

(3) البيان والتبيين 1 / 192 .

(4) ابن رشيق , العمدة 1 / 178 .

(5) الرسالة العذراء في رسائل البلغاء / 228 .

(6) عيار الشعر / 16 .

إلا من جملة أشعارها , فالشعر ديوان العرب , وخزانة حكمتها , ومستنبت آدابها, ومستودع علومها ... " (1).

ورأى القاضي الجرجاني أنّ حاجة الشاعر المحدث إلى الرواية أمسّ , وإلى كثرة الحفظ أفر , إذ كانت العرب تروي وتحفظ , وتعرف بعضها برواية شعر بعض (2), وممن أيد رأيه حازم القرطاجني بقوله : " وأنت لا تجد شاعراً مجيداً منهم - أي القدماء - إلا وقد لزم شاعراً آخر المدّة الطويلة وتعلّم منه قوانين النظم واستفاد عنه الدربة في أنحاء التصريف البلاغية ... فإذا كان أهل ذلك الزمان قد احتاجوا إلى التعلّم الطويل , فما ظنك بأهل هذا الزمان - أي زمانه - بل أيّه نسبه بين الفريقين في ذلك " (3).

ولم يكتف ابن رشيّق بمطالبة الشاعر رواية أشعار القدماء , وإمامه بكلّ علم كالنحو والفقه والحساب والفريضة , وأنساب العرب وأيامهم بل طالبه أيضاً بالنظر في أشعار المولّدين , لأنّه تتوفر في أشعارهم أشياء لم تكن للمتقدّمين كحلاوة اللفظ وقرب المأخذ, وإشارات الملح . (4) أي أنّه طالب الشاعر أن يجمع بين التقافتين : القديمة والحديثة , ويختار من كلّ منهما ما يناسبه .

وأضاف ابن سنان الخفاجيّ إلى الأدوات السالفة الذكر الأوزان والقوافي . (5) أما ابن الأثير فقد حصر أدوات الشاعر بثمان , وانفرد بذكر ثلاث منها هي : حفظ القرآن الكريم , وما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن الرسول - صلى الله عليه وسلّم - ومعرفة الأحكام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء (6).

(1) الصناعتين / 165 .

(2) الوساطة بين المتنبي , خصومه / 16 .

(3) منهاج البلغاء وسراج الأدباء / 27 .

(4) ينظر العمدة / 1 / 177 , 178 .

(5) سر الفصاحة / 342 .

(6) المثل السائر / 1 / 29 .

وانفرد ابن خلدون من بين النقاد العرب بأن جعل الملكة وليدة الحفظ , علماً بأنّ النقاد يقولون بوجود الملكة أولاً وتقوى بعد ذلك بالحفظ والثقافة والمران . فأكد أهمية حفظ الشعر وعده الشرط الأول لصناعته "كي تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها"⁽¹⁾.

كما حدد ابن خلدون أقل ما يحتاج إليه الإنسان كي يصبح شاعراً , وهو شعر شاعر من الفحول الإسلاميين كابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجريز وأبي نواس وحبیب والبحتري والرضي وأبي فراس , وأكثره شعر كتاب الأغاني , لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية , والمختار من شعر الجاهلية , وكلما كثر المحفوظ وتعددت النماذج أصبح النسيج على منوالها أيسر فإن أكثر الناظم من التدرّب استحكمت الملكة⁽²⁾.

وجعل ابن خلدون لطبيعة المحفوظ قيمة كبرى في تشكيل الملكة وتوجيه مسارها , فالمحفوظ الحرّ النقي الكثير الأساليب يشكّل ملكة مختلفة عن التي يشكّلها الشعر النازل , فجودة النظم تكون على قدر جودة المحفوظ , ونوع المحفوظ يقرّر اتجاه صاحبه , فالمحفوظ الذي يبدأ به هو الذي يشكّل الملكة ويلونها , فمن بدأ بالفقه تلوّنت ملكته بالفقه , ومن بدأ بالنحو تلوّنت ملكته بالنحو وهكذا , إذ إنّ الملكة المتقدّمة هي المتحكّمة , فإن نازعتها ملكة أخرى لم تجد موضعاً تستقرّ فيه , وبقيت الأولى تدفع كلّ ما عداها , وهذا الشيء يكاد يكون عامّاً في مختلف العلوم والصناعات⁽³⁾.

ولا يقف ابن خلدون عند هذا الحدّ بل يدعم رأيه بتجربته الذاتية في الشعر , فهو يعزو ما يجد من صعوبة في نظم الشعر مع حفظه لجيد الكلام , ولفنون من كلام العرب إلى ما حصل من خدش في وجه النظم عنده , وذلك يرجع إلى حفظه الأشعار العلمية , والقوانين

1 (المقدمة / 718 - 739 .

2 (نفسه / 332

3 (نفسه / 732 - 737 .

التأليفية، ومن هذا المنطلق حكم على شعر الفقهاء والنظار والمتكلمين بالقصور وانحراف العبارة عن أساليب العرب في كلامهم (1).

إذن فقد حددوا لمن أراد أن يكون شاعراً مجيداً السبيل إلى ذلك ، فأشاروا عليه أن يدرس النماذج الشعرية التي يراها أهم من غيرها دراسة واعية، ثم يبدأ بالصوغ على أنماطها ، وهو ما سماه الجرجاني بـ "الدربة" (2). وجعلها قرينة الطبع والرواية والذكاء ، لترسخ هذه النماذج في ذاكرة الشاعر ، وتتنظم فيها ، وبذلك تتحقق له الفائدة ، مما يعدّه لإنتاج خلاق ، كما تنبّه النقاد في الوقت نفسه إلى خطر هذا المحفوظ حين يؤدي إلى خلق شاعر مقلد لا إبداع له . لأنّ الالتصاق الشديد بالنماذج الشعرية يصنع إنتاج الشاعر بصبغتها ، فتقوم نفسها دون وعي منه ، وبوعي منه أحياناً أخرى فيما يصدر عنه من شعر ، لذا أشار القدماء على الشاعر بعد أن يتم حفظ هذه الأشعار أن يخلد ذهنه إلى فترة من الراحة والكمون ينسى خلالها ما حفظ ، ويستدل على ذلك ما يحكى عن عبد الله القسري حينما أمر ابنه خالدًا بحفظ ألف خطبة ، وبعد أن حفظها طلب إليه أن يتناساها فتناساها ، فلم ير بعد ذلك شيئاً من الكلام إلا سهل عليه ، فكان حفظه لتلك الخطب "رياضة لفهمه ، وتهذيباً لطبعه ، وتلقيحاً لذهنه ، ومادة لفصاحته ، وسبباً لبلاغته ، ولسنه ولخطابته" (3) ، وبتوجيه خلف الأحمر لأبي نواس بنسيان ألف قصيدة ومقطعة حفظها . (4) فإذا نسي هذه الأشعار "وقد تكيفت النفس بها ، انتقش الأسلوب فيها ، كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة" (5).

(1) المقدمة / 738 .

(2) الوساطة / 15 .

(3) ابن طباطبا ، عيار الشعر / 16 .

(4) ابن منظور ، أبو نواس / 55 .

(5) ابن خلدون ، المقدمة / 732 .

الأخذ من التراث

إذن فقد وعى النقاد أهمية التراث للمحافظة على أصالة العمل الأدبي الذي لا يمكن أن يصدر من فراغ ثقافي أو اجتماعي، فأدركوا أن أفضلية الشاعر وريادته تكمن في قدرته على استيعاب الموروث وحفظه، لا بقصد المحاكاة، وإنما بالقدرة على البناء عليه، مما جعلهم يبيحون أخذ الشعراء عن بعضهم ضمن شروط ومعايير تحكم هذا الأخذ، وبخاصة أن مجال المعاني قد ضاق على الشاعر المحدث، "لأن من تقدمه قد استغرق المعاني، وسبق إليها، وأتى على معظمها" (1) فلا بدّ له من قانون يبيح عملية الأخذ من التراث والإفادة منه.

من هنا قسم النقاد المعاني إلى معانٍ مشتركة، ومستتبطة، ومخترعة (2). ويلخص ذلك حازم القرطاجني بقوله: "إنّ من المعاني ما يوجد مرتسماً في كلّ فكر، ومتصوراً في كلّ خاطر، ومنها ما يكون ارتسامه في بعض الخواطر دون بعض، ومنها ما لا ارتسام له في خاطر، وإنما يتهدى إليه بعض الأفكار في وقت ما فيكون من استتباطه. فالقسم الأول: هي المعاني التي يقال إنّها كثرت وشاعت، والقسم الثاني ما يقال فيه إنّه قلّ، أو هو إلى حيّز القليل أقرب منه إلى حيّز الكثير، والقسم الثالث هو المعنى الذي يقال فيه إنّه ندر وعدم نظيره" (3).

وأخرج النقاد ما جرى على الألسن من المعاني أو أصبح كالمثل السائر من حيّز السرقة إذا اشترك فيه شاعران، وكذلك إذا ما اتفق شاعران في ألفاظ معينة، ويقول الجاحظ: "إنّ المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي، وإنّما الشأن في

(1) الجرجاني، الوساطة / 241.

(2) ينظر ابن رشيق، العمدة 1 / 228 - 231، وابن الأثير، المثل السائر 2 / 332 - 333.

والقرطاجني، منهاج البلغاء / 192 - 196.

(3) منهاج البلغاء 192.

إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطّبع، وجودة السّبك" (1).

الأخذ المحمود

واستناداً إلى ما تقدّم، فقد قسّم النّقاد القدماء الأخذ من التّراث إلى قسمين: محمود ومذموم، فالمحمود هو ما يضيف إليه الشّاعر إضافات جديدة في الصّورة أو العبارة. أمّا المذموم فهو الذي لا يستطيع أن يضيف إليها شيئاً من ذلك، ومن الطّرق التي تجعل الأخذ محموداً:

- **اختصار المعنى**: وهو أن يأخذ شاعر معنى لشاعر سابق له، فيختصره باستخدام ألفاظ أقل، كأن يأخذ معنى استغرق بيتين، فيعبّر عنه ببيت واحد، أو أن يختصر معنى بيت فيجعله مصراعاً وهذه ميزة حسنة تغفر للشّاعر أخذه وتسوّغه، ومن الأمثلة على ذلك قول بشار بن برد:

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهْجُ" (2)

أخذه سلّم الخاسر" (3) فقال:

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ" (4)

1 (الحيوان 3 / 130) وتبعه بعد ذلك بقية النقاد أمثال وابن طباطبا ، عيار الشعر / 15 وابن رشيق ، العمدة 2 / 118 والجرجاني ، الوساطة / 183 والأمدي ، الموازنة / 114 - 118 والعسكري ، الصناعتين / 217 وابن الأثير ، المثل السائر 2 / 332 - 333 ...

2 (القزويني ، الإيضاح / 305 وابن برد ، بشار ، الديوان / 236 .

3 (? - 186 هـ) ، سلم بن عمرو بن حماد البصري . شاعر ، خليع ، ماجن ، من أهل البصرة ، من الموالي سكن بغداد ، له مدائح في المهدي والرشيدي العباسيين ، قيل سمي الخاسر : لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً . ينظر ابن المعتز ، طبقات الشعراء / 99 والأصفهاني ، الأغاني 3 / 139 .

4 (القزويني ، الإيضاح / 305 .

" فبيت سلم أجود سبكاً وأخصر " (1) . ويقال إنه حينما سمع بشار هذا البيت قال : " يعمد إلى معاني التي أسهر بها ليلي , وأتعبت فيها فكري , فيكسوها لفظاً أخفّ من لفظي , فيروى شعره ويترك شعري , والله لا أكلت اليوم ولا صمت " (2) .

ويلاحظ أنّ سلم الخاسر أخذ معنى بشار , فقدّمه مختصراً بعدد ألفاظه , وعرضه بصياغة جديدة ممّا جعله أكثر شيوعاً بين الناس , وهذا ما تنبّه إليه بشار , فاختصار المعنى يؤدي إلى انتشاره بين الناس , وبخاصّة إذا أحسن المختصر الصياغة الفنيّة ممّا يزيد الشعر جمالاً , ويدلّ على حسن الإتيان , وإجادة التناول .

- **نقل المعنى** : وهو أن يأخذ شاعر بيتاً فيغيّر معناه , فيجعله مديحاً بعد أن كان نسيبياً , أو هجاء بعد أن كان مديحاً وهكذا , وقد يغيّر الشاعر الوزن والقافية والرّوي ليخفي أخذه , فلا يظهر إلاّ للبصير من النقاد . ويعدّ ابن طباطبا نقل المعنى واحداً من الأساليب التي ينبغي للشاعر أن يلجأ إليها حتّى يخفي أخذه , وينفرد بشهرته في المعنى الذي أخذه كأنّه غير مسبوق إليه فيقول : " يحتاج من سلك هذا السبيل إلى إطفاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها حتّى تخفى على نقّادها , والبصراء بها , وينفرد بشهرتها كأنّه غير مسبوق إليها , فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه , فإذا وجد معنى لطيفاً في تشبيب أو غزل استعمله في المديح , وإن وجده في المديح استعمله في الهجاء " (3) . ورأى العسكري أنّ "نقل المعنى لا يكمل إلاّ للمبرّز والكمال المقدم " (4) وعدّ الجرجاني أنّ هذا الأمر من باب التفنّن في السرقة , وممّا يدلّ على فطنة الشاعر ونكاته في تناول المعاني ممّن سبقه من الشعراء يقول : " وحتّى لا يغرك من البيتين المتشابهين أن

(1) القزويني , الإيضاح / 305 .

(2) ابن وكيع , المنصف / 1 / 11 .

(3) ابن طباطبا , عيار الشعر / 80 , 81 .

(4) الصناعتين / 219 .

يكون أحدهما نسيباً , والآخر مديحاً , وأن يكون هذا هجاءً وذاك افتخاراً , فإنّ الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصفه , وعن وزنه ونظمه , وعن رويته وقافيته , فإذا مرّ بالغبيّ الغفل وجدهما أجنبيّين متباعدين , وإذا تأملهما الفطن الذكيّ عرف قرابة ما بينهما " (1) وقصر ابن وكيع نقل المعنى على غرض الهجاء , وتبديله ليصبح مديحاً لا غير تحت عنوان " عكس ما يصير بالعكس ثناء بعد أن كان هجاءً " (2) أما ابن الأثير فيقول : " والأصل المعتمد عليه في هذا الباب التورية والإخفاء بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب , وأظرف من عنقاء مغرب في الإغراب " . (3) ومن الأمثلة على نقل المعنى قول كثير :

أريدُ لأنسى ذكراً فكَأَنَّمَا تَمَثَّلَ لي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ (4)

وقول أبي نواس :

مَلِكٌ تَصَوَّرَ في القُلُوبِ مِثْلَهُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانٌ (5)

يقول الجرجانيّ : " فلم يشكّ عالم أنّ أحدهما من الآخر , وإن كان الأول نسيباً والثاني مديحاً " (6) , وواضح كيف أنّ أبا نواس غير وزن بيته , فنظمه على البحر الكامل , بينما بيت كثير على البحر الطويل , كما غير قافيته ورويّه إلى جانب تغيير الغرض الشعري من الغزل إلى المديح .

- الزيادة في المعنى : وهو أن يأخذ شاعر معنى لشاعر سبقه , فيزيد عليه زيادات توضّحه أو تؤكّد معناه , أو تبيّن بعض ما غمض فيه , أو تحلّيه باستعارة أو تشبيه , أو تضيف إليه ملامح

(1) الوساطة / 204 .

(2) المنصف 1 / 14 - 15 .

(3) المثل السائر 2 / 342 .

(4) الديوان / 108 .

(5) الديوان / 549 .

(6) الوساطة / 205 .

جديدة وصفات نادرة . وزيادة الشاعر في معنى من المعاني التي أخذها ممن سبقه واحدة من الأسباب التي تسوّغ أخذه , بل إنها تجعله أحقّ بالمعنى من مبتدعه .

ويشير الحاتميّ إلى أنّ زيادة الأخذ على المعنى المأخوذ قد تساوي بينهما أحياناً , والأفضليّة عندئذ للسّابق لتقدّمه على اللاحق لتأخره , ومثل على ذلك بعدة أمثلة منها قول النّابغة :

" سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ (1)

فأخذ المعنى أبو حيّة النّمري (2) , فأحسن كلّ الإحسان لزيادة زادها في قوله :

فَأَدْنَتْ قَنَاعاً دُونَهُ الشَّمْسُ وَاتَّقَتْ بِأَحْسَنِ مَوْصُولَيْنِ كَفَّ وَمِعْصَمٍ (3)

فوجب له المساواة بهذه الزيادة ولم يعط الفضل على النّابغة لتقدّم النّابغة في الاختراع لهذا المعنى , والزيادة قوله " دون الشّمس " يريد مثل الشّمس , وبقوله " أحسن موصولين " (4) فأبو حيّة ساوى النّابغة بسبب ما تضمّنه بيته من الزيادة في المعنى , انطلاقاً من المساواة بينهما , فالمرجح هو السّابق زمنياً .

- الإِجَادَةُ فِي الصِّيَاغَةِ الْفَنِيَّةِ : وهي أن يأخذ شاعر معنى من معاني من سبقه من الشعراء , فيعيد صياغته بشكل جديد يتوخى فيه حسن الرّصف أو السّبك أو حسن اللفظ , أو إصابة التّمثيل ونحو ذلك ممّا يتعلّق بالأسلوب وجماليّاته بشكل عام , يقول ابن طباطبا : " وإذا تناول الشّاعر المعاني التي سبق إليها , فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه , كقول أبي نواس :

(1) الديوان / 40 .

(2) (? - 183 هـ) الهيثم بن الربيع بن زرارة ، من بني نمير بن عامر ، أبو حية . شاعر مجيد ، فصيح راجز ، من أهل البصرة ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، مدح خلفاء عصره فيهما . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 2 / 762 و الأصفهاني ، الأغاني 16 / 210 والبغدادي ، خزنة الأدب 3 / 154 .

(3) الحاتمي ، الرسالة الموضحة / 153 .

(4) نفسه / 153 - 154 .

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني (1)

أخذه من الأحوص (2) حيث يقول :

متى ما أقل في آخر الدهر مدحة فما هي إلا لابن ليلى المكرم (3)

وعدّ ذلك حازم القرطاجني شرطاً من شروط تناول الشاعر معاني من سبقه ، ويتّضح ذلك في قوله : " فأما القسم الثاني وهي المعاني التي قلت في أنفسها أو بالإضافة إلى كثرة غيرها فما كان في هذه الصفة فلا تسامح في التعرض إلى شيء منه إلا بشروط منها : أن ينقله إلى موضع أحقّ به من الموضع الذي هو فيه ، ومن ذلك أن يقلبه ويسلك به ضدّ ما سلك الأول ، ومن ذلك أن يركّب عليه عبارة أحسن من الأولى ، وذلك كتحسين الشماخ (4) العبارة عن معنى قول بشر بن أبي خازم (5) :

إذا ما المكرّماتُ رفَعْنَ يوماً وقصّرَ مُبتَغوها عن مداها

وصافّت أدرعُ المثرينَ عنها سَمَا أوسٌ إليها فاحتواها (6)

فجاء الشماخ في عبارة أحسن من هذه وأوجز حيث يقول :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ تلقّاها عرابةٌ باليمين (7)

1 (الديوان / 552 .

2 (الأحوص الأنصاري (؟ - 105 هـ) ، عبد الله بن محمد من بني ضبيعة، لقب بالأحوص لضيق في عينه، شاعر إسلامي أموي هجاء، صافي الديباجة. ينظر البغدادي ، خزنة الأدب / 1 / 232 وابن قتيبة ، الشعر والشعراء / 1 / 509 والأصفهاني ، الأغاني / 21 / 173 .

3 (عيار الشعر / 79 و الأحوص ، شعر الأحوص الأنصاري / 199 .

4 (الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذيباني الغطفاني (؟ - 22 هـ) . شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابعة. ينظر ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء / 123 وابن قتيبة، الشعر والشعراء / 1 / 304 وابن ناصر الدين ، توضيح المشتبه / 6 / 152 .

5 (بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأسدي، أبو نوفل (؟ - 22 ق. هـ) شاعر جاهلي فحل، من الشجعان، من أهل نجد. توفي قتيلًا في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية . ينظر ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء / 97 وابن قتيبة ، الشعر والشعراء / 1 / 262 والبغدادي ، خزنة الأدب / 2 / 262 .

6 (الديوان / 150 .

7 (القرطاجني ، منهاج البلغاء / 193 والديوان / 115 .

وقال القزويني: " فإن كان الثاني أبلغ من الأول لاختصاصه بفضيلة , كحسن السبك أو

الاختصار , أو الإيضاح أو زيادة معنى , فهو ممدوح مقبول " (1)

وهكذا يلاحظ أنّ تناول الشاعر معاني من سبقه لا يعدّ عيباً إذا قدّم تلك المعاني في

صياغة فنيّة جديدة , يتّضح من خلالها ذكاؤه وفطنته وحذقه وبراعته في تناول معاني من

سبقه .

- التّوليد : وهو أن يستخرج شاعر معنى من معنى شاعر سبقه . وأخرج ابن رشيق التّوليد من

دائرة الاختراع لما فيه من الاقتداء بالآخرين , وأخرجه أيضاً من باب السرقات , لأنّ الآخذ

ليس في نيته الآخذ (2), ومثل على ذلك بقول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالٍ (3)

فأخذه وضاح اليمن (4), فقال :

فَأَسْفُطَ عَلَيْنَا كَسْفُوطِ النَّدَى لَيْلَةً لَا نَاهٍ وَلَا زَجِرُ (5)

" فولد معنى مليحاً اقتدى فيه بمعنى امرئ القيس دون أن يشركه شيئاً من لفظه أو ينحو نحوه

إلا في المحصول , وهو لطف الوصول إلى حاجته في خفية " . (6)

أما ابن وكيع فقد قسم التّوليد إلى قسمين : " توليد كلام من كلام لفظهما مفترق ومعناهما متفق "

وعده من أدلّ الأقسام على فطنة الشاعر , لأنّه جرّد لفظه من لفظ من أخذ منه وهو في معناه

متفق معه , ومن ذلك قول أبي تمام :

(1) الإيضاح / 304 .

(2) ابن رشيق , العمدة / 1 / 229 .

(3) الديوان / 141 .

(4) وضاح اليمن (? - 90 هـ) عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال من آل خوذان الحميري .شاعر

رقيق الغزل عجيب النسيب , جميل الطلعة ينظر الأصفهاني , الأغاني / 6 / 148 وابن خلكان , وفيات

الأعيان / 1 / 278 والصفدي , الوافي بالوفيات / 18 / 117 .

(5) الديوان / 48 .

(6) العمدة / 1 / 229 .

لَأَمْرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَمَّ صُدُورُهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَمَّ عَوَاقِبُهُ" (1)

أخذه من قول بعض العرب :

غُلَامٌ وَغَى تَقَحَّمَهَا فَأُودَى وَقَدْ طَحَّتَهُ مِرْدَاةٌ طَحُونُ

فَإِنْ عَلَى الْفَتَى الْإِقْدَامَ فِيهَا وَلَيْسَ عَلَيْهِ مَا جَنَّتِ الْمَنُونُ (2)

"والمعنى متفق واللفظ مفترق " وهذا المذهب من دقة الآخذ وفطنته , ومثل على ذلك بقول أبي

نواس في محبوب أعرض عنه ببعض وجهه :

يَا قَمْرًا لِلنَّصْفِ مِنْ شَهْرِنَا أَبْدَى ضِيَاءَ لَثْمَانٍ بَقِينٍ" (3)

أخذه من قيس بن الخطيم (4) في قوله :

تَصَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضَنَّتْ بِحَاجِبٍ (5)

وعده حازم القرطاجني المرتبة العليا في الشعر من جهة استنباط المعاني فمن بلغها بلغ

الغاية , فهو يدل على نفاذ خاطر الشاعر وتوقد فكره , لأنه استنبط معنى غريباً , واستخرج من

مكامن الشعر سرّاً لطيفاً , " والمعاني بهذه الصفة تسمى العقم " (6)

الأخذ المذموم

هذه الوجوه المحمودة في الأخذ من التراث , وأما الوجوه المذمومة تكمن في كلامهم عن

سوء الأخذ أو الاتباع , يقول العسكري : " وقبح الأخذ أن تعمد إلى المعنى فتتناوله بلفظه كله أو

1 (الديوان 1 / 221 .

2 (المنصف 1 / 16 .

3 (نفسه 1 / 16 .

4 (قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي ، أبو يزيد . (? - 2 ق . هـ) شاعر الأوس وأحد صناديدها في

الجاهلية . أدرك الإسلام وترث في قبوله ، فقتل قبل أن يدخل فيه . ينظر ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1

308 / والأصفهاني ، الأغاني 3 / 5 .

5 (المنصف 1 / 17 ابن الخطيم ، قيس ، الديوان / 79 .

6 (منهاج البلاغ / 194 .

أكثره أو تخرجه في معرض مستهجن ، والمعنى إنّما يحسن بالكسوة " . (1) وبشكل عام فإنّه يمكن إجمال الوجوه المذمومة في الأخذ من التّراث بما يلي :

- إساءة الأخذ في الصّياعة الفنيّة : وهي عدم إجادة الشّاعر الصّياعة الفنيّة للمعنى السّابق عندما يتناوله ، فلا يتوخّى صحّة السّبك ، أو حسن الوصف ونحو ذلك . وهو ما وصفه العسكريّ بالأخذ المستهجن وهو عنده " أن يأخذ الشّاعر المعنى فيفسده أو يعوّصه ، ويخرجه في معرض قبيح وكسوة مستردّلة ، وذلك مثل قول أبي كريمة " :

قَفَاهُ وَجَهُ نَمَّ وَجَهُ الَّذِي قَفَاهُ وَجَهُ يُشْبَهُ الْبُدْرَا(2)

وإنّما أخذه من قول أبي نواس :

" بَأَبِي أَنْتَ مِنْ مَلِيحِ بَدِيحٍ " بَدُّ حَسَنَ الْوَجُوهِ حَسَنُ قَفَاكَ(3)

يلاحظ أنّ أبا نواس قد تفوّق في بيته من حيث الأسلوب واختيار لفظه ، وخلوّ بيته من التّكرار الموجود في بيت أبي كريمة ، حيث كرّر كلمة وجه ثلاث مرات ، وكلمة قفا مرتين لغير فائدة ترجى .

- إطالة المعنى : وهو أن يعبر الشّاعر عن معنى من معاني من سبقه بعبارة طويلة ، ومثال ذلك قول أبي نواس :

لَا تُسَدِّينَ إِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا(4)

أخذه دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَزَاعِيُّ (5) فقال :

هَجَرْتُكَ لَمْ أَهْجُرْكَ مِنْ كُفْرٍ نِعْمَةٍ وَهَلْ يُرْتَجَى نَيْلُ الزِّيَادَةِ بِالْكَفْرِ

(1) الصناعتين / 249 .

(2) العسكري ، الصناعتين / 51 .

(3) نفسه / 251 .

(4) الديوان / 361 .

(5) دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ رَزِينِ الْخَزَاعِيِّ ، أَبُو عَلِيٍّ . (148 - 246 هـ) شاعر هجاء ، أصله من الكوفة ، أقام ببغداد . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء / 2 / 838 وابن المعتز ، طبقات الشعراء / 264 .

وَلَكِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ زَائِرًا وَأَفْرَطْتَ فِي بَرِّي عَجَزْتُ عَنِ الشُّكْرِ (1)

فهذا شعر مليح ولكنه طويل , وهذا كاف (2).

- تقصير الآخذ في المعنى وعدم استيفائه : بين النقاد جوانب التقصير لدى الشعراء وعدم

استيفائهم للمعاني التي يأخذونها من سابقهم , ومثال ذلك قول مسلم بن الوليد في الرثاء:

فَاذْهَبَ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُرْنَةٍ أَثْنَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ (3)

أخذ أبو تمام المعنى فقصر في العبارة , فقال :

وَقُمْنَا فَقَلْنَا بَعْدَ أَنْ أَفْرَدَ الثَّرَى بِهِ مَا يُقَالُ فِي السَّحَابَةِ تَقْلَعُ (4)

"وتقصيره عن مسلم أن مسلماً قال : " أثنى عليها السهل والأوعار " , فأراد أن هذه السحابة

عمت بنفعها , وفي قول أبي تمام : " ما يقال في السحابة تعلق " إبهام , لأنه لم يفصح في الثناء

عليها وأنها نفعت , وقد يقال في السحابة إذا أفلعت ما هو غير المدح والثناء , إذا نزلت في غير

حينها , وفي غير وقت الحاجة إليها , وكثيراً ما يضر المطر إذا كانت هذه حاله , وإن كان أبو

تمام لم يرد هذا القسم , وإنما أراد القسم الآخر فقط , فقصر في العبارة والشرح . " (5)

وعدّ ابن وكيع حذف الشاعر ما هو من تمامه تقصير في المعنى . " ومن ذلك قول عنتره :

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعَرِضِي وَإِفْرٌ لَمْ يُكَلِّمْ

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصِرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكْرُمِي (6)

أخذه حسّان فقال :

(1) الديوان / 13 .

(2) ابن وكيع , المنصف / 1 / 22 .

(3) الديوان / 314 .

(4) أبو تمام , الديوان / 4 / 96 .

(5) الأمدى , الموازنة / 65 .

(6) الديوان / 24 .

وَنَشْرِبُهَا فَتَتْرَكُنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُهَا اللَّقَاءُ (1)

فقول عنزة الصّحو والسكر صفتيهما , وأفرد حسّان الإخبار عن حال سكرهم دون صحوهم , لأنه قد يمكن أن يظنّ ظانّ بهم البخل والجبن إذا صحوا , لأنّ من شأن الخمر تسخية البخيل وتشجيع الجبان " (2)

- أخذ المعنى والوزن والقافية : عدّه القاضي الجرجانيّ من "أقبح ما يكون من السرّق , لأنه يدل على نفسه باتّفاق المعنى والوزن والقافية " (3)

وعدّه ابن الأثير " كمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق , ثم صاغها في مثل ما سرقها منه والأولى أن كان نظم تلك الجوهرة في عقد , أو صاغها في سوار أو خخال , ليكون أكرم لأمرها. وليس في السرقات الشعريّة أقبح من هذه السرقة , فإنّه لم يكتف الشاعر فيها بان يسرق المعنى حتّى ينادي نفسه أنه قد سرقه " (4)

- أخذ اللفظ والمعنى : عدّه النقاد من أسوأ أنواع السرقات وأشنعها , فمن ذلك قول امرئ القيس :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ (5)

أخذه طرفة فقال :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَدِّدِ (6)

وقد زعم قوم أن هذا من اتفاق الخواطر , وتساوي الضمائر , وبإزاء هذه الدّعوى أن يقال:

(1) الديوان / 8 .
(2) المنصف 1 / 26 , 27 .
(3) الوساطة / 249 .
(4) المثل السائر 2 / 358 , 359 .
(5) الديوان / 31 .
(6) المثل السائر 2 / 358 , 359 والديوان / 73 .

بل سمع فأتبع , والأمران سائغان , والأولى أن يكون ذلك مسروقاً⁽¹⁾ وسئل أبو عمرو ابن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظ واحد ومعنى , فقال : عقول رجال توافت على ألسنتها وأورد بيتي طرفة وامرئ القيس⁽²⁾ . وسئل أبو الطيب المتنبي عن ذلك فقال : الشعر جادة وربما وقع الحافر على الحافر⁽³⁾ .

وحيثما تحدثت النقاد عن السرقات تنبّهوا إلى أنّ تلك السرقات غير متماثلة , فقسموها إلى أقسام كثيرة ليميزوا بينها , ويحدّدوا الفوارق بينها , وذلك من خلال التعبير عنها بمصطلحات متداولة بينهم , لتكون بمثابة مقاييس نقدية دقيقة يحكمون من خلالها بين الشعراء في قضية الأخذ من التراث والإفادة منه , وتشكل ضوابط تكبح جماح الفوضى النقدية , وأهم هذه المصطلحات التي ظهرت في الكتب النقدية :

النسخ أو الإهتداف : وهو عند ابن رشيق فيما دون البيت⁽⁴⁾ , مثل قول النجاشي⁽⁵⁾ :

وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ رَجُلٍ صَحِيحَةٍ وَرَجُلٍ رَمَتْ فِيهَا يَدُ الْخُدَّانِ⁽⁶⁾

فأخذ كثير القسم الأول واهتمم باقي البيت , فجاء في المعنى بغير اللفظ فقال :

وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ رَجُلٍ صَحِيحَةٍ وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتِ⁽⁷⁾

إذن فالنسخ عند ابن رشيق يتضمّن أخذ المعنى كاملاً , ومعظم اللفظ , أما عند الصوليّ فهو أخذ المعنى ومعظم اللفظ , ويتّضح ذلك من خلال قوله " ومن تبخر في شعر أبي تمام وجد كلّ محسن بعده لائذاً به قال أبو تمام :

(1) ابن وكيع , المنصف 1 / 27 .

(2) العسكري , الصناعتين / 249 .

(3) ابن رشيق , العمدة 2 / 289 .

(4) نفسه 2 / 273 .

(5) النجاشي الحارثي (? - 49 هـ) قيس بن عمرو بن مالك بن الحارث بن كعب بن كهلان . شاعر هجاء مخضرم اشتهر في الجاهلية والإسلام وأصله من نجران باليمن . ينظر ابن قتيبة , الشعر والشعراء 1 / 317 .

(6) ابن رشيق , العمدة 2 / 287 .

(7) نفسه 2 / 287 والديوان / 99 .

فَسَوَاءٌ إِجَابَتِي غَيْرَ دَاعٍ وَدُعَايِي بِالْقَفْرِ غَيْرَ مُجِيبٍ (1)

فقال البحتري نسخاً له :

وَسَأَلْتُ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ فَكُنْتُ فِي إِسَاءَةٍ تَخْبَارُهُ كَمُجِيبٍ مَنْ لَا يَسْأَلُ (2)

والنسخ عند ابن الأثير هو أخذ المعنى واللفظ جميعاً ، أو في أخذ المعنى أو أكثر اللفظ ، لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب (3). وهذا التعريف يقترب في شقه الأول من مفهوم الموارد عند النقاد ، وفي شقه الثاني من تعريف ابن رشيق للنسخ ، وهو لا يختلف عن مفهومه عند القزويني " وهو أن يأخذ المعنى كله إما مع اللفظ أو بعضه ، وإما وحده ، فإن كان المأخوذ كله من غير تغيير لنظمه ، فهو مذموم مردود ، لأنه سرقة محضة ويسمى نسخاً وانتحالاً " (4).

- السِّلْخُ : وأول من استخدم هذا المصطلح ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء في سياق موازنته بيت للأعشى وآخر لأبي نواس ، فقال : " وكان الناس يستجيدون للأعشى قوله :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا (5)

حتى قال أبو نواس :

دَعُ عَنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ (6)

فسلخه وزاد فيه معنى آخر ، اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه ، فلأعشى فضل

(1) الديوان 1 / 119 .

(2) أخبار أبي تمام / 76 والديوان 1 / 32 .

(3) المثل السائر 2 / 350 .

(4) الإيضاح / 302 .

(5) الديوان / 24 .

(6) الديوان / 11 .

السَّبِقِ إِلَيْهِ ، ولأبي نواس فضل الزيادة فيه " (1) فيتضح من تعليقه أن السِّلخ أخذ المعنى كله أو بعضه ، والزيادة عليه . أما العميدي فلا يرى ضرورة الزيادة على المعنى المأخوذ ويمثّل على ذلك بقول المتنبي :

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَنْ لَا تَفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ (2)

قد سلخ بيت إبراهيم بن عيسى الذي يقول فيه :

مَنْ لَمْ يُعْنِكَ عَلَى الْمَقَامِ م فَقَدْ أَعَانَ عَلَى الرَّحِيلِ (3)

وعرفه ابن الأثير بأنه أخذ بعض المعنى ، وهو مأخوذ من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ (4) وأطلق عليه القزويني الإلمام (5).

المسوخ : أول من تحدّث عن هذا المصطلح المرزباني خلال حديثه عن العتابي (6) وشعره فيقول : " وإن من أشعر شعر العتابي لقصيدته التي يمدح فيها الرشيد فقال فيها :

فِي مَاقِيٍّ انْقِبَاضُ عَنْ جُفُونِهِمَا وَفِي الْجُفُونِ عَنْ الْأَمَاقِ تَقْصِيرُ (7)

وهذا بيت أخذه من قول بشار الذي أحسن فيه غاية الإحسان ... :

جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى كَأَنَّ جُفُونَهَا عَنْهَا قِصَارُ (8)

(1) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1 / 74 .

(2) الديوان 3 / 372 .

(3) العميدي ، الإبانة عن سرقات المتنبي / 107 .

(4) المثل السائر 2 / 345 .

(5) الإيضاح / 307 .

(6) العتابي هو كلثوم بن عمرو من بني تغلب من بني عتاب ، من ولد عمرو بن كلثوم التغلبي ، وكان شاعراً محسناً ، وكاتباً مجيداً زمن المأمون . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 2 / 851 والأصفهاني ، الأغاني 10 / 53 .

(7) المرزباني ، الموشح / 333 .

(8) الديوان / 494 .

فمسخه العتابي " وحق من أخذ معنى وقد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه أو يزيد فيه عليه حتى يستحقه , أمّا إذا قصر عنه فإنه مسيء معيب بالسرقة مذموم بالتقصير " (1).

يتّضح لنا ممّا سبق أن المسخ ما هو إلاّ تقصير في الأخذ , لعدم استيفاء المعنى السابق الذي تناوله الشاعر .

وورد أيضاً هذا المصطلح عند ابن وكيع أثناء تعليقه على قول المتنبي :

أشاروا بتسليم فجداً بأنفسٍ تسيل من الآماق والسم أدمع (2)

يقول : " أحسن ما أتى في هذا قول بشر :

وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنّها نفس تذب فتقطر (3)

وقد قال ديك الجن (4) :

ليس ذا الدمع دمع عيني ولكن هي نفسي تدعيها أنفاسي (5)

فجانس بين النفس والنفس , وقد قال ابن دريد (6) :

لا تحسبي دمعي تحدر إنما نفسي جرت في دمعي المتحدر (7)

وكلّهم أنت الرّوح والرّوح مذكر , إنّما أنّثوه لتأنيث النفس , وكلام بشر أرطب وأعذب ,

لأنّ من قال " ذاب " قال : " قطرت " فهو أرجح من جميع هذه الألفاظ , فأما أبو الطيب

1 (الموشح / 333 .

2 (الديوان / 235 / 2 .

3 (الديوان / 524 .

4 (ديك الجن الحمصي (161 - 235 هـ) عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب، أبو محمد، الكلبى. شاعر مجيد، فيه مجون من شعراء العصر العباسي، سمي بديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين. الأصفهاني ، الأغاني / 14 / 33 .

5 (الديوان / 85 .

6 (محمد بن الحسن بن دريد الأزدي القحطاني، أبو بكر. ولد في البصرة (223 - 321 هـ) من أئمة اللغة والأدب. ينظر الأصفهاني ، الأغاني / 10 / 49 .

7 (المنصف / 1 / 153 .

فمسخ هذا المعنى وما نسخه , لأنه يبعد عن لفظ من تقدمه في الرّونق والبهاء وكثرة الماء ... (1) فالمسح إذن عند ابن وكيع هو أن يعبرّ اللّاحق بالفاظ أقلّ مرتبة من ألفاظ السّابق .
 وورد أيضاً هذا المصطلح عند ابن العميدي في معرض تعليقه على بيت المتنبي الذي يقول
 فيه :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ النَّئِيمَ تَمَرَّدَا (2)

حيث ذكر أنه من قول منصور بن سلمة بن الزرقاني النمري (3):

وَإِذَا عَفَوْتَ عَنِ الْكَرِيمِ مَلَكَتَهُ وَإِذَا عَفَوْتَ عَنِ النَّئِيمِ تَجَرَّمَا

يقول العميدي في تعليقه : " وإن أنت فخطأ , وإن جاز مثله للشاعر , ولقد تعب في مسخ هذا البيت قواه الله " (4). ربما قصد بالمسح هنا أخذ المعنى ومعظم اللفظ . أما المسح عند ابن الأثير فهو " إحالة المعنى إلى ما دونه , مأخوذاً من مسخ الآدميين قرده " (5)
 النّظر والملاحظة : وهما تساوي المعنيين دون اللفظ وخفي اللفظ . (6) ومن الأمثلة التي ذكرها قول مهلهل :

أَنْبَضُوا مَعْجَسَ الْقِسِيِّ وَأَبْرَقُوا نَا كَمَا تَوْعَدُ الْفُحُولُ الْفُحُولَا (7)

نظر إليه زهير بقوله :

يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا اطْعَنُوا ضَارِبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارِبُوا اعْتَنَقَا (8)

(1) المنصف 1 / 153 .

(2) الديوان 1 / 288 .

(3) منصور بن الزبير بن سلمة بن شريك النمري أبو القاسم. (? - 190 هـ) , من بني النمر بن قاسط شاعر من أهل الجزيرة الفراتية كان تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي ينظر ابن قتيبة , الشعر والشعراء 847/2 والأصفهاني , الأغاني 16 / 12 .

(4) الإبانة عن سرقات المتنبي / 51 .

(5) المثل السائر 2 / 345 .

(6) ينظر ابن رشيق , العمدة 2 / 287 .

(7) نفسه 2 / 287 .

(8) الديوان / 54 .

الإمام : يرى ابن رشيّق أنّ الإمام هو أن يتضادّ المعنيان ويدلّ أحدهما على الآخر (1).

ومثّل عليه بقول أبي الشّيص (2) :

"أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةٍ " حُبًّا لَذِكْرِكَ فَلْيَلْمَنِي اللُّومَ (3)

وقول أبي الطّيب :

"أَحْبَبُهُ وَأَحَبُّ فِيهِ مَلَامَةٌ " إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ (4)

التلفيق : " هو أن يميّز الشّاعر المعاني المتقاربة ، ويستخرج منها معنى مولداً يكون له كالاختراع ، وينظر به جميعها فيكون وحده مقام جماعة من الشعراء " (5) أي أنّ هذا النوع يتّصل بالإيجاز ، وبلغ فيه كلّ من المتنبيّ وأبو العلاء المعريّ كلّ غاية ، فكان أبو الطّيب أجمع الناس لكثير من المعاني في قليل من اللفظ ، وبذلك تقدّم عند الفضلاء ، وضرب المثل الذي ساد به أبو الطّيب الشعراء (6).

ومن الموازنات التي ذكرها ابن رشيّق حول هذا النوع من الأخذ قول أبي العلاء المعريّ :

وقال الوليد النّبغ لَيْسَ بِمُثْمِرٍ وَأَخْطَأَ سِرْبُ الْوَحْشِ مِنْ ثَمَرِ النَّبْعِ (7)

فقد ذكر أنّه يعني قول البحتريّ :

وَعَيَّرْتَنِي سِجَالِ الْعُدْمِ جَاهِلَةً " وَالنَّبْعُ عُرْيَانٌ مَا فِي فَرْعِهِ ثَمْرٌ (8)

وأراد بتخطئته ، أنّ الوحش يصاد بالقسيّ التي هي من النّبغ ، فكأنّه ثمر لها ، وإنّما تتناول

قول أبي الطّيب ، وعليه كان أكثر معوّله :

(1) ينظر العمدة 2 / 283 .

(2) واسمه محمد بن رزين بن تميم بن نهشل ، وأبو الشّيص لقبٌ غلب عليه ، وكنيته أبو جعفر وهو عم دعلج بن علي ينظر نهاية الأرب في فنون الأدب 3 / 84 .

(3) العمدة 2 / 287 أبو الشّيص ، أشعار أبي الشّيص / 93 .

(4) الديوان 1 / 4 .

(5) ابن رشيّق ، قراضة الذهب / 95 .

(6) نفسه / 96 .

(7) ديوان سقط الزند / 236 .

(8) الديوان 2 / 308 .

مُحِبُّ كَنَى بِالْبَيْضِ عَنِ مُرْهَفَاتِهِ وَبِالْحُسْنِ فِي أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ

وَبِالسُّمْرِ عَنِ سُمْرِ الْقَنَا غَيْرَ أَنَّنِي جَنَاهَا أَحْبَابِي وَأَطْرَافُهَا رُسُلِي (1)

إِلَّا أَنْ أَبَا الْعَلَاءِ جَعَلَ الثَّمَرَ وَحْشًا ، وَجَعَلَهُ أَبُو الطَّيِّبِ نِسَاءً " (2).

- حل النظم ونظم النثر : يعده ابن رشيقي من أجل أنواع السرقات (3) وفي قراضة الذهب

يصف نظم المنثور بالسرقة المغتفرة (4) ويراه ابن طباطبا واحداً من أساليب إخفاء

السرقة ، ويعطيها جمالاً وحسناً ، فهو يطلب إلى الشاعر إن وجد المعنى اللطيف في المنثور

من الكلام ، وفي الخطب والرسائل والأمثال أن يأخذه ويجعله شعراً ، فذلك أخفى وأحسن

(5) ويجعله سبباً من أسباب التفوق في ميدان البلاغة (6).

وعده العسكري واحداً من الأساليب التي قد يلجأ إليها الشاعر أو الناثر لإخفاء السرقة

فيقول : " وأحد أسباب إخفاء السرقة أن يورد معنى من نظم ، فيورده في نثر ، أو من نثر

فيورده في نظم " (7) وفي موضع آخر يرى " أن حل المنظوم ونظم المحلول أسهل من

ابتدائهما ، لأن المعاني إذا حلت منظوماً ، أو نظمت منثوراً ، حاضرة بين يديك ، تزيد فيها

شيئاً فينحل ، أو تنقص منها شيئاً فينتظم ، وإذا أردت ابتداء الكلام ، وجدت المعاني غائبة

عك فتحتاج إلى فكر يحضركها " (8). ومن الأمثلة على ذلك إعجاب بعض الشعراء بآيات

1 (المتنبي ، الديوان 3 / 290 .

2 (ابن رشيقي ، قراضة الذهب / 96 .

3 (العمدة 2 / 283 .

4 (ينظر ابن رشيقي / 85 .

5 (ينظر عيار الشعر / 81 .

6 (نفسه / 82 .

7 (الصناعتين / 219 .

8 (نفسه / 237 .

من القرآن الكريم ، أو الأحاديث النبوية ، أو الأمثال والحكم ، فيحولون معناها شعراً ، ومثال ذلك ما أورده الجرجاني من الأبيات ، ومنها قول السيد الحميري⁽¹⁾ :

قد ضيَع اللهُ ما جمَعْتُ من أدبٍ بين الحميرِ وبين الشاءِ والبقرِ⁽²⁾

ثم قرّر بأنها مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾⁽³⁾.

موقف النقاد المحدثين من التراث

ويرى محمد مصطفى هدارة في دراسته الأبعاد النظرية لقضية السرقات " أن لفظ السرقة في ميدان الأدب يجمع معاني كثيرة ، بعضها يتصل بالسرقة من حيث هي ، وبعضها الآخر لا يمت إلى المدلول الحقيقي لتلك الكلمة البغيضة ، على أنها مع ذلك لفظة عامة عند النقاد ، تشمل أنواع التقليد والتضمين والاقتباس والتحوير وغير ذلك " ⁽⁴⁾.

إنّ بواعث هذه الظاهرة - السرقات الشعرية - في النقد العربي القديم ابتعد كلياً عن مسّ النصوص مساً فنياً ، حيث ابتعد النقاد القدماء عن إبراز الملامح الفنية في عملية الأخذ أو السرقات أو التأثر. وكون هذه الظاهرة لا تبرز المحكّات الفنية للنصوص ، وهو الأساس في العمل النقدي أو الحكم ضمن معايير فنية تستعرض مكونات جماليات العمل الأدبي وفكره ، فإنّها قاصرة ولا تشكل حلقة قويّة في سلسلة الجهود النقدية القديمة . ولعل إحسان عباس كان له رأي جريء في الحكم عليها ، ويتضح ذلك من خلال قوله : " ثم لا يحتاج كذلك إلى أن يظلّ لقضية السرقات هذا المقام الكبير في النقد الأدبي ، وكأن هذا يعني أنّ

1 (السيد الحميري (105 - 173 هـ) إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري أبو هاشم أو أبو عامر . شاعر إمامي متقدم . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 2 / 803 و الكتبي ، فوات الوفيات 1 / 188 .

2 (الديوان / 237 .

3 (الفرقان / 44 .

4 (الأبعاد النظرية لقضية السرقات وتطبيقاتها في النقد العربي القديم ، مجلة فصول م 6 ، ع 1 ، 1985 م ، ص 124 .

"قضية السرقة" ما كان لها من حقها أن توجد لأنها استطاعت أن تتحوّل بالنقد في وجهة غير مثمرة أبداً... ونقول إنّ انتحاء هذا المنهج كان ضللاً بعيداً في تاريخ النقد الأدبي واستهلاكاً لجهود كان من الممكن أن تثمر فيما هو أجدى وأجدر , ذلك أن الانهماك في تبيان السرقة قد حجب عن أعين النقاد أموراً هامة " (1) .

وواضح أنّ الفرق بين التأثير والسرقة فرق كبير , فالتأثر مع الاستعداد والموهبة يخلق الأعمال الفنية المتميزة التي تدلّ على الأصالة عند الشاعر , بينما لا تتطلب السرقة كلّ ذلك ويبدو أنّ القدماء قد تعمدوا اتّهام المحدثين بالسرقة , لتجريدهم من كلّ أصالة وإظهارهم بمظهر المتطفلين الذين يعيشون عالية على غيرهم . والعيب ليس في التأثير وإنّما في مصطلح السرقة الذي يلحّ عليه النقاد , ممّا يجعل الاعتماد على مقياس السرقة الشعريّة في تقديم الشاعر أو إسقاطه أمراً في غاية الصعوبة , وغير دقيق في آن واحد . ما دامت الأفكار والمعاني ليست وقفاً على عصر دون عصر أو جيل دون جيل . ولكن تعصب النقاد القدامى للشعر القديم هو الذي أدّى إلى طرح مشكلة السرقة بهذه الحدة , وبمفهومها الضيق , وجعلها تأخذ مجالاً واسعاً من اهتمام النقاد فيما لا يغني النقد ولا يساعد على تطوره (2) .

فالتراث له سيطرته التي تخضع كلّ الشعراء , وهذا لا يعني أن يقع الشاعر ضحية لاستعباد هذا التراث , فالشاعر المجيد هو من يستطيع أن يطوّع هذا التراث في خدمة فنّه دون أن يفنى فيه . فالانكفاء على التراث لا ينفى عظمة الشاعر , ولا يعني أن يتحوّل الشاعر إلى نسخة مكرّرة عن الآخرين , إذ لا بدّ من فنّه وشخصيّته على ما هو بصدد الأخذ

1 (تاريخ النقد الأدبي عند العرب / 673 , 293 .

2 (كنعان , محمد دروي سالم , المختارات الشعرية ومعاييرها النقدية حتى نهاية القرن الرابع الهجري / 96 - 97 , رسالة ماجستير , جامعة اليرموك , إربد , 1983 م .

منه , فهو لا يجب أن يتوقّف عند استيعاب التّراث بل عليه أن يجمع بين تجاربه وتجارب
القدماء , ويستغلّ قدراته في معالجة كلّ ما هو موروث , وإخراجه بشكل جديد يناسب
عصره (1).

إنّ الأخذ من التّراث والإفادة منه ما هو إلاّ تفاعل المتأخّر مع المتقدّم , وإفادة كلّ جيل
ممنّ سبقه , وهذا الأمر لا يقف عند حدود أدب وحده بفروعه المختلفة بل ينطبق على
العلوم كافة , فالحضارة الإنسانيّة لا تتطوّر وتزدهر إلاّ بإفادة الأجيال من بعضها على مرّ
العصور , وذلك بانطلاق كلّ جيل من النّقطة التي انتهى إليها الجيل السّابق له , وهذا يعني
أنّ المسألة ما هي إلاّ تلاقح أفكار وتبادل ثقافات وليست سرقة , وهذا ما فطن إليه الحاتمي
عندما تحدّث عن مقوّمات الشّاعر , حيث أكّد أنّه لا بدّ للأحق من الاعتماد على السّابق
اعتماداً يزداد عند هذا الأديب , ويقلّ عند ذلك , تبعاً لاطلاعه وثقافته وذكائه , فيقول :
" ومن ظنّ أنّ كلامه لا يلتبس بكلام غيره , فقد كذب ظنّه وفضحه امتحانه ... ولو نظر
ناظر في معاني الشّعْر والبلاغة حتّى يخلص لكلّ شاعر وبلغ ما انفرد به من قول وتقدّم
فيه من معنى لم يشركه فيه أحد قبله ولا بعده , لألفى ذلك قليلاً معدوداً , ونزراً محدوداً" (2).

التّناسّ والسّرقات الشعريّة :

تنبّه النّقاد القدماء إلى موضوع التّناسّ حينما أوّمؤوا إلى قضية السّرقات ,
وخصّوا بالذّكر سرقة المعاني , وقالوا إنّ باب لم يسلم منه أحد , وهذا إقرار منهم بأنّ
النّص يتناصّ مع نصوص كثيرة مهما حاول صاحبه أخذ الحيطة والحذر , ولكنهم عزّوا
هذا التّناسّ إلى هذا المصطلح السّلبيّ " السّرقات " (3) . ويقول الأمديّ : إنّ من أدركته من

1 (ينظر التطاوي , عبدالله , القصيدة العباسية - قضايا واتجاهات - / 14 .

2 (حلية المحاضرة 2 / 28 .

3 (الجعافرة , ماجد ياسين , التناص والتلقي / 17 .

أهل العلم لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوي الشعراء وخاصة المتأخرين , إذ كان هذا باباً لم يتعري منه متقدم ولا متأخر (1) , وقال ابن رشيق في عمدته : " وهذا باب متسع جداً لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه " (2) . فالشاعر لا يعذر في تناوله معاني من سبقه حتى " يبرز المعاني التي سبق إليها , فيبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها " (3) . وهذه النظرة تومئ إلى وظيفة التناص الذي عبر عنه النقاد العرب القدامى بالسرقعة , وهذه الوظيفة أشدّ خفاء عند المحدثين لأنهم يعمدون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغيير المناهج والترتيب , كما أنهم تكلفوا جبر ما فيه من نقيصة بالزيادة والتأكيد والتعويض في حال , والتصريح في الأخرى , والاحتجاج والتعليل (4).

ويبدو أنّ النقاد العرب القدماء أحسّوا قصور فهم مصطلح السرقعة , وأنه لا يعبر بحال من الأحوال عن النماذج التي توقّفوا عندها , وهم يرصدون تأثير الشعراء بعضهم ببعض , ولهذا صنّفوا السرقات , ووضعوا لها مصطلحات كثيرة متدرّجة كالتنفيق والإمام والمسح والسلخ وهذا تصريح واضح بقصور مصطلح السرقات (5).

وقد ناقش فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص غير باحث وتوصّلوا إلى أنّ السرقات الشعرية هي التناص في النقد الحديث (6) , وعارض بعضهم هذه المقولة , حيث أشاروا

1 (الأمدي , الموازنة / 291 .

2 (العمدة 2 / 280 .

3 (ابن طباطبا , عيار الشعر / 79 .

4 (الجرجاني , الوساطة / 214 .

5 (ينظر الجعافرة , ماجد ياسين , التناص والتلقي / 17 .

6 (ينظر الكبيسي , طراد , التناص في القصيدة العربية الحديثة , الأفلام , ع (11 - 12) , 1987م ص 138 . و القمري , بشير , مفهوم التناص بين الأصل والامتداد , الفكر العربي المعاصر , ع 60 - 61 , 1989 م , ص 92 . والسعدني , صلاح , التناص الشعري قضية أخرى لقضية = السرقات / 81-82 . وجهاد , كاظم , أدونيس منتحلاً - دراسة في الاستحواد الأدبي وارتجالية الترجمة يسبقها ما هو التناص - / 25 .

إلى أن السَّرقات والتَّراث النَّقدي لدينا يختلف في دوافعه الفكرية والفنية والتقنية عن الدَّوافع

الفكرية والفنية والتقنية للتناص⁽¹⁾ .

فالظُّروف التي نشأ فيها مصطلح السَّرقات الأدبية تختلف عن الظُّروف التي نشأ فيها مصطلح التناص , فبواعث السَّرقات كان أهمها العداوة القائمة بين النقاد والشعراء , وذلك للحط من شأن الشعراء المجددين وتجريحهم انتصاراً للقديم⁽²⁾ , وبالمقابل فإن التناص يتكئ على الرّؤى الفكرية للنقد الحديث القائل بموت المؤلف والاهتمام بالنص وحده وعلاقته بالعالم بالكاتب بالمتلقي , فهو إذن أعمق وأشمل وأكثر تعقيداً من تحديد النص السابق واللاحق وإن كان هذا جزء منه⁽³⁾.

ويختلف التناص عن السَّرقات في محاور عدّة منها : محاور تتكئ على المضامين , وأخرى فنية. ومن الأولى أن التناص أعمّ من السَّرقات , إذ يجعل اللاشعريّ شعرياً , فيوظف الأسطورة والقصة التاريخية والشخصيات التراثية والحديثة , والمواقف الدالة على أحداث قديمة أو حديثة , فيهدم بذلك الحدود الأجناسية القائمة منذ عصور سحيقة , فيخترقها إلى الأدبية واللاأدبية . أمّا السَّرقات فقد اقتصرت على نقل المعنى الشعريّ أو القرآنيّ , وقد انصهرت ضمن ما يسمّى نثر المنظوم ونظم المنثور في حالات أخرى من السَّرقات , لذلك كان التناص أرحب وأوسع في طرحه للمضامين المتناصّة⁽⁴⁾ .

1 (ينظر بنيس , محمد , ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب , مقارنة بنيوية تكوينية / 252 . و ماضي , شكري عزيز , من إشكاليات النقد العربي الجديد / 172 . واصطيف , عبد النبي , التناص , راية مؤتة , م 2 , ع 2ع , 1993م , ص 51 . والموسى , خليل , التناص والأجناسية في النص الشعري , الموقف الأدبي , ع 305 , 1996 م , ص 83 .

2 (ينظر السمرة , محمود , عبد القاهر الجرجاني - الأديب الناقد - / 189 .

3 (مراشدة , عبد الباسط , التناص في الشعر العربي الحديث - السياب ودنقل ودرويش أنموذجاً / 42 .

4 (نفسه / 42 .

أما الاختلافات الفنيّة فتتجلى في مواطن متعدّدة , أولها أنّ النّقد القائم حول السرقات الشعريّة محوره البيت المفرد أو البيتان , وهو حكم يدرك شيئاً ويغيب عن إدراكه شيء كثير , إذ لو نظر إلى البيت في سياقه الذي نبت فيه لربّما تغيّر الحكم واختلفت النظرة (1).

أمّا التّناسق فإنّه ينظر إلى النّص كاملاً , والأخذ فيه يتيح قراءة أجمل للنّص فلا حدود بين البيت المأخوذ والنّص الحاضر لأنّ النّص يقوم بعملية هدم البيت المأخوذ وبنائه في نصّ جديد , فيصبح إشارة إلى نصّ غائب يثري النّص الحاضر, وضمن هذه الفعالية يكون النّشاط النقدي (2).

1 (مرشدة , عبد الباسط , التّناسق في الشعر العربي الحديث - السياب ودينقل ودرويش أنموذجاً /

. 43

2 (نفسه / 43 .

الفصل الأول

التراث الديني في شعر أبي تمام والمنتبي

التراث الديني في شعر أبي تمام والمنتبّي

يعدّ التراث الديني مصدراً خصباً من مصادر الإلهام الأولي عند المبدعين ، فيرتبط الدين بحياة الناس اليومية والمعيشية ارتباطاً وثيقاً، ويحتلّ دوراً كبيراً في تشكيل الوجدان التراثي للأمة .

ويتمثّل التراث الديني في الكتب السماوية المقدّسة وما يحيطها من أبعاد دينية أخرى ، فالقرآن الكريم والكتاب المقدّس مثلاً كانا مصدرين أساسيين امتاح منهما الشعراء وحاوروهما في عصور الأدب بعد عصر صدر الإسلام في كثير من المواقف .

توظيف القرآن الكريم في شعر أبي تمام

لقد شكّل القرآن الكريم المصدر الأول للفصاحة والبلاغة والبيان في التراث العربي ، فكان له أثر كبير في تكوين معاني الشعراء والأدباء والخطباء وألفاظهم وصورهم وصقلها ، حيث استلهموا - على مرّ العصور - العديد من الألفاظ والمعاني من آياته وقصصه ، وحكمه وأحكامه ، ووعدّه وتبشيريه ونذيره ، ولونوا أشعارهم بصوره المادية الجميلة ، وأفكاره العظيمة المتميّزة (1).

كان القرآن الكريم ، المعين الأول في عصر أبي تمام لمن يريد أن يتتقّف في تلك الفترة ، فلا غنى لأيّ متقّف عن قراءته وفهمه وحفظه ، فهو مصدر التراث الديني ، وينبوع الفكر الإسلامي ، ومعيناً ثراً للبلاغة والفصاحة والبيان ، إذ استثمره الشعراء في كلّ مكان

(1) ينظر السمره ، محمود وآخر ، *مدخل إلى النقد الأدبي* / 93 و عياش ، نساء نجاتي ، *التناص الديني في شعر رزيك* ، مجلة الجامعة الأردنية لدراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، م 23 ، ع 2 ، 2005 / 249 . والعزام ، محمود عيسى محمد ، *الشاهد الأدبي في النقد العربي القديم مفهومه ووظيفته* ، / 125 ، رسالة ماجستير ، جامعة البرموك - إربد ، 1999 م .

وزمان في صوغ معانيهم , وإغناء إبداعاتهم , وإضفاء الجمال عليها , وتعميق تجاربهم الشعرية

وقد تأثر أبو تمام بالقرآن الكريم - ولعله حفظه - فظهرت آثاره واضحة في شعره , وذلك من خلال استخدامه ألفاظه ومعانيه وصوره (1) , ويعجب البهيتي من كثرة تمثله بالقرآن الكريم , فيقول : " لا أعرف شاعراً من شعراء العربية , تأثر بالقرآن الكريم تأثر أبي تمام , فإنّ القارئ لا يكاد يمضي في الديوان حتّى يعثر بين خطوة وأخرى بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من القرآن الكريم " (2).

استيحاء ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه

وتنوّعت إفادة أبي تمام من القرآن الكريم , فوظف كثيراً من ألفاظه في شعره ,

ومن ذلك قوله :

أَخْرَجْتَهُمْ بَلْ أَخْرَجْتَهُمْ فِتْنَةً سَلَبْتَهُمْ مِنْ نَصْرَةٍ وَنَعِيمٍ
نُقِلُوا مِنَ الْمَاءِ النَّمِيرِ وَعَيْشَةٍ رَغَدَ إِلَى الْغَسَلِينَ وَالزُّقُومِ (3).

يصور أبو تمام أعداء ممدوحه , بعد أن هزمهم , وما تبع هزيمتهم من انتقالهم من حال الكبرياء والسعادة والنعم إلى حال الذل والهوان والشقاء , مستعيناً بألفاظ في رسم صورة ممدوحه من قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (4) , وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ

(1) ينظر بهجت , مجاهد مصطفى , التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول / 143 .

(2) أبو تمام الطائي - حياته وحياته شعره - 671 .

(3) أبو تمام , الديوان 3 / 265 - 266 .

(4) المطففين 24 .

شَجَرَةَ الزَّقُّومِ , طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿⁽¹⁾﴾ , وقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ , وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينٍ ﴾ ⁽²⁾ .

وتجده في قوله :

عِيَّاشُ ⁽³⁾ إِنَّكَ لِلنَّيْمِ وَإِنِّي
مُدُّ صِرْتِ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلنَّيْمِ
السُّحْتِ أَطْيَبُ مِنْ نَوَالِكَ مَطْمَعًا
وَالْمُهْلُ وَالْغَسَلِينُ وَالزَّقُّومُ ⁽⁴⁾

يوظف ألفاظاً من الآيات السابقة الذكر وقوله تعالى : ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي

الْبُطُونِ ﴾ ⁽⁵⁾ , في موقف هجائي , حيث يفضل السحت وشرب المهل على عطاء

ذلك المهجور , إحياء منه بشدة بخل عيَّاش بن لهيعة ولؤمه .

ويفخر أبو تمام بقومه , فيقول:

وَقَسَمْنَا الضِّيْزَى بِنَجْدٍ وَأَرْضِهَا
لَنَا خُطُوَةٌ فِي عَرْضِهَا وَلَهُمْ فِتْرٌ ⁽⁶⁾ .

فقوم أبي تمام اشتهروا بالبأس والقوة وعلو المنزلة وسرعة التقدم والتطور , فإذا كان الآخرون

يتقدمون فتراً , فإن قومه يتقدمون خطوة , وهو هنا يستوحي ألفاظاً من قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا

قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ ⁽⁷⁾ , ليؤكد على علو همّة قومه , وسبقهم للمعالي .

ويستوحي بعض الألفاظ القرآنيّة في قوله :

تَزَكُوا مَوَاعِدُهُ إِذَا وَعَدُ امْرِيٌّ
أَنْسَاكَ أَحْلَامَ الْكِرَى الْأَضْغَاثَا

(1) الدخان 43 - 44 .

(2) الحاقة 35 - 36 .

(3) عيَّاش بن لهيعة, قائد الشرطة في مصر (ت 215هـ) ينظر ابن ناصر الدين , توضيح المشتبه 3 / 252 .

(4) أبو تمام , الديوان 4 / 425 .

(5) الدخان 45 .

(6) أبو تمام , الديوان 4 / 578 .

(7) النجم 22 .

لَمْ آتِهَا مِنْ أَيِّ وَجْهِ جِئْتَهَا إِلَّا حَسِبْتُ بُيُوتَهَا أَجْدَاثًا (1)

فأبو تمام يستعطف ممدوحه مالك بن طوق (2) , من خلال الإشارة إلى ضيق مجالات الحياة في قريته وقلة أهل الفضل فيها مستعيناً بألفاظ قرآنية من قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (3) , وقوله تعالى : ﴿ خَشَعَا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ (4) , ليؤثر في ممدوحه , مما أضيف على بيئته جمالاً وعمقاً.

ويستوحي أحياناً لفظة من القرآن الكريم في رسم صورته :

حَتَّى تَرَكَتَ عَمُودَ الشَّرْكِ مُنْقَعِرًا وَلَمْ تُعْرَجْ عَلَى الْأَوْتَادِ وَالطُّنْبِ (5)

تحدث أبو تمام عن نتائج فتح عمورية , ومنها أن المعتصم جعل عمود الشرك منقعرًا أي آيلاً للسقوط مستوحياً لفظة منقعرًا من قوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ (6) , فهذه اللفظة جعلت معنى البيت أكثر عمقاً وإيحاءً , لأنها توحى بعظم هذا العمل .

ويهجو موسى بن إبراهيم الرافقي (7) :

فَاضَ النَّامُ وَغَاضَتِ الْأَحْسَابُ وَاجْتَثَّتِ الْعُلْيَاءُ وَالْآدَابُ

فَكَانَ يَوْمَ الْبَعَثِ فَاجَأَهُمْ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ وَلَا أَسْبَابُ (8)

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 320 - 322 .

(2) مالك بن طوق التغلبي (ت 260هـ) صاحب الرحبة؛ أحد الأشراف والفرسان الأجواد، ولي إمرة دمشق للمتوكل ينظر الأتابكي , النجوم الزاهرة 3 / 32 .

(3) يوسف 44 .

(4) القمر 7 .

(5) أبو تمام , الديوان 1 / 64 .

(6) القمر 20 .

(7) أبو المغيث ولي إمرة دمشق للمعتصم , وإمرة حمص للوائق ينظر ابن عساكر , تاريخ مدينة دمشق 388 / 60 .

(8) أبو تمام , الديوان 4 / 311 .

فهو يعرّض بمهجوه وذلك من خلال قوله له : إنَّ اللّثام قد كثروا , والأحساب استوّصلت واختفت , وكذلك العلياء والآداب , وكأنّ يوم البعث قد جاء فجأة , وليؤكّد هذا المعنى اقتبس من قوله تعالى وحوّره : ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (1) .

ويصوّر أبو تمام سياسة ممدوحه أبي سعيد الثّغري (2) في جهاده ضدّ الروم في قوله :

قَدْ رَأَوْهُ وَهُوَ الْقَرِيبُ بَعِيدًا وَرَأَوْهُ وَهُوَ الْبَعِيدُ قَرِيبًا (3)

فيبيّن أبو تمام أنّ حالات ممدوحه التّبست على أعدائه في القرب منهم والبعد عنهم , فهم يرونه على قربه منهم بعيداً لمناعته , ويرونه قريباً منهم لعزمه وهجومه الشّديد , أي أنّ سياسته قد خفيت عليهم . وإنّ من أعظم فنون السّياسة ألاّ يظهر الدّهاء للأعداء كما فعل أبو سعيد , إذ لم يدركوا خطّطه مع أنّ خطّطهم كانت لديه واضحة , وهو في معناه ولفظه متأثر بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ (4) .

ويعاتب أبوتمام عيّاش بن لهيعة بقوله :

لَيْسَ يَدْرِي إِلَّا اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَيُّ شَيْءٍ تُطَوِي عَلَيْهِ الصُّدُورُ
وَيَقُولُونَ إِنَّكَ الْمَرءُ بِالْغَيْبِ بِ مِحَامٍ عَنِ الصَّدِيقِ نَصُورُ
فَإِذَا جِئْتُ زَائِرًا حَجَبْتُ وَجْهَ هَكَ عَنِّي كَابَةٌ وَيُسُورُ (5)

لأنّه يرى منه خلاف ما يسمع عنه , ويستعين بالآية الكريمة ليعبر عمّا يجول بخاطره :

﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

(1) المؤمنون 101 .

(2) أبو سعيد محمد بن يوسف الثّغري الطائي الحميدي , من أهل مرو , وكان من قواد حميد الطوسي .

ينظر الصولي , أخبار أبي تمام / 227 .

(3) أبو تمام , الديوان 1 / 163 .

(4) المعارج 6 - 7 .

(5) أبو تمام , الديوان 4 / 448 .

الْخَيْرُ ﴿١﴾.

ويمدح محمد بن يوسف في قوله :

لَبِستُ سِوَاهُ أَقْوَاماً فَكَانُوا كَمَا أَغْنَى التَّيْمَمُ بِالصَّعِيدِ (٢)

إذ يصور أبو تمام كرم ممدوحه الذي لم يجد له نظيراً في عصره ، مبيناً له أنه كان مضطراً إلى إتيان غيره ، فلم يرضه عطاءهم ، فاقتنع بالأقل منهم ، كمن يقتنع بالتيمم من لم يجد ماء مستوحياً قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (٣).

ويشكر أبو تمام خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني (٤) على معروف له :

لَأَشْكُرَنَّكَ إِنْ لَمْ أَوْتِ مِنْ أَجَلِي شُكْرًا يُؤَافِيكَ عَنِّي آخِرَ الْأَبْدِ

وَإِنْ تَوَرَدْتُ مِنْ بَحْرِ الْبُحُورِ نَدَىً وَكَمْ أَنْلَ مِنْهُ إِلَّا عُرْفَةً بِيَدِي (٥)

فبيّن مدى امتنانه لممدوحه ، حتّى إنه سيشكره طوال عمره شكراً يوافيه عنه إلى الأبد حتّى لو كان عطاؤه قليلاً ، وقد استوحى معناه ولفظه من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ

عُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ (٦).

ويمدح أحمد بن أبي دؤاد (٧) في قوله :

(١) الملك 13 - 14 .

(٢) أبو تمام ، الديوان 2 / 42 .

(٣) النساء 43 .

(٤) هو خالد بن يزيد بن يزيد أحد الولاة الأجواد ، ولاة المأمون مصر سنة 206 هـ ، وكان والياً على أرمينية أيام الواثق ، ومات سنة 230 هـ ينظر الأصفهاني ، الأغاني 15 / 104 والصولي ، أخبار أبي تمام / 107 ، 158 ، 163 .

(٥) أبو تمام ، الديوان 2 / 7 .

(٦) النساء 43 .

(٧) أحمد بن أبي دؤاد بن جرير بن مالك (ت 240هـ) أحد القضاة المشاهير من المعتزلة . ينظر النديم الفهرست 5 / 212 و النويري ، نهاية الأرب 22 / 188 - 216 والذهبي ، العبر 1 / 333 - 345 .

مَعَادُ الْبَعْثِ مَعْرُوفٌ وَلَكِنْ نَدَى كَفَيْكَ فِي الدُّنْيَا مَعَادِي (1)

فيثني أبو تمام على ممدوحه ويبالغ في ثنائه عليه , موظفاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (2) , ليبين كرمه الذي لا حدود له .

ويمدح المعتصم في بانيته المشهورة :

رَمَى بِكَ اللَّهُ بُرْجِيهَا فَهَدَمَهَا وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يُصِبْ

مِنْ بَعْدِ مَا أَشْبَوْهَا وَاتَّقِينَ بِهَا وَاللَّهُ مِفْتَاحُ بَابِ الْمَعْقِلِ الْأَثْبِ (3)

فقد كان قتال المعتصم نصرة لدين الله , ولو كان لغير ذلك لم ينصر , ويرى أبو حمدة أن الرمي في وقعة عمورية مزية من المزايا التي أعطاها المعتصم كما كان أعطي جدّه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - , وهي أن الرمي في غزوة بدر كان الله هو الذي رمى على الحقيقة (4). وهو في هذا المعنى يحاكي قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (5) و قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (6).

ويشير أبو تمام إشارة ضمنية إلى مباركة الله سبحانه وتعالى وملائكته فتح عمورية

بقوله :

فَتَحُّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقَشْبِ (7)

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 375 .

(2) القصص 85 .

(3) أبو تمام , الديوان 1 / 59 .

(4) ينظر في التدقيق الأسلوبى واللغوى لقصيدة أبي تمام في فتح عمورية / 54 - 60 .

(5) الروم 47 .

(6) الأنفال 17 .

(7) أبو تمام , الديوان 1 / 46 .

وإضافة الأثواب فيه إسباغ على ما يتعلّق بالإنسان على الجماد بما يعمّق الإحساس بالفعل والمنظر ومتعلقاته , وكأنّ الأرض قد اكتست حلل البهجة احتفاء بالنّصر علاوة على لونها الأخضر بما اكتسته من دماء الشّهداء . وذكر السّماء والأرض بما فيهما من مقابلة تعمّق الإحساس بالصّورة المطلوبة لهما قرينة قرآنيّة أيضاً ففي قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (1) إشارة بالغة إلى أنّ السّماء والأرض تتخذان موقفاً من البهجة والسّخّط تعبيراً عن إرادة الله سبحانه وتعالى , وكأنّ أبا تمّام لمح هذه القرينة , فحولها عن مقامها في فرعون وقومه إلى أن تكون في موقع الرضا والبهجة والمسرة(2).

وقال أبو تمّام يمدح أبا الحسين محمّد بن الهيثم بن شبانة (3) ويبرر إسرافه بقوله :

لَهُ خُلِقَ نَهَى الْقُرْآنُ عَنْهُ وَذَلِكَ عَطَاؤُهُ السَّرْفُ الْبِدَارُ

وَلَمْ يَكْ مِنْكَ إِصْرَارٌ وَلَكِنْ تَمَادَتْ فِي سَجِيَّتِهَا الْبِحَارُ (4)

فأبو الحسين بلغ حدّ الإسراف حتّى أصبح ذلك سجيّة فيه وطبع لا يتغيّر , كسجيّة البحار في منع اللؤلؤ , فهو لا يقصد أن يخالف أمر الله بلزوم الإسراف الذي نهى عنه , ولكنّ ذلك طبع فيه وعادة , والعادة طبيعة ثانية يصعب مخالفتها , ويلاحظ أنّه تأثر بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (5).

(1) الدخان 29 .

(2) ينظر أبو حمدة , محمد علي , في التدوق الأسلوبى واللغوى لقصيدة أبي تمام الطائي في فتح عمورية / 33 - 34 .

(3) قاضي عكبرا وبها وفاته سنة 279 هـ , من ثقافت رواة الحديث . ينظر البغدادي , تاريخ بغداد / 3 / 362 .

(4) أبو تمام , الديوان / 2 / 156 - 157 .

(5) الأعراف 31 .

ويورد أبو تمام بعض التعبيرات ذات الخصوصية القرآنية ، مع تحوير فيها دون أن يفقدها تلك الخصوصية . (1) ومن الأمثلة على ذلك قوله :

هِيَ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ يُشْرَعُ وَسَطُهَا بَابُ السَّلَامَةِ فَادْخُلُوا بِسَلَامٍ (2)

فهو هنا يقتبس قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ (3) بمناسبة مبايعة الواثق بالخلافة ، فهذه المبايعة هي بيعة الرضوان لما فيها من الصلاح والسلامة للمسلمين .

وفي وقفة غزلية ، يقول أبو تمام :

فَاعْزِلُوا فِيهِ كَيْفَ شِئْتُمْ وَقُولُوا قَدْ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ (4)

يوضح أبو تمام في هذه الوقفة موقف العذال والحساد منه و من محبوبته ، حيث يفوض فيهم أمره إلي الله ، وليدعم موقفه ويذكرهم بعاقبة أفعالهم يوظف قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ (5) .

و يمدح إسماعيل بن شهاب ويشكره ، فيقول :

قَدْ سَقَتْنِي الْأَيَّامُ مِنْ يَدِهَا سُمًّا لَفَقَدِي لَهُ بِكَاسٍ دِهَاقٍ (6)

ويعيش أبو تمام حياة صعبة قاسية نتيجة بعده عن ممدوحه وفراقه له ، وللتعبير عن هذا الشعور يوظف قوله تعالى : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ (7) ، ليؤثر بالمتلقي ، فالإنسان عندما يسمع هذه الآية يتذكر ثواب المتقين في جنات النعيم ، وهم يشربون كؤوساً مما لذ وطاب ، ويعيشون في رغد وهناء ، ولكن أبا تمام استخدم هذا المعنى في سياق جديد مخالف لما ورد في الآية ،

(1) ينظر غضبية ، عبد الرحمن ، استلهام التراث في شعر أبي تمام ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر ، السنة 3 ، العدد 3 ، 1991 ، م ، ص 232 .

(2) أبو تمام ، الديوان 3 / 207 .

(3) الحجر 46 .

(4) أبو تمام ، الديوان 4 / 255 .

(5) الأحزاب 25 .

(6) أبو تمام ، الديوان 2 / 448 .

(7) النبأ 34 .

فأصبحت هذه الكأس مؤشراً على الحزن والألم , والشّعور بالضيق والضجر . فدلالة الامتلاء في النصّ القرآنيّ إيجابيّة , بينما دلّالته في نصّ أبي تمام سلبية , ممّا يكشف عن قدرته في استثمار النصّ القرآنيّ في التعبير عن حالته الوجدانية الخاصّة , وتوظيفه وفق مقتضيات الموقف الذي يَصوّر . ومما يؤكد أنّ أخذه من القرآن كان عن وعي بالقرآن , وأنّ أخذه لم يكن للتزيين وإنما للتوظيف , وللاقتراب بنصّه الإبداعي من النصّ الأنموذج.

استدعاء صور من القرآن الكريم

ويستوحي أبو تمام كثيراً من صوره من القرآن الكريم , ومن الأمثلة على ذلك استيحاء صورة المشي على الصراط المستقيم , ووضعها في سياق جديد , وذلك في وصف حجّة حجها مع صالح بن عبد القدوس القرشي:

فَمَرَّتْ مِثْلَمَا يَمْشِي شَهِيدٌ سَوِيًّا فِي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
وَلَوْلَا اللَّهُ يَوْمَ مَنِيَّ لَأَبَدَتْ هَوَاهَا كُلُّ ذَاتٍ حَشِيٍّ هَضِيمٍ (١).

فيصوّر أبو تمام سرعة ناقة الممدوح في طيّ المسافات , ومعاناتها , وهذه الناقة ربّما تمثّل الوجه الآخر للممدوح مستوحياً قوله تعالى : ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٢) ممّا أضفى جمالاً على هذا البيت , لأنها تحمل دلالة الاستقامة , وهذا ما يريد أبو تمام أن يضيفه على ممدوحه , إضافة إلى صفة الشرف التي يتمتّع بها الشهيد يوم القيامة , فصورة الناقة التي تمشي على الصراط المستقيم مشي الشهيد تسترعي الانتباه وتثير الدهشة , وهو بذلك يخرج عن مألوف عادة الشعراء في توظيفه هذه الآية .

وبيّن أبو تمام إيقاع ممدوحه محمّد بن يوسف الطائي بأعدائه في قوله :

(١) أبو تمام , الديوان 4 / 535 .
(٢) الفاتحة 6 .

قَسَمْنَاَهُمْ فَشَطَرُ لِلْعَوَالِي وَآخِرُ فِي لَظَى حَرَقِ الْوَقُودِ
كَأَنَّ جَهَنَّمَ انْضَمَّتْ عَلَيْهِمْ كَلَاهَا غَيْرَ تَبْدِيلِ الْجُلُودِ (1).

فيصوّر أبو تمام فعل ممدوحه بأعدائه , إذ قتل بعضهم وأحرق الآخر , وكأنهم أدخلوا نار جهنم, غير أن أهل جهنم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً , وهؤلاء أحرقوا دفعة واحدة مستمداً صورته من قوله تعالى : ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدُلْنَاَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ (2). ويوظف الآية نفسها في تصوير هول معركة عمورية فيقول :

تَسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضِجَتْ أَعْمَارُهُمْ قَبْلَ نَضِجِ التَّيْنِ وَالْعَنْبِ (3)

فهو يبيّن هول المعركة التي خاضها المعتصم لفتح عمورية , حيث أحرق تسعين ألفاً من الروم , فلقوا حتفهم قبل نضج التين والعنب , حيث استعار الفعل نضج للأعمار . ويرثي أبو تمام محمد بن حميد الطوسي بقوله :

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ (4)

ويؤكد أبو تمام أن المرثي حي يرزق عند الله في الجنة حيث النعيم والحياة الخالدة لأنه شهيد , مستوحياً صورته من قوله تعالى ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ (5) .

فكنى عن الشهادة بالحمرة لون الدّم , وكنى عن السعادة الأبدية بلون الخضرة , وما بين الطرفين تضاد واضح (6) . وهو هنا يوظف الألوان توظيفاً فنياً وفكرياً , فالدماء في بداية الأمر تكون حمراء قانية اللون , حتى إذا مضى عليها وقت مالت إلى السواد , وما تزال بطول الوقت , تميل إلى لون داكن هو خليط من السمرة والخضرة وفيه من تكوين "

(1) أبو تمام , الديوان 39 / 2 .

(2) النساء 56 .

(3) أبو تمام , الديوان 69 / 1 .

(4) نفسه 81 / 4 .

(5) الإنسان 21 .

(6) كباية , وحيد صبحي , الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس / 110 .

البلازما " ذرات سندسية تشبه أكسيد الحديد , فاستغلّ أبو تمام هذه الصورة المرئية للون الدّم بعد جفافه , ومع اختلاطه بظلمة الليل , حيث لا تستخرج الشمس بقايا بريق الحمرة فيه وشاكل مشاكلة قوية بين هذا الدّم وثياب السندس الأخضر . وهكذا يتقصى ويتعمّق ليأتي بالجديد (1) . ويستوحي الآية نفسها في رسم صورة فرسه ليبيّن شدة إعجابه بصفاء أديمه وجماله ليشدّ انتباه المتلقّي , فيقول :

صافي الأديم كأنما البستة من سندس برداً ومن استبرق (2)

ويقول في مدح محمد بن يوسف :

فمرّ ولو يجاري الريح خيلت لذيّه الريح ترسّف في القيود

شهدت لقد أوى الإسلام منه غداتنذ إلى ركن شديد (3)

ويستعين أبو تمام في نصّه بقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (4) , ليصورّ شجاعة ممدوحه ونصرته للإسلام في حربه ضدّ أعدائه , وتمكينه منهم .

الإشارة إلى بعض الآيات

ويشير أبو تمام إلى عناوين بعض السور في مدح الواثق , وتهنئته بالخلافة ,

فيقول :

أخذ الخلافة عن أسنته التي منعت حمى الآباء والأعمام

فلسورة الأنفال في ميراثه آثارها ولسورة الأنعام (5)

(1) ينظر أبو الأنوار , محمد , الشعر العباسي / 336 .

(2) أبو تمام , الديوان / 2 / 415 .

(3) نفسه / 2 / 37 .

(4) هود / 80 .

(5) أبو تمام , الديوان / 3 / 204 .

ففي ذكر أبي تمام لسورة الأنفال إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ (1) . وفي ذكره لسورة الأنعام إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (2) وقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ (3) . أراد أبو تمام من هذه الآيات الإشارة إلى أن لوطاً ابن أخ إبراهيم - عليهما السلام - , وكذلك قرابة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للعباس رضي الله عنه - , وذلك ليدافع عن حق العباسيين بالخلافة بشكل غير مباشر بصفقتهم أعمام الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأراد من قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ (4) , أن يدلل على منزلة الممدوح .

ويظهر نصّ قرآنيّ خلف نصّ أبي تمام حين يقول :

يَا سَمِيَّ الَّذِي تَبَهَّلَ يَدْعُو رَبَّهُ مُخْلِصًا لَهُ فِي قُلْ أُوْحِي

وَشَبِيهَ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ بِهِ الْعِيْبُ رُ عَنِ الْجُبِّ خَاضِعًا كَالطَّلِيحِ (5)

إذ يخاطب أبو تمام رجلاً يدعى محمداً , وأراد أن يخلع عليه هالة من القداسة , فاستخدم فعل الأمر " قل " الموجه إلى النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - مستوحياً قوله تعالى :

(1) الأنفال 75 .

(2) الأنعام 82 - 86 .

(3) الأنعام 165 .

(4) الأنعام 165 .

(5) أبو تمام , الديوان 4 / 80 .

﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَيَّ الرَّشْدَ فَأَمَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (1). كأن أبا تمام أراد أن يضع المخاطب في منزلة سامية ، بحيث أنه يلهم الحجة والبيان في تعامله .

توظيف القرآن الكريم في شعر المتنبي

يعدّ القرآن الكريم عنصراً أساسياً من عناصر ثقافة أبي الطيّب المتنبي ، وقد تضافرت عوامل متعدّدة وجّهته لدراسته أهمها: نشأته الدنيوية المبكرة في الكوفة ، حيث هيأت له علاقة مبكرة بكتاب الله ، فحفظ أجزاء كبيرة منه ، كان يستند عليها في المناقشات التي دارت بينه وبين من أملى عليهم ديوانه ، وبين من ناظره في كثير من مسائل النحو واللغة (2) .

ومن ذلك احتجابه ببعض الآيات في ملاحظاته النقدية التي وجهها لغيره من الشعراء ، ومن الأمثلة على ذلك نقده للأعشى في قوله :

وَهَلْ تُتَكَرَّرُ الشَّمْسُ شَمْسُ النَّهْأِ رَوِ الْقَمَرَ الْبَاهِرُ الْأَبْرَصُ

فعاب على الأعشى استخدام لفظة الأبرص قائلاً : و لو كانت لفظة الأبرص في كتاب الله لكدرت شرب بلاغته ، ولما أراد الله تعالى ذكره كنى عنه بأحسن كناية من قوله جلّ اسمه (3) ﴿ بَيضَاءِ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (4) .

(1) الجن 1 - 2 .

(2) نعه ، فتحي أسعد اسماعيل ، الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي / 172 .

(3) الحاتمي ، الرسالة الموضحة / 84 .

(4) طه 22 .

توظيف معاني القرآن الكريم وألفاظه في شعر المتنبي

تتوّعت إفادة المتنبي من القرآن الكريم ، فيستوحى كثيراً من آياته في شعره ، ومن

ذلك قوله :

يُعْطِي فَلَا مَطْلَهُ يُكَدِّرُهَا بِهَا وَلَا مِنْهُ يُنَكِّدُهَا (1)

فممدوح المتنبي محمد بن عبيد الله العلوي لا يمثل قبل العطاء ولا يمن بعده ، ولا ينغص العطيّة ، ولا يقلل خيرها ، فالمنة تهدم الصنّعة ، وهذا المعنى مستوحى من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ (2).

وقال يمدح الحسين بن عليّ الهمدانيّ :

بِمَنْ تَشَخَّصُ الْأَبْصَارُ يَوْمَ رُكُوبِهِ وَيَخْرُقُ مِنْ زَحْمِ عَلَى الرَّجْلِ الْبُرْدُ
وَتُلْقَى وَمَا تَدْرِي الْبِنَانُ سِلَاحَهَا لِكثْرَةِ إِيْمَاءٍ إِلَيْهِ إِذَا يَبْدُو (3)

فإذا رأى الناس هذا الممدوح ، انشغلوا برويته والإيماء نحوه ، فيلقون ما بين أيديهم من السلاح وهم لا يشعرون ، وهو في هذا البيت يتواصل مع قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (4) ، والرباط بين البيت والآية فرط الدهشة والمفاجأة .

وقال يمدح محمد بن عبيد الله العلويّ :

أَثَرَ فِيهَا وَفِي الْحَدِيدِ وَمَا أَثَرَ فِي وَجْهِهِ مُهَنْدُهَا
فَاغْتَبَطَتْ إِذْ رَأَتْ تَزِينَهَا بِمِثْلِهِ وَالْجِرَاحُ تَحْسُدُهَا (5)

1 (المتنبي ، الديوان 1 / 304 .

2 (البقرة 264 .

3 (المتنبي ، الديوان 2 / 5 .

4 (يوسف 31 .

5 (المتنبي ، الديوان 1 / 307 .

إنّ الضربة فرحت بحصولها بوجه الممدوح , وحلولها فيه , فحسدت بقية الجراح هذه الضربة , لأنها لم تصادف شرف محلها , وبخاصة أنّ العرب تفتخر بالضرب في الوجه , وهو في معناه متأثر بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (1) .

وأرسل أبو العشائر (2) بازياً على حجلة , فقتلها بمخالبه , فقال المتنبي في

ذلك :

فَأَقْعَصَهَا بِحُجْنٍ تَحْتَ صُقْرِ لَهَا فِعْلُ الْأَسْنَةِ وَالرَّمَاحِ
فَقُلْتُ لِكُلِّ حَيٍّ يَوْمَ مَوْتٍ وَإِنْ حَرَصَ النُّفُوسُ عَلَى الْفَلَاحِ (3)

فيؤكد المتنبي أنّ كلّ حيّ مصيره الموت مهما صارع في سبيل البقاء , وهو في هذا المعنى يستوحى قوله تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (4) وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (5) , وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (6) .

وقال في وصف فعل السيوف :

وَاسْتَعَارَ الْحَدِيدُ لَوْنًا وَأَلْفَى لَوْنَهُ فِي ذَوَائِبِ الْأَطْفَالِ (7)

فالسيف ألقّت ألوانها البيضاء على ذوائب الأطفال لشدة ما نالهم من الفزع , فغزا الشيب رؤوسهم وهم في مقتبل العمر , وهو في هذا البيت يستوحى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ (8) .

وقال يمدح سيف الدولة ويذكر نهوضه إلى الثغر :

- 1 (الشورى 11 .
- 2 (أبو العشائر : هو الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان ابن عم سيف الدولة , وأمير أنطاكية من قبله ينظر البيهقي , الصبح المنبي / 68 .
- 3 (المتنبي , الديوان 1 / 260 .
- 4 (القصص 88 .
- 5 (الأنبياء 35 .
- 6 (الرحمن 26 .
- 7 (المتنبي , الديوان 3 / 200 .
- 8 (المزمّل 17 .

بَسَطَ الرَّعْبُ فِي الْيَمِينِ يَمِينًا فَتَوَلَّوْا وَفِي الشَّمَالِ شِمَالًا (1)

إنَّ الرَّعْبَ قَدْ عَمَّ قُلُوبَ أَعْدَاءِ مَمْدُوحِهِ ، حَتَّى كَانَتْهُ بَسَطَ يَمِينِهِ فِي مَيْمَنَةِ جَيْشِهِمْ ، وَبَسَطَ شِمَالَهُ فِي مَيْسَرَتِهِ فَوَلَّوْا هَارِبِينَ ، وَهُوَ فِي هَذَا الْمَعْنَى نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ﴾ (2) ، فَالآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ يَرُونَ الْمُؤْمِنِينَ ضَعْفِهِمْ فِي الْعَدَدِ ، لِأَنَّ اللَّهَ أَكْثَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَعْيُنِ الْكَافِرِينَ ، لِيَرْهَبُوهُمْ ، وَيَسْجَنُوا عَنْ قِتَالِهِمْ ، فَالرَّابِطُ بَيْنَ الْآيَةِ وَقَوْلِ الْمَتَنِيِّ هُوَ الْخَوْفُ الَّذِي يَكْتَنِفُ الْأَعْدَاءَ وَرَهْبَتَهُمْ مِنْ قِتَالِهِمْ الْمُسْلِمِينَ وَجِبْنَهُمْ أَمَامَهُمْ (3) .

ويستمدُّ المتنبِّي بعض المعاني القرآنيَّة ، ويقدمها في صورة جديدة ، نحو قوله :

حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلِقُ تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنْ (4)

إنَّ الْمَتَنِيَّ يَتَعَرَّضُ لِلْمَخَاطِرِ فِي سَفَرِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَحِلُّ بِهِ ، يَجِدُ جَمَاعَةً مِنَ الْجُهْلَاءِ مُعَادِيَةً لَهُ ، فَلَا مَجَالَ لِمَخَاطَبَتِهِمْ أَوْ النِّقَاحِ مَعَهُمْ فَهَمَّ مِثْلَ الْبِهَائِمِ . وَهَذِهِ الصُّورَةُ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (5) .

وقد استوحى المتنبِّي في شعره بعض ألفاظ الآيات في رسم صورته الشعريَّة اللافتة ،

نحو قوله :

تُبَارِي نُجُومَ الْقَدْفِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ نُجُومٌ لَهُ مِنْهُنَّ وَرَدٌّ وَأَدْهُمُ (6)

(1) المتنبِّي ، الديوان ، 3 / 142 .

(2) آل عمران 13 .

(3) ينظر الطبري ، جامع البيان 3 / 194 .

(4) المتنبِّي ، الديوان 4 / 210 .

(5) الفرقان 44 .

(6) المتنبِّي ، الديوان 3 / 353 .

حيث يصف المتنبّي خيل سيف الدولة الحمدانيّ ، فهي تتمتع بقدرّة خارقة وأفعال معجزة وغير متوقّعة ، وهي تعكس حال الممدوح وطموحات المتنبّي لأنّها سريعة السيّر في الأرض كما تسير النّجوم في السّماء ، وسريعة الانقراض على الأعداء ، فتقذفهم بسرعة وتقصّهم من جميع الاتّجاهات ، كما تقذف النّجوم مردة الشّياطين عند استراقهم السّمع وتقصّهم . فكلّمة القذف تحمل دلالة سرعة الرّد وقوّته ومنع الحمى من أيّ معتد ، وكذلك الشّهب بما تملكه من زجر كلّ من يقصد السّماء من مردة الشّياطين ، ومنعه من الوصول وهذه الصّورة مستوحاة من قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ (1) ، ومثلما تظلّ النّجوم مرتبطة بنظام ، يسير بأمر الله - سبحانه وتعالى - وإرادته ، تظلّ خيل الأمير مرهونة بأمره وإرادته .

ويوظّف المتنبّي أحياناً لفظة من القرآن الكريم نحو قوله :

وَبِأَيَّامِهِ الَّتِي انْسَلَخْتَ عَنْهُ وَمَا دَارُهُ سِوَى الْهَبْجَاءِ (2)

حيث طلب كافور إلى المتنبّي أن يصف داراً ابتناها ، فبيّن أنّ فخر كافور بما ابتناه من المعالي لا من الدّور والطين ، وبأيّامه التي قضاها في محاربة الأعداء ، فاستعار الفعل انسلخ من قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴾ (3) وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ (4) ، فاستخدام الفعل انسلخت بدلاً من مضت ، توميّ بأنّ هذه الأيام جزء من ذات الممدوح لا يتجزأ ، فهي والممدوح شيء واحد متكامل ، كما أنّ الليل والنهار يشكّلان يوماً واحداً متكاملًا ، والأشهر الحرم مع باقي أشهر السنّة تشكّل سنة واحدة متكاملة .

(1) الصافات 8 - 9 .

(2) المتنبّي ، الديوان 1 / 33 .

(3) يس 37 .

(4) التوبة 5 .

ويستلهم أحياناً بعض معاني الآيات مع الاحتفاظ ببعض ألفاظها , نحو قوله :

وَجْرَمِ جَرَّهُ سَفَهَاءُ قَوْمٍ وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ الْعَذَابُ (1)

إذ يستعطف المتنبّي سيف الدولة على بني كلاب بقوله له : ربما ذنب أو جناية جناه سفيه
فنزل العذاب بغيره , مستوحياً قوله تعالى: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ (2) وقوله
تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴾ (3).

وقال يمدح أبا سهل سعيد بن عبد الله في قوله :

جَرَّتْ بَنِي الْحَسَنِ الْحُسْنَى فَإِنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مِثْلُهُمْ فِي الْغُرِّ عَدْنَانَا (4)

فالمتنبّي يدعو لأهل الممدوح بدخول الجنة , جزاء لهم , فإنهم خير قومهم في عدنان ,
وقومهم خير عدنان , وهو هنا يستوحي قوله تعالى لفظاً ومعنى : ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ
الْحُسْنَى ﴾ (5).

ويمدح المتنبّي شجاع بن محمد الطائي المنبجي , فيقول :

إِلَى سَيِّدٍ لَوْ بَشَّرَ اللَّهُ أُمَّةً بِغَيْرِ نَبِيٍّ بَشَّرْنَا بِهِ الرَّسُلُ (6)

يبالغ المتنبّي في مدح شجاع , فيقول له : إن الله لا يبشّر بعباده من الخلق إلا إذا كان نبياً
, فلو كان يبشّر بغير نبي , لبشّرنا بك على لسان رسله . مستوحياً قوله تعالى : ﴿ إِنَّا

1 (المتنبّي , الديوان 1 / 81 .

2 (الأعراف 155 .

3 (الأنفال 25 .

4 (المتنبّي , الديوان 4 / 227 .

5 (الكهف 88 .

6 (المتنبّي , الديوان 3 / 185 .

أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿١﴾ وقوله تعالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (٢).

ويرثي المنتبّي محمد بن اسحق التتوخي بقوله :

يُبْكِي عَلَيْهِ وَمَا اسْتَقَرَّ قَرَارُهُ فِي اللَّحْدِ حَتَّى صَافَحَتْهُ الْحُورُ (٣)

يبين المنتبّي الكرامات التي حظي بها المرثي عند الله - سبحانه وتعالى - , حيث إنه لم يكد يستقر بالقبر حتى جاءت الحور العين , فصافحته وأكرمته بمراده منها (٤) , مستوحياً

قوله تعالى : ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (٥) .

استدعاء صور من القرآن الكريم

ويستدعي المنتبّي صوراً من القرآن الكريم , ومن الأمثلة على ذلك وصفه هيبية

ممدوحه سعيد بن عبد الله المنبجي بقوله :

وَصَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهَ رَجُلًا (٦)

حينما رأى بنو تميم هذا الممدوح مقبلاً عليهم بخيله , تركوا منازلهم هاربين خوفاً منه , فمن شدة الخوف والفرع كانوا إذا ما رأى أحدهم شيئاً ضعيفاً كان أم قوياً ومخيفاً أم غير مخيف ظنّه رجلاً من أصحابه يريد أن يقتله من تصوّر هيبته في قلبه وتمكّن الخوف منه , وهذه الصورة استقاها المنتبّي من قوله تعالى : ﴿وَصَاقَتِ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا

1 (فاطر 24 .

2 (البقرة 213 .

3 (المنتبّي , الديوان 2 / 132 .

4 (الصقلي المغربي , أبو علي الحسين بن عبيد الله , التكملة وشرح الأبيات المشكّلة من ديوان أبي

الطيب المنتبّي / 170 .

5 (الواقعة 22 - 23 .

6 (المنتبّي , الديوان 3 / 168 .

رَحِبَتْ تُمْ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿١﴾ , حيث نقل صورة المسلمين المنهزمين في وقعة حنين حين استبدّ بهم الخوف وعكسها على أعداء ممدوحه . و" الهارب والمنهزم شتّى الرأى متوزّع القلب , يرى ما لا يرى , ويسمع ما لا يُسمع " (٢) , ويستشف من عبارة ضاقت الأرض أنّ ممدوحه أحاط بأعدائه من كلّ جانب حتّى إنه لم يعد هناك مسلك للهاربين (٣) .

ويقول أيضاً مصوراً هيبه ممدوحه :

يُرُونَ مِنَ الذُّعْرِ صَوْتَ الرِّيحِ صَهِيلَ الجِيَادِ وَخَفَقَ البُنُودِ (٤)

يُصَوِّرُ المُنْتَبِيّ أعداء ممدوحه الذين ولّوا هاربيين , يظنون صوت الرّيح صهيلاً للخيل وخفوق الأعلام من خوفهم لهذا الممدوح مستمداً صورته من قوله تعالى : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوّ﴾ (٥) .

ويظهر التّصوير القرآني جلياً في قول المنتبّي :

يَرَى حَدَّةَ غَامِضَاتِ القُلُوبِ إِذَا كُنْتُ فِي هَبْوَةٍ لَا أُرَانِي (٦)

حيث بيّن المنتبّي أنّ حدّ سيفه لا يخطئ الهدف , فهو يصيب قلوب الأعداء مباشرة , حتّى إذا اشتدّ العجاج في المعركة وأظلم , حيث لا يرى أحد نفسه , فيقتلهم قبل انقضاء أيامهم المكتوبة . وهذه الصّورة مستمّدة من قوله تعالى : ﴿إِذَا أُخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا﴾ (٧) .

(١) التوبة 25 .

(٢) الأصفهاني , الواضح في مشكلات شعر المنتبّي / 66 .

(٣) ينظر شعيب , محمد عبد الرحمن , المنتبّي بين ناقديه في القديم والحديث / 303 .

(٤) المنتبّي , الديوان 1 / 344 .

(٥) المنافقون 4 .

(٦) المنتبّي , الديوان 4 / 191 .

(٧) النور 40 .

وخلص القول فإنّ المنتبج لتواصل أبي تمام والمنتبج مع الموروث الديني يجد أن القرآن الكريم قد ترك بصمات كثيرة وواضحة في شعرهما .

فأبو تمام وجد في القرآن الكريم نفسه , وأشبع منه وجدانه , فأخذ يتعرّض لمعانيه وألفاظه وصوره , ليستعين به في تأكيد معانيه ورسم صورته ولوحاته الفنية .

وتأثر أبو تمام بآيات القرآن الكريم تأثراً كبيراً , سواء أكان على مستوى جزيئات القصيدة أم على مستوى الموضوعات التي يعالجها من خلالها , ممّا يدلّ على قدرته الفذة في تطويع شعره ليتلقّى معاني الآيات كما يريد هو تصويراً أو تقريراً . وهو يفعل ذلك بوعي وإدراك كاملين ليتسق ما يأخذه مع ما يقوله . وعودة إلى تلك الآيات القرآنية التي وظّفها في شعره فقد لاحظت أنّه أخذ من آيات التبشير والنذير والوعيد ومشاهد الآخرة . ولكن طرق أخذ أبي تمام من القرآن الكريم لا ترد على وتيرة واحدة , فهو أحياناً يكتفي بأخذ اللفظ من الآيات كما هو , وغالباً ما يأخذ المعنى مكتفياً بإعادة صياغته , وقد يشير إلى بعض أسماء السور , وربما ترك المعنى ليرتدّ إلى أكثر من آية , وربما حدّد المعنى الآية التي يقصدها , وهكذا ممّا يدلّ على أصول الثقافة الدينية لديه وعلى أصالة هذا المصدر .

أما المنتبج فقد كان أقلّ تأثراً بآيات القرآن الكريم في شعره من أبي تمام رغم غلبة الطابع الديني على عصره وانتشار الفتوحات الإسلامية , والجهاد ضدّ الروم , وذلك لأنّ المنتبج يركّز في مدائحه وبخاصّة لسيف الدولة على بطولاته وشجاعته وتمثّله للبطولة والقيم العليا , وهو الطابع العام الذي يغلب على شعره . وهو في هذا النهج قد خالف شعراء المديح الذين كانوا يخلعون على ممدوحهم الصّفات الدينية . ومع ذلك فقد تفنّن في إفادته من آيات القرآن الكريم , فاستمدّ منه بعض ألفاظه ومعانيه وصوره ,

بإدخاله بنية الآية في شعره , ودمجها في نصّه للتعبير عن حالته الوجدانية وتصويره بعض الحقائق والقيم الإنسانيّة , وقد استغلّ دلالات الآيات وإيحائها للتعبير عن واقعه موجهاً النصّ القرآنيّ توجيهاً نفسياً يوضح من خلاله فخره بنفسه وبقدرات ممدوحه وشجاعته في الحروب .

وقد كان أحياناً يستخدم كلمة من القرآن الكريم في رسم صورته , مستفيداً من الإيحاء الذي تمنحه بعض الألفاظ لصوره , ويستمدّ بعض المعاني القرآنيّة ويقدمها بصور جديدة, ويحتفظ في بعض الأحيان بألفاظها , ويستعين أحياناً ببعض أمثال القرآن الكريم في رسم صورته .

توظيف القصص القرآنيّ في شعر أبي تمام

وقد ساعدت ظروف العصر أبا تمام على الإفادة في فنّه من القصص الدّيني , وبخاصّة في موضوعات العظة والاعتبار , حيث شهدت الدّولة العبّاسية حروباً طال أمدها , ممّا هيأ له الفرصة للتّعامل مع هذه الأحداث من المنظور الدّيني , وقد كان موقع أبي تمام من الخلافة العبّاسيّة من العوامل التي دفعته إلى الإفادة من القصص الدّيني , فهو يتولّى الدّعاية للخلفاء العبّاسيين , ويعرض لهم الصّورة المثلى في عالم الفضيلة , وأولّها الدّينية التي تتطلّب منهم الدّفاع عن الثّغور الإسلاميّة , وحماية الدّولة الإسلاميّة , حيث كانت معركة الخلافة مع الشّرك من أقوى الدّوافع لسلوكه هذا المسلك , إضافة إلى موقفه الدّاتي , ذلك أنّ الثّقافة الدّينية بدت النّافذة الكبرى التي يطلّ منها على بقية ثقافته قديمها وحديثها على السّواء فكان يفيد من القصص الدّيني كلّما سنحت له الفرصة في فنّه الشعري , ومن الأمثلة على ذلك قوله :

بأبي شادنٍ تَسَمَّتْ مِنْ عَيْدٍ خَنِيهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ رِيحَ الصُّدُودِ

صارَ ذَنْبِي كَذَنْبِ آدَمَ يَا عَمَّ - رُو فَأُخْرِجَتْ مِنْ جِنَانِ الْخُلُودِ (1)

فقد تواصل أبو تمام مع قصّة خروج آدم - عليه السّلام - من الجنّة من خلال تشبيهه ذنبه عند معشوقه بذب آدم - عليه السّلام - الذي أخرج بسببه من الجنّة , إذ عصى أبو تمام معشوقه أو أخطأ في حقّه , فطرده من حياته التي هي بالنّسبة إليه بمثابة الجنّة لآدم - عليه السّلام - , فكلاهما فقد السّعادة بعد أن تذوّقها , فكان جزاء كلّ منهما الحرمان , فالمعنى واضح العلاقة بقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (2) . وتواصل أبو تمام مع القصّة نفسها في موقف هجائي , حيث يقول :

لَوْ فَرَّ شَيْءٌ قَطُّ مِنْ شَكْلِهِ فَرَّ إِنَّنِ بَعْضُكَ مِنْ بَعْضٍ

كَوْنُكَ فِي صُلْبِ آبِينَا آدَمٍ أَهْبَطْنَا جَمْعًا إِلَى الْأَرْضِ (3)

فهو يعزو سبب خروج بني آدم جمعاً من الجنّة , وهبوطهم إلى الأرض إلى كون المهجور من صلب آدم - عليه السّلام - لا إلى عصيانه الله - عزّ وجلّ - .

ويتواصل مع قصص الأمم البائدة في قوله :

كَانَهُمْ مَعَاشِرٌ أَهْلَكُوا مِنْ بَقَايَا قَوْمٍ عَادٍ أَوْ ثَمُودٍ (4)

وهو بذلك يوظّف قصّة عاد وثمود , ليشبّه مصير أعداء ممدوحه محمّد بن يوسف الطائي الذين جنوا على أنفسهم نتيجة عنادهم بمصير عاد وثمود كما ورد في قوله تعالى :

(1) أبو تمام , الديوان 4 / 184 .

(2) البقرة 35 - 36 .

(3) أبو تمام , الديوان 4 / 383 .

(4) نفسه 2 / 38 .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ (2) .

ويقول في مدح مالك بن طوق مندداً بأعدائه :

لَا تَجْعَلُوا الْبَغْيَ ظَهْرًا إِنَّهُ جَمَلٌ مِنْ الْقَطِيعَةِ يَرَعَى وَادِيَ النَّقْمِ
نَظَرْتُ فِي السَّيْرِ الْأُولَى خَلَّتْ فَإِذَا أَيَّامُهُ أَكَلَتْ بَاكُورَةَ الْأُمَمِ
أَفْنَى جَدِيسًا وَطَسْمًا كُلَّهَا وَسَطًا بِأَنْجُمِ الدَّهْرِ مِنْ عَادٍ وَمِنْ إِرْمٍ (3)

ويوضح أبو تمام موقف ممدوحه مالك بن طوق التغلبي ويندد بأعدائه ، فممدوحه لا يرغب أن يلوغ في دماء أعدائه ، وليس شرهاً لالتهام لحومهم ، ولكنهم هم الذين يستثيرونه ويقتدحونه بنار الحقد والتعدي ، ويخرجون عليه إذا كلب عوى بينهم من الأعاجم ، ولولا صلة القربى بين ممدوحه وبينهم لأبادهم ، وليحض أعداء ممدوحه على الامتناع عن البغي ، ويفرّعهم ، يذكرهم بعاقبته ، حيث أفنى الأمم السابقة كجديس وطسم وعاد وإرم .

ويقول أيضاً في باب الزهد :

أُصَوِّتُ بِالْدُنْيَا وَلَيْسَتْ تُجِيبُنِي أَحَاوِلُ أَنْ أَبْقَى وَكَيْفَ بَقَائِيَا
وَمَا تَبْرَحُ الْأَيَّامُ تَحْذِفُ مُدَّتِي بَعْدَ حِسَابٍ لَا كَعْدَ حِسَابِيَا

(1) الفجر 6 - 9 .

(2) النجم 50 - 51 .

(3) أبو تمام ، الديوان 3 / 192 .

لَتَمَحُوَ آثَارِي وَتُخْلِقَ جِدَّتِي وَتُخْلِيَ مِنْ رَبْعِي بِكُرِهِ مَكَانِيَا
كَمَا فَعَلْتَ قَبْلِي بِطَسْمٍ وَجْرُهُمْ وَآلِ ثَمُودٍ بَعْدَ عَادِ بْنِ عَادِيَا (1)

وقد قال أبو تمام هذه الأبيات بعد أن شاب وتغيّر حاله , يؤكد فيها أنّ أيامه لن تمهله , وأنّ مصيره الموت , وستمحو الأيام آثاره , كما فعلت قبله بطسم وجرهم وثمود .

ويوظف أبو تمام قصة ثمود حينما سجّل مجداً حربياً لخالد بن يزيد الشيباني ,

فيقول :

وَلَمَّا رَأَى تَوْفِيلُ رَايَاتِكَ الَّتِي إِذَا مَا اتَّلَّابَتْ لَا يُقَاوِمُهَا الصُّبُّ
تَوَلَّى وَلَمْ يَأَلُ الرَّدَى فِي اتِّبَاعِهِ كَأَنَّ الرَّدَى فِي قَصْدِهِ هَائِمٌ صَبُّ
كَأَنَّ بِلَادَ الرُّومِ عَمَّتْ بِصِيحَةٍ فَضَمَّتْ حَشَاهَا أَوْ رَعَا وَسَطَهَا السَّقْبُ
غَدَا خَائِفًا يَسْتَنْجِدُ الكُتُبَ مُذْعِنًا عَلَيْكَ فَلَا رُسُلٌ ثَنَّتْكَ وَلَا كُتُبٌ (2)

وقد تبع خالد بجنوده تيوفيل امبراطور بيزنطة حين ولّى هارباً من بين يدي المأمون , فأوغل وراءه في بلاد الروم يغنم ويأسر , فراسله تيوفيل مذعناً خائفاً يطلب العفو والصلح , فلم يجبه , فأوغل تيوفيل في فراره مرعوباً مذعوراً , فحال ما رأى تيوفيل رايات خالد وجموعه التي لا يثبت لها أعتى العتاة , أمعن في الهرب والرّدَى يلاحقه يريد أن يغنم منه فرصة أو يصيب منه غرّة , وكأنّما عمّت بلاد الروم صيحة خلعت القلوب , وكأنّها الصيحة التي أذرت ثمود حين صاح السقب - ولد الناقة - التي عقروها عصياناً وكفراً , فأرسل الله عليهم صيحة واحدة فكانوا هشيماً تذروه الرياح (3) .

(1) أبو تمام , الديوان / 600 - 601 .

(2) نفسه / 1 - 189 - 190 .

(3) ابن كثير , قصص الأنبياء / 97 .

ويتواصل مع قصة - إبراهيم عليه السلام - في قوله :

لِلْجُودِ سَهْمٌ فِي الْمَكَارِمِ وَالتَّقَى مَا رَبُّهُ الْمُكْدِي وَلَا الْمَسْهُومُ
وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ حَبَا وَقَرَى خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ
أَعْطَيْتَنِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَلَيْسَ لِي عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمٌ (1)

حيث يصور أبو تمام كرم ممدوحه الذي لا حدود له , موظفاً خبر ضيوف إبراهيم - عليه السلام - الذين أكرمهم وأحسن ضيافتهم حسبما ورد في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذِ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴾ (2) , وذلك ليؤكد أن الجود والكرم عادة محمودة تدل على التقوى , وأن الكريم لا يوصف بالمكدي أو المسهوم أي المغلوب .

ويتواصل مع إسماعيل وهود - عليهما السلام - في قوله :

بِمُعْرَسِ الْعَرَبِ الَّذِي وَجَدَتْ بِهِ أَمَّنَ الْمَرُوعِ وَنَجْدَةَ الْمَنْجُودِ
حَلَّتْ عُرَا أُنْقَالِهَا وَهَمُومِهَا أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ فِيهِ وَهُودِ (3)

يتواصل أبو تمام مع كل من إسماعيل وهود - عليهما السلام - , ليدلل على نجدة ممدوحه , فهو أمن لمن خاف , ومناخ كل مجتد من كل قبيلة , حتى إن أبناء إسماعيل وهود - عليهما السلام - الأقوياء حينما أصابهم مكروه , استتجدوا به لما عرف عنه من قوة النجدة .

أما يوسف - عليه السلام - فقد تواصل مع قصته في قصيدة مدح بها أبا سعيد

الثغري في قوله:

1 (أبو تمام , الديوان 3 / 292 .

2 (الذاريات 24 - 26 .

3 (أبو تمام , الديوان 1 / 390 .

وَسَاعِدُهُ تَحْتَ الْبِيَاتِ فَوَارِسٌ تَخَالَهُمْ فِي فَحْمَةِ اللَّيْلِ أَنْجُمًا
وَقَدْ نَثَرْتُهُمْ رَوْعَةً ثُمَّ أَحْدَقُوا بِهِ مِثْلَمَا أَلْفَتْ عَقِدًا مُنْظَمَا
بِسَافِرٍ حُرِّ الْوَجْهِ لَوْ رَامَ سُوءَةً لَكَانَ بِجِلْبَابِ الدُّجَى مُتَلَثَّمَا
مَثَلَتْ لَهُ تَحْتَ الظَّلَامِ بِصُورَةٍ عَلَى الْبُعْدِ أَقْنَتُهُ الْحِيَاءِ فَصَمَّمَا
كَيُوسُفَ لَمَّا أَنْ رَأَى أَمْرَ رَبِّهِ وَقَدْ هَمَّ أَنْ يَعْرِوْرِي الذَّنْبَ أَحْجَمًا (1)

وهو يستلهم في الأبيات السابقة إحدى اللّمحات من قصة - يوسف - عليه السّلام - ,
ليصف هيبة ممدوحه في قلوب أصحابه وأوليائه , وبذلهم الوسع فيما يكسبهم حمده في
حالي القرب والبعد , فيذكر استماتتهم في القتال , فإذا ما حدثتهم نفوسهم بالهرب من
الحرب لشدتها , فإنهم يثبتون في حال تذكرهم له . وخصّ بالذكر بشراً أحد قادته , إذ
حدثته نفسه بالهرب , ولكنه تذكر أبا سعيد , وتذكر حاله معه بعدما نكص في الحرب
على عقبيه , فتبّت جنانه , وواصل القتال وصمّ عليه , مثله في ذلك مثل يوسف - عليه
السّلام - الذي كاد يستجيب لنداء قلبه حينما أغرته امرأة العزيز , فتراعى له برهان ربّه
فأحجم مستتيراً بقوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ
بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ﴾ (2) .

ويتابع أبو تمام تواصله مع قصة يوسف - عليه السّلام - إذ يقول :

إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ نَجَى النَّعْرَ مِنْ سَنَةٍ أَعْوَامُ يَوْسُفَ عَيْشٌ عِنْدَهَا رَعْدٌ (3)

(1) أبو تمام , الديوان 3 / 239 - 240 .

(2) يوسف 22 - 24 .

(3) أبو تمام , الديوان 2 / 21 .

وهو بصور حسن تدبير ممدوحه أبي سعيد الثَّغري الذي يفوق حسن تدبير يوسف - عليه السلام - , إذ نجى ممدوحه النَّاس من أعوام ضيق وحصار تبدو سنوات المحل التي مرَّ بها أهل مصر في عهد يوسف - عليه السلام - رغداً ورفاهاً بالنسبة لها , وذلك ببذله ماله لأهل تلك الثَّغور مستلهماً قوله - عزَّ وجلَّ - الذي يوضح خطَّة يوسف - عليه السلام - في حفظ المحاصيل في سبع من سنوات الرِّخاء للسَّبع من السَّنوات الشَّداد :

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿١﴾ .

ويوظف في مقدمة قصيدة يمدح بها أبا العباس عبد الله بن طاهر⁽²⁾ لمحة من قصة

يوسف - عليه السلام - في قوله :

هُنَّ عَوَادِي يَوْسُفٍ وَصَوَاحِبُهُ فَعَزَمًا فَقَدِمًا أَدْرِكَ السُّؤْلَ طَالِبُهُ⁽³⁾

ويؤكد أبو تمام أنَّ صاحبه تلومه لكثرة أسفاره , وعدم إقامته عندها , فجعلها من صواحب يوسف - عليه السلام - اللواتي حاولن إغراءه لولا عناية الله ببرهانه عليه , لأنها كانت تغريه أن يقيم عندها ولا يطلب النَّجح بهذا السَّقر ولكنَّه استمسك بالعزم والحزم كما استعصم يوسف بعصمة النَّبوة , ولذا يقول لها :

أَعَانَتِي مَا أَحْشَنَ اللَّيْلَ مَرْكَبًا وَأَحْشَنُ مِنْهُ فِي الْمُلَمَّاتِ رَاكِبُهُ

ذَرِينِي وَأَهْوَالِ الزَّمَانِ أَفَانِي فَأَهْوَالُهُ الْعُظْمَى تَلِيهَا رَغَائِبُهُ

(1) يوسف 46 - 48 .

(2) هو أحد قواد المأمون ولاة خراسان , وممن ساعد في القضاء على الأفتشين , توفي سنة 226 هـ . ينظر الطبري , تاريخ الطبري 5 / 153 - 166 .

(3) أبو تمام , الديوان 1 / 216 .

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الزَّمَاعَ عَلَى السَّرَى أَخُو النُّجَجِ عِنْدَ النَّائِبَاتِ وَصَاحِبُهُ (1)

فكأنها تذكره بأهوال الليالي وخطر الساري فيها , فيطلب إليها أن تذكر بأسه في تلقى الحادثات , ليحقق أمانيه ويظفر بما يريد , وهذا الأمر لا يتم إلا في خوض المخاطر والأهوال .

أما بالنسبة لجمال يوسف - عليه السلام - فقد وظفه أبو تمام في أكثر من موضع أو موقف , ومن الأمثلة على ذلك قوله:

قَرِينُ الصَّبَا فِي وَجَنَّتَيْهِ مَلَاةٌ ذَكَرْتُ بِهَا أَيَّامَ يَوْسُفَ فِي الْحُسْنِ (2) .

عندما كان أبو تمام عند الحسن بن وهب شرب , فغلب عليه السكر , فلما أفاق صور فعل الخمر فيه التي سقاه إياها غلام منعم غرير الصبا مما ذكره بجمال يوسف - عليه السلام - .

وفي موقف غزليّ شبّه أبو تمام جمال محبوبه بجمال يوسف - عليه السلام - , مشيراً إلى حادثة رميه في الجبّ , فيقول :

وَشَبِيهَ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ بِهِ الْعِيْبُ رُ عَنِ الْجَبِّ خَاضِعاً كَالطَّلِيحِ (3)

ووظف أبو تمام أيضاً قصة موسى - عليه السلام - (4) في غير موضع , ومن الأمثلة على ذلك :

تُبْنَى الْمَعَالِي فِي ظِلِّهِ وَكَلَهُ حَظٌّ مِنَ الْمُلْكِ غَيْرُ مُخْتَلَسِ

فَإِنَّ مُوسَى صَلَّى عَلَى رُوحِهِ الرَّبُّ صَلَاةً كَثِيرَةً الْقُدْسِ

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 218 - 219 .

(2) نفسه 4 / 541 .

(3) نفسه 4 / 180 وينظر 4 / 279 و 4 / 293 .

(4) ابن كثير , قصص الأنبياء / 225 .

صار نبياً وعظماً بُعِيَتْهُ فِي جَدْوَةٍ لِلصَّلَاةِ أَوْ قَبَسٍ (1)

كان مالك بن طوق يريد الوفادة على الخليفة لأمر هين ، فتأول له أبو تمام شرفاً عظيماً ، مثلما حدث مع موسى - عليه السلام - حينما ذهب ليأتي أهله بقبس من نار ، فأوتي النبوة بإذن الله مستوحياً ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ (2).

ويقول في مدح موسى بن إبراهيم الرافقي :

عُدْنَا بِمُوسَى مِنْ زَمَانٍ أَنْشَرَتْ سَطَوَاتُهُ فِرْعَوْنَ ذَا الْأَوْتَادِ (3)

ربط أبوتمام بين إنقاذ ممدوحه له من سطوة الزمان وقسوته وبين إنقاذ موسى - عليه السلام - لقومه من ظلم فرعون ذي الأوتاد مستلهماً قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ (4)

واستلهم من سلوك اليهود مع موسى - عليه السلام - قصة العجل ذي الخوار الذي

عبده قومه في مدحه موسى بن إبراهيم مستغلاً اسم ممدوحه :

فَكَانَهُمْ بِالْعَجَلِ ضَلُّوا حَقْبَةً وَكَانَ مُوسَى إِذْ أَتَاهُمْ مُوسَى (5)

(1) أبو تمام ، الديوان 2 / 241 .

(2) طه 9 - 13 .

(3) أبو تمام ، الديوان 2 / 129 .

(4) الفجر 6 - 10 .

(5) أبو تمام ، الديوان 2 / 269 .

ليبرزه في موقف من أنقذ قومه من الضلال وأرشدهم كما فعل موسى - عليه السلام - مع قومه بعد عودته من الميقات .

ومن قصة موسى أيضاً وظف قصة البقرة الصقراء في قوله :

وَكَذَّبَ اللَّهُ أَقْوَالَ قُرَيْتَ بِهَا بِحُجَّةٍ تَسْرِجُ الدُّنْيَا بِوَاضِحِهَا
مُضِيئَةً نَطَقَتْ فِيهَا كَمَا نَطَقَتْ ذَبِيحَةُ الْمُصْطَفَى مُوسَى لِذَابِحِهَا (1)

لينفي عن ممدوحه الفضل بن صالح بن عبد الملك الهاشمي (2) تهمة ألصقت به في سعاية سعي بها إلى الخليفة المعتصم ولم تثبت مفادها : أنه قتل أخاه عبد الله ليتزوج من امرأته أتراك , مؤكداً أنّ حججاً مضينة كالمصباح تبرّته كما حدث مع الرجل الإسرائيليّ الذي اتهم ظلاماً بجريمة قتل ثم ظهرت براءته ببرهان قاطع لا مجال لتكذيبه , فهو يستمدّ القصة من نهايتها كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَكُلْنَا اضْرِبُوهُ بَبْعِضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (3) .

ووظف قصة داود - عليه السلام - في قوله :

أَبَا عَلِيٍّ لِيَصْرِفَ الدَّهْرَ وَالْغَيْرَ وَالْحَوَادِثَ وَالْأَيَّامَ وَالْعَبْرَ
أَذْكَرْتَنِي أَمْرَ دَاوُدَ وَكُنْتُ فَتَى مُصْرَفَ الْقَلْبِ فِي الْأَهْوَاءِ وَالْفِكْرِ (4)

وقد كان أبو تمام عند الحسن بن وهب ومعه غلام روميّ , فأدمن الحسن النظر إلى الغلام, وكان بين يدي الحسن غلام خزرجيّ , ففطن أبو تمام لإدمان الحسن النظر إلى

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 354 .

(2) أحد الولاة زمن الدولة العباسية ت 241 هـ . أبو الحجاج المري , تهذيب الكمال 30 / 185 .

(3) البقرة 72 - 73 .

(4) أبو تمام , الديوان 4 / 463 .

الغلام الرومي ، مما ذكره بقصة داود - عليه السلام - كما ورد في قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (1) .
ولكن تفسير أبي تمام للقصة التي وردت في هذه الآية كان مستمد من الإسرائيليات (2) .
وهذا التفسير اعتمده الصولي في شرح هذا البيت ، فقال : " كان لداود - عليه السلام - ثلاثمئة زوجة فأحب أن يتزوج امرأة لرجل ليس له غيرها ، وكذلك أنت ، يقوله للحسن ابن وهب : لك مئة غلام وتريد غلامي " (3) .

ويلمح إلى قصة سليمان - عليه السلام - في قوله :

أَسْرَتَ لَكَ الْآفَاقَ عَزْمَةٌ هِمَّةٌ جُبِلَتْ عَلَى أَنَّ الْمَسِيرَ مَقَامٌ
إِلَّا تَكُنْ أَرْوَاحُهَا لَكَ سُخَّرَتْ فَالْعَزْمُ طَوْعٌ يَدِيكَ وَالْإِجْدَامُ (4)

وهو يؤكد أن همّة المأمون جعلته يسيطر على آفاق الأرض ومن فيها ، فهو يسوسهم برأيه ، فإن لم تسخر له الرياح كسليمان - عليه السلام - ، فقد جعل العزم والإسراع في السير مسخرين له يبلغ فيهما ما يشاء .

ويستوحي أبو تمام قصة سبأ في قوله :

أَمِنْ عَمِي نَزَلَ النَّاسُ الرُّبَا فَنَجَوْا وَأَنْتُمْ نَصَبُ سَيْلِ الْفِتْنَةِ الْعَرِمِ (5)

ويستمد أبو تمام من قصة سبأ سيل العرم ليدل على هيبة ممدوحه ، حيث لاذ الناس من خوف هذا الممدوح ، وكانهم جادوا عن طريق السيل ، ونزلوا الربا كي يأمنوا فيها هذا السيل مستوحياً قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ (6) .

(1) ص 23 .

(2) ينظر ابن كثير ، قصص الأنبياء / 364 .

(3) أبو تمام ، الديوان 4 / 463 .

(4) نفسه 3 / 153 .

(5) نفسه 1 / 190 .

(6) سبأ 16 .

ويقول متغزلاً بمحبوبه :

قَدْ صَنَّفَ الْحُسْنَ فِي خَدَيْكَ جَوْهَرَهُ وَفِيهِ قَدْ خَلَفَ التُّفَّاحُ أَحْمَرَهُ
وَكَلُّ حُسْنٍ فَمِنْ عَيْنَيْكَ أَوْلُهُ مُذْ خَطَّ هَارُوتُ فِي عَيْنَيْكَ عَسْكَرَهُ (1)

ويتواصل أبو تمام مع قصة هاروت ليبيّن شدة حسن محبوبه ، وأسرره له وسحره له ،
مستوحياً قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ
وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بُبَابَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (2) .

ويوظف لقمان الحكيم في قوله :

فَإِنْ شَهِدَ الْمَقَامَةَ يَوْمَ فَصْلِ رَأَيْتَ نَظِيرَ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ (3)

ليصف حكمة ممدوحه ورأيه السديد ، وبخاصة إذا ما جلس ليقضي بين الناس مستوحياً
قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ
كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (4) .

وفي إطار قصص الأنبياء يوظف أبو تمام موقف الرسول - عليه الصلاة

والسلام - من حادثة فقده لابنه القاسم في قوله :

شَجَا الرِّيحَ فَازْدَادَتْ حَنِينًا لِفَقْدِهِ وَأَحْدَثَتْ شَجْوًا فِي بُكَاءِ الْحَمَائِمِ
فَمِنْ قَبْلِهِ مَا قَدْ أُصِيبَ نَبِينًا أَبُو الْقَاسِمِ النُّورُ الْمُبِينُ بِقَاسِمِ (5)

(1) أبو تمام ، الديوان ، 4 / 208 .

(2) البقرة 103 .

(3) أبو تمام ، الديوان ، 3 / 162 .

(4) لقمان 12 .

(5) أبو تمام ، الديوان ، 3 / 258 .

ليواسي ممدوحه مالك بن طوق حينما فقد أخاه القاسم بن طوق . فهو هنا يفيد من تلك
المواقف الجزئية التي يحرص على رصدها في فنه متخذاً منها وسيلة للعظة وموضعاً
للاعتبار⁽¹⁾.

ويتأمل أبو تمام تاريخ الدعوة الإسلامية ليختار منها مواقف , على نحو ما صنع في
حديثه عن قريش والدعوة الإسلامية , ورسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وموقفهم منه
عناداً وكفراً ومكابرة :

تَلَكُم قُرَيْشٌ لَمْ تَكُنْ آرَاؤُهَا تَهْفُو وَلَا أَحْلَامُهَا تُتَقَسَّمُ
عَزَبَتْ عُقُولُهُمْ وَمَا مِنْ مَعَشِرٍ إِلَّا وَهُمْ مِنْهُ أَلْبٌ وَأَحْزَمُ
لَمَّا أَقَامَ الْوَحْيُ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ وَرَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمَدَ مِنْهُمْ
وَمِنَ الْحَزَامَةِ لَوْ تَكُونُ حَزَامَةٌ أَلَا يُؤَخَّرَ مَنْ بِهِ يُتَقَدَّمُ⁽²⁾

فهو يستعرض موقف قريش من دعوة , الرسول - عليه السلام - وما تحمّله وصحبه من
تعذيب المشركين لهم , ومقاومتهم للدين الإسلامي , وإصرارهم على ضلالهم وغييهم .

ويتواصل أبو تمام مع قصة المؤلفة قلوبهم⁽³⁾ في قوله :

لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَعْظَمُ أُسْوَةٍ وَأَجْلُهَا فِي سُنَّةٍ وَكِتَابٍ
أَعْطَى الْمَوْلَفَةَ الْقُلُوبِ رِضَاهُمْ كَمَلًا وَرَدًّا أَخَايِدَ الْأَحْزَابِ⁽⁴⁾

ليستعطف مالك بن طوق التغلبي على قومه حين شقوا عليه عصا الطاعة , ويقنعه
بالصّح عنهم اقتداء بالرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الذي أعطى في موقعة حنين
جماعة من قريش من الغنائم , وكأنّه ردّ ما سبق أن أخذه في بعض حروبه منهم .

⁽¹⁾ ينظر التطاوي , عبد الله , ثقافة أبي تمام من شعره / 80 .

⁽²⁾ أبو تمام , الديوان 3 / 199 .

⁽³⁾ ينظر ابن هشام , السيرة النبوية 4 / 207 والبيهقي , السنن الكبرى 6 / 548 .

⁽⁴⁾ أبو تمام , الديوان 2 / 200 - 201 .

ويمدح أبا سعيد بقوله :

مُنَبِّهٌ فِي غَرَسِهِ أَنْصَارُهُ عِنْدَ النَّزَالِ كَأَنَّهُمْ أَنْصَارُ (1)

ويصف أبو تمام ممدوحه بأنه شجاع مبهم أمره , ويشبّه أنصاره بأنصار النبيّ -
صلى الله عليه وسلّم - عند خوض المعارك .

ويوظّف أبو تمام بعض غزوات الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - , كقوله :

إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ أَوْ نِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرْتَ بِهَا وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبِ النَّسَبِ (2)

ليبين أن معركة المعتصم بين توحيد وشرك , وحقّ وباطل , وإسلام وكفر , وهي قرينة
كان قد صرح بها أبو تمام حينما عقد مقارنة بين معركة فتح عمورية من جهة , و معركة
بدر من جهة أخرى في تقرير مصير الشرك إلى الأبد . فأيام فتح عمورية وانتصار
المسلمين في بدر تعدّ أكثر الأحداث تشابهاً , فكلتاها كانتا من المعارك الحاسمة في
الانتصار على الشرك والكفر , وكلتاها نفت المنافقين , والذين في قلوبهم مرض من
المحسوبين على الجيش الإسلاميّ .

ويوظّف غزوتي بدر وأحد في قوله :

يَوْمٌ يَجِيءُ إِذَا قَامَ الْحِسَابُ وَكَمْ يَذْمُهُ بَدْرٌ وَكَمْ يُفْضِحُ بِهِ أَحَدُ (3)

ليشيد بانتصار ممدوحه على العدو , فهذا النصر فخر للإسلام , فيوم بدر يحسده لموافقته
إياه , ويحمده يوم أحد لانتصاره له من الكفار .

ويوظّف موقعة بدر وحنين في قوله :

1 (أبو تمام , الديوان 177 / 2 .

2 (نفسه 73 / 1 .

3 (نفسه 20 / 2 .

وَلَكِنْ أَذْكَرْتَنَا يَوْمَ بَدْرِ وَمُشْتَجِرَ الْأَسِنَّةِ فِي حُنَيْنٍ

رَدَدْتَ الدِّينَ وَهُوَ قَرِيرٌ عَيْنٍ بِهَا وَالْكَفْرَ وَهُوَ سَخِينُ عَيْنٍ (1)

لقياسه إيقاع إسحق بن إبراهيم المصعبي بأعدائه⁽²⁾ بإيقاع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمشركين والأحزاب ، لأنّ في هذا العمل وذاك خيراً للإسلام والمسلمين ، ونفعاً عظيماً.

توظيف القصص القرآني في شعر المتنبي

لقد وظّف المتنبي في شعره قصصاً من القرآن الكريم ، ومنها قصة آدم - عليه

الصلاة والسلام - فيقول :

أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَّ الْمَعَاصِي وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الْجِنَانِ

فَقُلْتُ إِذَا رَأَيْتُ أَبَا شَجَاعٍ سَلَوْتُ عَنِ الْعِبَادِ وَذَا الْمَكَانِ (3)

ويمدح المتنبي في البيتين السابقين عضد الدولة البويهّي⁽⁴⁾ وولديه أبا الفوارس وأبا دلف ، ويذكر طريقه بشعب بوان⁽⁵⁾ ، فيستعين في التلخص إلى ذكر الممدوح بالإشارة إلى قصة خروج آدم - عليه الصلاة والسلام - من الجنة. كما وردت في قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ

الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا

(1) أبو تمام ، الديوان 3 / 307 .

(2) هو الأمير اسحق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي ابن عم طاهر بن الحسين ، ولي بغداد أكثر من عشرين سنة ، وكان يسمى صاحب الجسر ، وكان صارماً سائساً حازماً ، وهو الذي كان يطلب العلماء ويمتنعهم بأمر المأمون ، توفي سنة 235 هـ . ينظر ابن العماد ، شذرات الذهب 3 / 161 .

(3) المتنبي ، الديوان 4 / 256 .

(4) عضد الدولة البويهّي (324 - 372 هـ) فتأخّسرو ، الملقب عضد الدولة ، ابن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمي ، أبو شجاع. أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق ، تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة . ينظر الثعالبي ، اليتيمة 2 / 257 .

(5) بوان بأرض فارس بين أرجان والنوبدرجان وهو أحد منتزهات الدنيا الحموي ، معجم البلدان 1 / 143 .

اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١﴾ وقوله تعالى :
﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى
آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (٢) . فالمتنبّي يبيّن أنّ السنّة في الارتحال عن الأماكن الطيّبة
والجميلة ، وفي معصية الله - عزّ وجلّ - سنّها آدم - عليه الصلّاة والسّلام - وعلمنا
إيّاها ، حين عصى وأخرج من الجنّة ، ولكنه إذا ما رأى أبا شجاع نسي هذا المكان على
جماله ، وسكانه على ما فيهم من طيبة .

وغير المتنبّي من توظيف هذه القصّة ، هو بيان لهفته للقاء عضد الدولة
البويهّي ، فرغم جمال المكان الذي يعدّ بمثابة الجنّة إلاّ أنّه تركه ليلقاه . ويلاحظ أنّ قصّة
آدم - عليه السّلام - تجسد حال المتنبّي ، فكما أنّ معصية آدم - عليه الصلّاة والسّلام -
لله - عزّ وجلّ - كانت السّبب في خروجه من الجنّة ، فإنّ طموح المتنبّي في الوصول
إلى عضد الدولة ، أخرجه من بوّان التي كانت له بمثابة الجنّة . فتوظيفه لهذه القصّة خدم
غرضه ، وجعل المتلقّي يتفاعل مع نصّه .

ويتواصل المتنبّي مع آدم - عليه السّلام - مرّة أخرى في قوله :

أَنْىَ يَكُونُ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمَ وَأَبُوكَ وَالثَّقْلَانِ أَنْتَ مُحَمَّدُ ﴿٣﴾

ليبيّن أنّ ممدوحه شجاع بن محمّد الطّائي يقوم مقام الجنّ والإنس ، فالله - سبحانه
وتعالى - جمع فيه ما فرقه فيهما من الفضل والكمال .

١ (البقرة 35 - 36)

٢ (طه 121)

٣ (المتنبّي ، الديوان 1 / 340)

ويستوحى المتنبي قصة طوفان نوح - عليه السلام - (1) في تصوير كرم ممدوحه

مساور بن محمد الرومي (2) في قوله :

لَوْ كُنْتَ بَحْرًا لَمْ يَكُنْ لَكَ سَاحِلٌ أَوْ كُنْتَ غَيْثًا ضَاقَ عَنْكَ اللُّوحُ
وَخَشِيتُ مِنْكَ عَلَى الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا مَا كَانَ أَنْذَرَ قَوْمَ نُوْحٍ نُوْحٌ (3)

وقد بالغ المتنبي في وصف كرم ممدوحه , فجعله يفوق البحر الذي لا ساحل له , والغيث الغزير الذي خرج عن الهواء الموجود ما بين السماء والأرض , فخاف المتنبي على البلاد من الطوفان الذي كان نوح عليه السلام قد أنذر به قومه كما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (4) ولكن المتنبي هنا انعطف بالصورة من العذاب إلى الرحمة , حيث كنى بالطوفان عن كرم ممدوحه .

ويوظف المتنبي من قصص الأمم البائدة قصة وبار في قوله :

الرَّاجِعُ الْخَيْلَ مُحْفَاةً مُقَوِّدَةً مِنْ كُلِّ مِثْلِ وَبَارِي أَهْلِهَا إِرْمٌ
كَتَلَّ بِطَرِيقِ الْمَغْرُورِ سَاكِنُهَا بِأَنَّ دَارَكَ قَنَسَرُونَ وَالْأَجْمُ (5)

ويصور المتنبي إيادة سيف الدولة لسكان المدن والقرى البيزنطية التي حاصرها , والدمار الذي لحق بها بعدما اغترت بقوتها وأعلنت عصيانها للأمير , حيث تركها مثل

(1) ابن كثير , قصص الأنبياء / 55 .

(2) هو أحد قواد الإخشيد , وولاه كافور حلب , وهو صاحب الدار المعروفة بدار ابن الرومي بالزجاجة بحلب ينظر ابن جرادة , زبدة الطيب من تاريخ حلب 1 / 104 - 105 .

(3) المتنبي , الديوان 254/1 .

(4) نوح 1 .

(5) المتنبي , الديوان 4 / 17 - 20 .

وبار خراباً وترك أهلها كارم وعاد هلاكاً مستمداً صورته من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ

كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿ (1) .

ويوظف عاداً وجرهم في قوله :

أَجَارَ عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى ظَنَنْتَهُ تَطَالِبُهُ بِالرَّدِّ عَادٌ وَجَرُهُمْ (2)

فسيف الدولة استطاع أن يذود عن حمى الدولة الإسلامية ضد مطامع البيزنطيين .

وقد وظّف المنتبى عاداً وجرهم مبالغة في وصف قوة الممدوح , حتى إنك تظنّ أن

هذه الأمم تطالبه أن يبعثها من جديد .

ويوظف قصة طسم وجديس في قوله :

وَمُلُوكًا كَأَمْسٍ فِي الْقُرْبِ مِنَّا وَكَطَسْمٍ وَأُخْتِهَا فِي الْبِعَادِ (3)

فيشيد المنتبى بالصلح الذي حصل بين ابن الإخشيد (4) وكافور , لأنّ الخلاف

نتائجه وخيمة , إذ أهلك الأمم السابقة كطسم وجديس اللتين بادتا نتيجة حروب كانت

بينهما .

ووظف أيضاً قصة عاد في قصيدة مدح بها عليّ بن إبراهيم التتوخي في قوله :

(1) الفجر 6 - 7 .

(2) المنتبى , الديوان 3 / 355 .

(3) نفسه 2 / 34 .

(4) ابن الإخشيد : أنوجور بن محمد , ولي مصر ودمشق بعد موت أبيه أبي بكر , وكان القيم بأمر كافور الإخشيدي ينظر ابن عساكر , تاريخ مدينة دمشق 9 / 389 .

وَيَوْمَ جَلَبَتْهَا شُعَثَ النَّوَاصِي مُعَقَّدَةَ السَّبَائِبِ لِلطَّرَادِ

وَحَامَ بِهَا الْهَلَاكُ عَلَى أَنْاسٍ لَهُمْ بِاللَّاذِقِيَّةِ بَغْيُ عَادٍ (1)

فقد أهلك القوم الذين كانوا باللاذقية ، لأنهم بغوا بغي قوم عاد وعصوا معصيتهم .

وقوله :

أَدِيبٌ إِذَا مَا جَسَّ أَوْتَارَ مِزْهَرٍ بَلَا كُلِّ سَمْعٍ عَن سِوَاهَا بِعَائِقِ

يُحَدِّثُ عَمَّا بَيْنَ عَادٍ وَبَيْنَهُ وَصَدُغَاهُ فِي خَدْيِ غُلَامٍ مُرَاهِقٍ (2)

ويتواصل مع عاد عندما يصف حاذق بالغناء يضرب العود, حيث جعله ينشد الأشعار القديمة والألحان التي قيلت في الدهور الماضية , فيحدث عما بين زمان قوم عاد وبين زمانه مع أنه شاب . فالمتنبّي هنا وجد صلة بين هذا الغلام وبين تلك الأمم البائدة بغنائهم ألعانها .

ويوظف المتنبّي من قصّة صالح - عليه السّلام - حادثة عقر النّاقة , فيقول:

وَفِي جُودِ كَفِّكَ مَا جُدْتُ لِي بِنَفْسِي وَلَوْ كُنْتُ أَشْقَى ثَمُودٍ (3)

ليحضّ ممدوحه على أن يجود له بنفسه , بإطلاقه سراحه من السّجن , فممدوحه جواد كريم معه حتّى لو كان المتنبّي ذلك المجرم الذي عقر ناقة صالح - عليه السّلام - .

واستوحى في مدحه لكافور الإخشيديّ , قصّة قميص يوسف - عليه السّلام - (4)

في قوله :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ قَمِيصُ يَوْسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبِ

(1) المتنبّي , الديوان 1 / 361 .

(2) نفسه 2 / 319 .

(3) نفسه 347/1 .

(4) أبو عزيز , سعد يوسف , قصص القرآن / 183 .

إِذَا غَزَتْهُ أَعَادِيهِ بِمَسْأَلَةٍ فَقَدَ غَزَتْهُ بِجَيْشٍ غَيْرِ مَغْلُوبٍ (1)

واستوحى المتنبي قصة قميص يوسف - عليه السلام - كما ورد في قوله تعالى:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2)

ليبين حبَّ كافرٍ للكرم ، وأنه صفة متأصلة فيه ، فلا يردّ سائلاً يقصده ، بل إنّ من يطلب عطاءه يشعره بالفرحة الغامرة ، كفرحة يعقوب - عليه السلام - عندما ألقي عليه قميص يوسف - عليه السلام - .

وهناك من يفسر استيحاء قصة يعقوب - عليه السلام - بقوله ، " وقد أقام الشاعر تناظراً بين هذه الألفاظ القرآنية (يقصد: قميص ، يوسف ، يعقوب) وجزالة عطاء الممدوح ، فكما أن الممدوح لا يرد سائلاً ويفرح بسؤاله ، فإن قميص يوسف أعاد البصر إلى يعقوب عليه السلام ، فكأنه لا يرد له شأن ، فهناك علاقة تبادلية بين القميص وعطاء الممدوح " (3).

وتعلق هدى الأرنؤوطي على هذا البيت : " وحين نذكر ما كان يضمّره المتنبي من احتقار لكافور يغلب على ظننا أنه ضمّن البيت تلميحاً خفياً إلى أن كافوراً لم يكن ممّن اعتاد الملك ، والقصد من الشعراء وغيرهم . فقدوم هؤلاء عليه يحمل رونق المفاجأة التي حملها قميص يوسف لأبيه ، وفيه فخر بنفسه ، إذ هو أحد السائلين الذين كان لزيارتهم لكافور صدى عميق أشبه بالفرحة التي غمرت قلب يعقوب " (4)

(1) المتنبي ، الديوان 1 / 172

(2) يوسف 93

(3) جوخان ، إبراهيم عقله عبد الرحمن ، التناسل في شعر المتنبي / 170 ، رسالة دكتوراه ، جامعة

اليرموك ، إربد - الأردن ، 2006 م .

(4) ثقافة المتنبي من شعره / 160 .

أما موسى - عليه السلام - , فقد تواصل معه المنتبّي في مواضع عدّة ومن ذلك

قوله :

مَا كُنْتُ أَمَلُ قَبْلَ نَعَشِكَ أَنْ أَرَى رَضْوَى عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ تَسِيرُ
خَرَجُوا بِهِ وَكُلُّ بَاكِ خَلْفَهُ صَعَقَاتُ مُوسَى يَوْمَ دُكَّ الطُّورِ (1)

فقد استعار المنتبّي قصّة موسى - عليه السلام - , والجبل الذي خرّ صعقاً من خشية الله - عزّ وجلّ - في رثاء محمد بن اسحق التتوخي , ليبيّن وقع المصاب في نفوس قومه , حيث ملك الحزن قلوبهم , فخرجوا في جنازته باكين , فأخذتهم الخشية لفرط تأثرهم , وكأنّها الصّعقات التي أصابت موسى عليه السلام يوم دكّ الطور (2).

أما قصّة انشقاق البحر لموسى - عليه السلام - (3) , فقد وظفها المنتبّي في

قصيدة مدح بها محمد بن زريق الطرطوسي (4) , فيقول :

أَوْ كَانَ لُجُ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ مَا انْشَقَّ حَتَّى جَاَزَ فِيهِ مُوسَى (5)

وقد استوحى المنتبّي هذه القصّة حين وصف كرم ممدوحه وقوته اللذين لا حدود لهما , فهو أقوى و أجود من البحر , فللممدوح من القوّة ما لو توافرت في البحر لقاوم عصا موسى - عليه السلام - المؤيّدّة بإرادة الله , ولما انشقّ البحر أمامه , وكذلك فإنّ عطاءه قد شمل الجميع دون تمييز , أما البحر فقد ميّز بين النّاس بالجود , حيث أغرق فرعون ومن معه , وجاد على موسى - عليه السلام - وأتباعه بالحياة , فلو كان البحر مثل كفه في الجود لما انشقّ لموسى . فالمنتبّي يرى في ممدوحه النّمودج والمثال الذي يتمناه في

(1) المنتبّي , الديوان 2 / 129 .

(2) ابن كثير , قصص الأنبياء / 236 .

(3) نفسه / 263 .

(4) محمد بن زريق بن جامع المدني من أهل حلب , ومن رواة الحديث كان يتولى أمر الثغور ينظر ابن العديم , بغية الطلب في تاريخ حلب 3 / 1469 .

(5) المنتبّي , الديوان 2 / 199 .

القوة والشجاعة والحكمة وحسن الرأي , ورأى فيه رجاء الناس رغبة في رضاه وعطائه ,
ورغبة من غضبه وسخطه وسيفه .

كما وظّف المنتبّي قصّة السّامري في قصيدة مدح بها أبا المغيث بن عليّ العجليّ في

قوله:

لِمَنْ مَالٌ تَمَزَّقُهُ الْعَطَايَا وَيَشْرِكُ فِي رَغَائِبِهِ الْأَنَامُ
وَلَا نَدْعُوكَ صَاحِبَهُ فَتَرْضَى لِأَنَّ بَصُحْبَةَ يَجِبُ الذِّمَامُ
تُحَايِدُهُ كَأَنَّكَ سَامِرِيٌّ تُصَافِحُهُ يَدٌ فِيهَا جُدَامٌ (1)

فمدوح المنتبّي كريم , لا يحرص على اكتناز المال , ولا يكثرث به , جعله يسخره
للعطايا والهبات , كأنما هو نافر منه نفور السّامري من الناس , مستوحياً أبياته من قوله
تعالى : ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَكَمْ تَرْفُبُ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي
الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ (2).

ويوظّف المنتبّي صنعة داود - عليه السّلام - في قوله :

نُودِعُهُمْ وَالْبَيْنُ فِينَا كَأَنَّهُ قَنَا ابْنَ أَبِي الْهَيْجَاءِ فِي قَلْبِ فَيْلِقِ
قَوَاضٍ مَوَاضٍ نَسَجُ دَاوُودَ عِنْدَهَا إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ كَنَسَجِ الْخَدْرَنْقِ (3)

حيث بيّن المنتبّي فعل فراق المحبوبة فيه عند وداعه لها , إذ عملت فيه عمل رماح
سيف الدولة في أعدائه , فهي مدهشة في صفاتها ومعجزة في أفعالها , ومتميّزة عن

1 (المنتبّي , الديوان 4 / 79 .

2 (طه 94 - 97 .

3 (المنتبّي , الديوان 2 / 308 - 309 .

غيرها بمضائها وإحكام صنعتها وقيمتها فهي رماح أسطورية ، حتى إنها تخترق درع داود - عليه السلام - المحكمة الصنع ، وتخترقها دون أن تخطئ الهدف وكأنها من نسج العنكبوت . متأثراً بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ (1) . وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴾ (2) . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (3) . فالمتنبي هنا حذف المبتدأ ، وبدأ مباشرة وصف رماح الممدوح ليلقي في نفس المتلقي شعوراً بأن قيمة الرماح في فعلها وفيما تحققه من أهداف ، فهي تجسد يد الممدوح التي تضرب بها ، وهي رمز لإرادة الممدوح وقوة فعله وقوته وسداد رأيه . وهذا الوصف يعكس نزوع المتنبي إلى القوة التي جعلت المتنبي يضيف هذه الصفات الخارقة على أفعال الممدوح .

أما سليمان - عليه السلام - فقد تواصل معه في قصيدة مدح بها عضد الدولة البويهى ، وولديه أبا الفوارس وأبا دلف ، ويذكر طريقه بشعب بوآن :

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْباً فِي المَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ
مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ (4)

فبوآن موضع كثير الشجر والمياه ، ويعدّ زمن المتنبي من جنان الدنيا ، ومنازله كالربيع في الأزمنة ، أي أنه يفضل سائر الأمكنة طيباً ، كما يفضل الربيع سائر الأزمنة ، وشعبه مثل الجن ، لشجاعته في الحرب ، ولكنه غريب الشكل واللسان ، فلغتهم بعيدة عن الأفهام ،

(1) الأنبياء 80 .

(2) سبأ 10 .

(3) العنكبوت 41 .

(4) المتنبي ، الديوان 4 / 251 - 252 .

حتى لو أنّ سليمان - عليه السلام - أتاهم لاحتاج إلى من يترجم له مع علمه باللغات وفهمه قول الحكل⁽¹⁾ .

ويكشف المتنبي هنا بوضوح ضياع الوجود العربيّ , وغلبة العنصر الأعجمي على البلاد العربيّة , محرّضاً العرب بأسلوب غير مباشر على استرداد الحقوق بالقوّة من اليد الأجنبيّة⁽²⁾ .

ويشير إلى سليمان - عليه السلام - مرّة أخرى , مضيفاً إليه يوسف - عليه السلام - في قوله :

مَنْ يَزُرُهُ يَزُرْهُ سُلَيْمَانُ فِي الْمَلِكِ جَلالاً وَيُوسُفُفًا فِي الْجَمالِ (3)

يتواصل مع سليمان عليه السلام ليشير إلى اتّساع ملك ممدوحه عبد الرّحمن المبارك الأنطاكيّ , ومع يوسف - عليه السلام - , ليشير إلى جماله وبهائه .

ويلمّح إلى قصّة عيسى - عليه السلام - في المهد , فيقول:

وَأَقْسِمُ لَوْ صَلَّحْتَ يَمِينَ شَيْءٍ لَمَّا صَلَّحَ الْعِبَادُ لَهُ شِمَالاً

أَقْلَبُ مِنْكَ طَرْفِي فِي سَمَاءٍ وَإِنْ طَلَعَتْ كَوَاكِبُهَا خِصَالاً

وَأَعْجَبُ مِنْكَ كَيْفَ قَدَرْتَ تَنْشَأَ وَقَدْ أُعْطِيتَ فِي الْمَهْدِ الْكَمالاً (4)

وهو بذلك يبالغ في وصف ممدوحه بدر بن عمّار⁽⁵⁾ , فهو يمتاز بالسبق إلى المكارم , وعلوّ المكانة , فلا يقدر أحد أن يدانيه من البشر , فهو في الشّهرة كالسماء , وخصاله

(1) الحكل: أي ما لا يسمع له صوت كالذر والنمل أو العجم من الطيور والبهائم ينظر ابن منظور , لسان العرب مادة حكل .

(2) كبريت , سمير محمد , المتنبي / 37 .

(3) المتنبي , الديوان 3 / 195 .

(4) نفسه 3 / 231 - 232 .

(5) بدر بن عمار الطبرستاني الأسدي , ولي ثغور الأردن والساحل من قبل أبي بكر محمد بن رائق ينظر الحموي , معجم البلدان 1 / 148 .

نجومها , وقد أعطي الكمال صغيراً , وازداد بعد الكمال كمالاً . والمتنبّي هنا استمدّ صورته من قصة تكلم عيسى - عليه السّلام - في المهد كما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (1) .

وقد وظّف ادعاء المسيحيين بنوة المسيح - عليه السّلام - في قوله :

أرى المسلمین مع المشركين إِمَّا لِعَجْزٍ وَإِمَّا رَهَبٍ
وَأَنْتَ مَعَ اللَّهِ فِي جَانِبٍ قَلِيلُ الرَّقَادِ كَثِيرُ التَّعَبِ
كَأَنَّكَ وَحْدَكَ وَحَدَّتَهُ وَدَانَ الْبَرِيَّةُ بَابِنِ وَأَبِ (2)

ويمدح المتنبّي في هذه الأبيات سيف الدولة , ويشيد بجهاده ضدّ الروم وتصديه لهم , معرّضاً بغيره من المسلمين الذين تحالفوا مع الروم كالبويعيين والإخشيديين إِمَّا عَجْزاً عنهم أو خوفاً منهم , وكأن سيف الدولة وحده هو الموحد , والآخرون يدينون بدين النصارى الذين يقولون بالابن والأب . وهذه البنية أشار إليها القرآن الكريم في الآية : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (3) .

ويستوحي أيضاً من المعجزات التي منحها الله لعيسى - عليه السّلام - شفاء

المرضى في قوله :

تَيْمَّمَنِي وَكَيْلِكَ مَا دَحَا لِي وَأَنْشَدَنِي مِنَ الشَّعْرِ الْغَرِيْبَا
فَأَجْرَكَ الْإِلَهَ عَلَى عَلِيلٍ بَعَثَ إِلَى الْمَسِيحِ بِهِ طَبِيْبَا (4)

(1) آل عمران 44 .

(2) المتنبّي , الديوان 1 / 104 .

(3) التوبة 30 .

(4) المتنبّي , الديوان 1 / 145 .

إذ يستوحي المتنبّي معجزة عيسى عليه السلام ، ليعرّض بالشاعر الذي قصده ليفاخره بشعره الرديء الغثّ ، فحال هذا الشّاعر كحال من أرسل ليداوي المسيح - عليه السّلام ، وهو الذي وهبت له القدرة على شفاء المرضى ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، لا سيّما إذا كان الطّبيب عليلاً . فشعر المتنبّي معجزة منحه الله إيّاها ، فلا مكان لشاعر آخر بجانبه ، فكلمة المسيح هنا حددت مكانة المتنبّي مع غيره من الشّعراء فهو نبيّ مرسل ، والشّعراء الآخرون كسائر النّاس . وقد وردت معجزة عيسى - عليه السّلام - في قوله تعالى : ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (1).

ويتواصل مع معجزة المسيح بشكل غير مباشر في قوله :

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي وَأَسْمَعَتِ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمٌّ

أَنَامُ مِلءَ جُفُونِي عَن شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ (2)

فمن يقرأ هذه الأبيات يتساءل : كيف يمكن للأعمى أن ينظر إلى أدبه ؟ وكيف يمكن للأصمّ أن يسمعه ؟ وهذا الشّيء لا يحدث إلا في معجزات الرّسل كما حدث مع عيسى - عليه السّلام - حيث قال الله تعالى على لسانه : ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (3) ، فالمتنبّي استشعر تميّزه عن غيره من أهل الأدب وامتلاكه للمجد الأدبيّ ، فراح يرسم صورة نموذجيّة لذاته الشّاعرة المتعالية بما يحويه شعره من طاقات خلاقّة قادرة على التّأثير حيث كان ، قادرة على تفجير الظّلام وتحويل الجهل إلى علم ، والظّلام إلى نور . فأدبه عظيم ومؤثر يعقله الأعمى ، وقادر على اختراق سمع

(1) آل عمران 49 .

(2) المتنبّي ، الديوان 3 / 367 .

(3) آل عمران 49 .

الأصم , بما تملكه كلماته من سحر , فهو هنا يشبه معجزته الشعرية بمعجزة عيسى عليه السلام - في شفاء المرضى .

ويستوحى قصة بناء ذي القرنين الذي طوى الأرض وبنى السدّ في قوله :

كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى الْإِسْكَانِدْرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي (1)

فتنقلاته وأسفاره أكسبته خبرة واسعة بالأرض ومجاهلها , فكأنه بسطها بعلمه بها , وقد أعانه على ذلك عزمته وقوة إرادته التي قدّ منها السدّ الذي بناه ذو القرنين وأشار الله - عزّ وجلّ - إليه بقوله : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (2) .

فهو يستعين بهذه القصة ليدلل على قوة إرادته في مواجهة الحياة بمتاعبها ومشاقها , فهو إنسان طموح لا يستسلم بسهولة ويستحقّ ما يريد , ويعرف الطريق إلى ذلك .

ويتواصل مع قصة ذي القرنين نفسها في قوله :

لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ صَرِنَ شُمُوسَا (3)

ليبين أنّ الممدوح ذو رأيٍ شديد , فلو أنّ الإسكندر على عظمته وحكمته وقدرته استتار به , لبدد الظلمات مستوحياً ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو

1 (المتنبّي , الديوان 4 / 52 .

2 (الكهف 92 - 97 .

3 (المتنبّي , الديوان 2 / 198 .

عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكْنَأُ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿١﴾ . فالمتنبّي هنا يخلع على ممدوحه صفات مثاليّة , و يرى أنّ المجتمع بحاجة إلى مثل هذه الصفات , وهو أيضاً يحسّ ببشاعة الواقع وعدم قدرته على التغيير واستتصال الفساد من المجتمع , فراح يلحّ في طلب النموذج المثال القويّ الذي يساعده على تحقيق آماله وطموحاته وتجاوز الحال الرّاهنة .

ويستوحي معجزة الإسراء والمعراج بشكل غير مباشر في قوله :

فَوْقَ شَقَاءِ اللَّاشِقِّ مَجَالٌ بَيْنَ أَرْسَاعِهَا وَبَيْنَ الصَّفَاقِ

مَا رَأَاهَا مُكْذِبُ الرُّسُلِ إِلَّا صَدَّقَ الْقَوْلَ فِي صِفَاتِ الْبُرَاقِ (٢)

فهو يصف فرس أبي العشائر بالسرعة والنشاط , فإذا نظر إليها مكذب بالرسول - صلّى الله عليه وسلّم - , صدّق الأخبار الواردة في صفة البراق . وهو هنا يلمح إلى منزلة أبي العشائر العالية التي تقارب منزلة الرسول - صلّى الله عليه وسلّم - حتّى خص بفرس تحمل صفات البراق .

ويتواصل مع جبريل - عليه الصلّاة والسّلام - في قوله :

لِعَظُمَتِ حَتَّى لَوْ تَكُونُ أَمَانَةً مَا كَانَ مُؤْتَمَنًا بِهَا جِبْرِينُ

بَعْضُ الْبَرِيَّةِ فَوْقَ بَعْضٍ خَالِيًا فَإِذَا حَضَرَتْ فَكُلُّ فَوْقٍ دُونُ (٣)

ويخاطب المتنبّي ممدوحه بدر بن عمّار , ويخبره بأنّه لا يوجد مثله , فهو وحده العظيم الذي يؤتمن على كلّ شيء , وهو أولى من جبريل في حمل الأمانة . ولعل في ذلك مبالغة عظيمة .

١ (الكهف 83 - 84 .

٢ (المتنبّي , الديوان 2 / 365 - 366 .

٣ (نفسه 4 / 208 .

وهكذا يلاحظ تأثر أبي تمام والمنتبّي بالقصص الديني في صياغة كثير من صورهما مما أضفى على شعرهما دقة في الأداء , ومما يدلّ على صلتها بالموروث الديني وبتفاصيله . فأبو تمام وظّف قصص الأمم البائدة ومعظم الأنبياء والرسل - عليهم الصلّاة والسّلام - وقصص الرّجال والملوك , حتّى إنّه يكاد يجمع قصصاً تمثّل جميع الديانات , فذكر من كلّ قصّة طرفاً .

وكان أبو تمام يوظّف هذه القصص في الوعظ المباشر والتّوجيه , وأحياناً يحاول استخلاص الحكم والعظات من هذه القصص , فيحاول استقصاء ما يمكن للشعر تحمله من هذه القصص , حتّى إنّه يضطر أحياناً إلى اللّمع السّريع والإشارة الخاطفة التي يمكن أن يفيد منها في رسم صورته , وكأنّه يحرص على استقصاء هذه القصص بأنماطها المختلفة . وكانت قصّة يوسف - عليه السّلام - أكثر القصص حضوراً في شعره .

أمّا المنتبّي فكان تأثره أيضاً في هذا المجال أقلّ من تأثر أبي تمام , وكان يعتمد إلى هذه القصص حسبما يقتضيه الموقف أو الحاجة لرسم صورة من صورته , ويلاحظ أنّه ركّز بشكل كبير على قصّة المسيح - عليه السّلام - لاشتراكه في الحروب ضدّ الروم .

الحديث النبويّ الشريف

يعدّ الحديث النبويّ المصدر الثّاني من مصادر التّشريع الإسلاميّ , ومنهلاً عذباً ينهل منه الشعراء والأدباء على مرّ العصور , ومصدراً هاماً من مصادر التّراث الإنسانيّ , ومن المرجعيّات التّراثية الهامّة , لما يميّز به من بلاغة التّعبير وروعته , وحسن التّصوير وبراعته .

توظيف الحديث النبويّ في شعر أبي تمام

ويلاحظ أنّ أبا تمام أفاد من الحديث النبويّ في مواطن كثيرة في شعره , ومن

الأمثلة على ذلك , قوله في مدح المعتصم:

لَمْ يَغْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَهْدِ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَ جَيْشٌ مِنَ الرَّعْبِ (1)

ويضفي أبو تمام على المعتصم بعض المزايا التي كان يتمتع بها جدّه الأعلى - محمد صلّى الله عليه وسلّم - , ومنها النصر بالرعب مسيرة شهر , فبيّن ما لاسمه من الأثر في قلوب أعدائه , وما يسببه ذكره لهم من هلع وخوف ورعب ما يعادل فعل الجيش العظيم في الحرب مستوحياً قوله - صلّى الله عليه وسلّم - : " أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطِهِنَّ أَحَدٌ قَبْلِي , كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ فِي قَوْمِهِ , وَبُعِثْتُ لِكُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدٍ , وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ , وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً وَطَهُورًا , وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ , وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ " (2) , ليؤكد على أنّ نصر المعتصم كان بتأييد من الله - عزّ وجلّ - لأنّه يحارب من أجل إعلاء كلمة الله لا لنفسه .

ويمدح أبو تمام المعتصم في قصيدة أخرى بقوله :

جَلَا ظُلُمَاتِ الظُّلْمِ عَنْ وَجْهِ أُمَّةٍ أَضَاءَ لَهَا مِنْ كَوَكَبِ الْحَقِّ آفِلَةٌ (3)

حيث يؤيد أبو تمام المعتصم في خلافته , فيعمد إلى بيان فضائله وأعماله الجليلة التي أسداها لأُمَّته , ومنها إقامة العدل وإزالة الظلم وآثاره , وإحقاقه الحقّ المسلوب , وإنارته

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 59 .

(2) البخاري , صحيح البخاري / 624 والجيلاني , فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد / 1 / 565 والعيني , عمدة القاري شرح صحيح البخاري / 10 / 293 .

(3) أبو تمام , الديوان 3 / 26 .

الطريق لهم مسئلتهاً الحديث النبوي: " الظلم ظلمات يوم القيامة " (1) لفظاً ومعنى.

ويلمّح أبو تمام أحياناً تلميحاً صريحاً إلى معنى الحديث الشريف , وذلك في قوله :

يُرَى حِكْمَةً مَا فِيهِ وَهُوَ فَكَاهَةٌ وَيُقْضَى بِمَا يَقْضَى بِهِ وَهُوَ ظَالِمٌ (2)

فبيّن أبو تمام أثر الشعر في المهجوّ في الشطر الثاني من البيت مسنداً بهذا إلى قول

الرسول -عليه الصلّاة والسّلام - " إِنْ مِنْ الشَّعْرِ لِحَكْمًا " (3) , فالنّاس يقضون بما

يقضي به الشعر وهو ظالم , لأنّ الشاعر ربما هجا ظلاماً منه , فيضع من قيمة المهجوّ

ويقتّحه ويشينه .

ويمدح أبو تمام المعتصم ويذكر فتنة الخرميّة (4) في قوله :

مُسْتَيْقِنًا أَنْ سَوْفَ يَمْحُو قَتْلُهُ مَا كَانَ مِنْ سَهْوٍ وَمِنْ إِغْفَالٍ

مِثْلُ الصَّلَاةِ إِذَا أُقِيمَتِ أَصْلَحَتْ مَا قَبْلَهَا مِنْ سَائِرِ الْأَعْمَالِ (5)

إذ يشيد أبو تمام بقضاء المعتصم على بابك الخرميّ مستوحياً معنى الحديث الشريف :

" والصلّاة عمود الدّين تكمل بها الأعمال وهي أوّل ما يسأل عنها المسلم , فإن صلحت

صلح سائر عمله , وإن فسدت فسد سائر عمله " (6) , وكذلك كانت مآثرة الخليفة بقتل

بابك الخرميّ حسنة لأنها أكملت سائر أعمال الخليفة .

ويرثي أبو تمام محمّد بن حميد بقوله :

1 (البخاري , صحيح البخاري / 506 و العيني , عمدة القاري شرح صحيح البخاري 9 / 194 والصالح , الشذرة في الأحاديث المشتهرة 1 / 384 .

2 (أبو تمام , الديوان 3 / 179 .

3 (ابن الأثير , النهاية في غريب الحديث 1 / 419 والترمذي , سنن الترمذي 4 / 334 .

4 (فتنة الخرمية : قام بها بابك الخرمي , وقضي عليها سنة 223 هـ ينظر الطبري , تاريخ الطبري 5 / 210 - 268 .

5 (أبو تمام , الديوان 3 / 134 .

6 (الصالح , الشذرة في الأحاديث المشتهرة 1 / 366 .

إِنْ كَانَ رَيْبُ الدَّهْرِ أَتَكَنَّنِيهِمْ فَالدَّهْرُ أَيْضاً مَيِّتٌ مَتَكُولٌ (1)

فأبو تمام يسلي نفسه ويصبرها فالأشياء كلها فانية , حتى الموت الذي يصيب الناس جميعاً سيموت ويقضى عليه في الآخرة , وهو حكم كما قال التبريزي مبني على الحديث الشريف : " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة , وصار أهل النار إلى النار أتى بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح , ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت , فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم , ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم " (2) .
فهذا معنى قوله : " فَالدَّهْرُ أَيْضاً مَيِّتٌ مَتَكُولٌ " .

ويمدح أبو تمام المأمون :

إِنَّ المَكَارِمَ لِلخَلِيفَةِ لَمْ تَزَلْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ذَاكَ وَالْأَقْوَامُ

كُتِبَتْ لَهُ وَالْأَوْلِيَةَ وَرِاثَةً فِي اللُّوحِ حَتَّى جَفَّتِ الْأَقْلَامُ (3)

فيؤكد أبو تمام أن المكارم متصلة في المأمون , وحكمه هذا مسلم به , و لا مجال للنقاش فيه , وليعمق دلالة هذا المعنى استمدّ عبارة " جفت الأقلام " من الحديث النبوي الشريف :
" جاء سراقه بن مالك بن جعشم قال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن , رأيت عمرتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال : لا بل للأبد . قال : يا رسول الله : بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن . فيما العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أفيما نستقبل ؟ قال : بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ... " (4).

(1) أبو تمام , الديوان 4 / 105 .

(2) المنذري , مختصر صحيح مسلم / 534 .

(3) أبو تمام , الديوان 3 / 158 .

(4) ابن حنبل , مسند ابن حنبل / 3 / 193 .

وقال يمدح الحسن بن وهب (1) :

فَكَّةٌ يُجْمُ الْجَدُّ أَحْيَانًا وَقَدْ يُنْضَى وَيَهْزَلُ عَيْشٌ مَنْ لَمْ يَهْزَلِ (2)

فالإنسان إذا حمل أمره على الجدّ لقي شدة من العيش تنضيه , لأنّ الإنسان يملّ من لزوم الطريفة الواحدة , لذلك فإنّ ممدوحه يذر الجدّ أحياناً , وهو في هذا المعنى متأثر بالحديث الشريف : " رَوَّحُوا الْقُلُوبَ تَعِ الذِّكْرَ " (3) .

توظيف الحديث النبوي الشريف في شعر المتنبي

تواصل المتنبي في غير موضع من شعره مع الحديث النبوي الشريف , ومن الأمثلة على ذلك مدحه عليّ بن أحمد المرّي الخرسانيّ في قوله :

إِنَّ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هَذَا لَيْسَ شَيْئًا وَبَعْضُهُ أَحْكَامٌ

مِنْهُ مَا يَجْلِبُ الْبِرَاعَةَ وَالْفَضْ لُ مِنْهُ مَا يَجْلِبُ الْبِرْسَامُ (4)

ويشيد المتنبي في خاتمة قصيدته بشعره وذلك من خلال قوله : إنّ من الشعر ما يكون عن دراية و فضل ومعرفة " يقصد شعره " , ومنه ما يكون هذيان يجلب العلة والمرض " يقصد شعر غيره مستوحياً قول الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ " (5) .

ويمدح أبا العشائر في قوله :

ثَاقِبُ الرَّأْيِ ثَابِتُ الْحِلْمِ لَا يَفُ دِرُّ مَرَّةٍ لَهُ عَلَى إِفْلَاقِ

(1) هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الكاتب , ولد سنة 186 هـ كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات , وقد ولي ديوان الرسائل , وكان شاعراً بليغاً مترسلاً , وله ديوان رسائل . ينظر الكتبي , فوات الوفيات 1 / 367 .

(2) أبو تمام , الديوان 3 / 37 .

(3) ابن أبي شيبة , مصنف ابن أبي شيبة 13 / 475 .

(4) المتنبي , الديوان 4 / 101 .

(5) ابن حنبل , المسند 3 / 456 و 5 / 125 .

يا بني الحارث بن لقمان لا تعـ دمكم في الوغى متون العتاق

بعثوا الرعب في قلوب الأعداي فكأن القتال قبل التلاقي (1)

يصور المنتبي شجاعة أبي العشائر وقومه وما يسببه ذكرهم لأعدائهم من هلع وخوف ورعب في قلوبهم قبل النزال ، فلشدة خوفهم منهم كأنهم قاتلوهم قبل أن يلتقوا بهم متناصاً مع قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ونصرت بالرعب مسيرة شهر " (2) ، فكأن الممدوح قد خص بهذه الصفة تماماً كالنبي - صلى الله عليه وسلم - .

ويوظف الحديث النبوي الشريف في قوله :

وقى الأمير هوى العيون فإنه ما لا يزول ببأسه وسخائه

يستأسر البطل الكمي بنظرة ويحول بين فواده وعزائه (3)

إذ يدعو المنتبي لممدوحه السلامة من العشق الذي لا يستطيع أن يدفعه بالبأس والمال ، فهو يستأسر البطل من النظرة الأولى ، فلا يبقى له خلاص ولا صبر ولا سمع ولا بصر . مستوحياً الحديث النبوي الشريف " حبك الشيء يعمي ويصم " (4) .

ويمدح طاهر بن الحسين في قوله :

إذا علوي لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجة للنواصب (5)

ويبين المنتبي لممدوحه أن العلوي إذا لم يكن تقياً ورعاً مثله ، فيكون حجة للأعداء على علي - رضي الله عنه - مستدلاً بقول الرسول - عليه الصلاة والسلام : " الولد سرّ أبيه " (6) .

1 (المنتبي ، الديوان 2 / 366 .

2 (البخاري ، صحيح البخاري / 624 والعجلوني ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس 2 / 338 .

3 (المنتبي ، الديوان 1 / 7 .

4 (ابن حنبل ، المسند 5 / 194 و 6 / 450 الأزدي ، سنن أبي داود 5 / 346 .

5 (المنتبي ، الديوان 1 / 156 .

6 (الصالحي ، الشذرة في الأحاديث المشتهرة 2 / 236 السيوطي ، الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة 413/ والعجلوني ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس 2 / 238 .

ويستثمر المتنبّي الحديث النبويّ الشريف في التعبير عن وجهة نظره في بعض القضايا التي تتعلق بحياة الإنسان في قوله :

وَمَا خَضَّبَ النَّاسُ الْبَيَاضَ لِأَنَّهُ قَبِيحٌ وَلَكِنْ أَحْسَنُ الشَّعْرِ فَاحِمُهُ (1)

فيعدّ المتنبّي الشيب حسناً , فليس يخضب البياض لأنه مستقبح , ولكن لأنّ السواد أحسن منه , فالخاضب إنّما يطلب الأحسن من لوني الشعر . وهو في هذا المعنى يستوحي قول الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إِنَّ أَحْسَنَ مَا اخْتَضَبْتُمْ بِهِ لِهَذَا السَّوَادِ أَرْغَبُ لِنِسَائِكُمْ فِيكُمْ , وَأَهْيَبُ لَكُمْ فِي صُدُورِ عَدُوِّكُمْ " (2).

ويحذّر المتنبّي من مخالطة اللّثام في قوله :

لُعِنَتْ مُقَارَنَةُ اللَّثِيمِ فَإِنَّهَا ضَيْفٌ يَجْرُ مِنْ النَّدَامَةِ ضَيْفَانَا (3)

إنّ مخالطة اللّثيم ومعاشرته مذمومة , وتجرّ لصاحبها الندامة , لأنّ نتائجها غير محمودة العواقب , فهي كضيف يليه ضيف من الندامة , مستوحياً قول النبيّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : " إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَمَثَلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ , فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يَحْذِيكَ , وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ , وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً , وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً " (4) .

أمّا في مجال العلاقات الإنسانيّة , فإنّ المتنبّي يدعو إلى أخذ الحيطة والحذر ,

وذلك من خلال قوله :

يَسْتَخْبِرُونَ فَلَا أُعْطِيهِمْ خَبْرِي وَمَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ مِنَ الظَّنِّ

(1) المتنبّي , الديوان 3 / 334 .

(2) القزويني , سنن ابن ماجّة 2 / 1197 .

(3) المتنبّي , الديوان 4 / 207 .

(4) النيسابوري , صحيح مسلم 16 / 178 .

وَخَلَّةٌ فِي جَلِيْسٍ أَتَّقِيهِ بِهَا كَيْمَا يُرَى أَنَّنَا مِثْلَانِ فِي الْوَهْنِ (1)

يسأل النَّاسَ الْمُتَنَبِّيَّ عَنْ حَالِهِ وَأَخْبَارِهِ ، فَلَا يُخْبِرُهُمْ بِشَيْءٍ ، وَيَكْتُمُ عَنْهُمْ أَمْرَهُ خَوْفًا مِنْ غَائِلَتِهِمْ ، فَهُوَ يَخْفِي نَفْسَهُ وَفَضْلَهُ خَوْفًا مِنْ الْحَسَدِ مُسْتَدًّا فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ حَوَائِجِكُمْ بِالكَتْمَانِ ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مُحْسُودٌ " (2) . وَكَأَنَّ الْمُتَنَبِّيَّ يَسْقُطُ مَا فِي نَفْسِهِ نَتِيجَةً مَا لَاقَاهُ مِنْ نَفْيٍ وَحَرْمَانٍ ، وَخَيْبَةٍ أَمَالِهِ وَطُمُوحَاتِهِ ، وَكَأَنَّهُ يَعِظُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ بِأَنْ يَتَمَثَّلَ هَذَا الْحَدِيثُ ، لِأَنَّ السَّرَّ إِذَا بَاحَ مِنْ صَاحِبِهِ شَاعَ (3) .

ويشيد المتنبّي بأفعال سيف الدولة العظيمة في قوله :

رَفَعَتْ بِكَ الْعَرَبُ الْعِمَادَ وَصَيَّرَتْ قِمَمَ الْمُلُوكِ مَوَاقِدَ النَّيِّرَانِ
أَنْسَابُ فَخْرِهِمْ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا أَنْسَابُ أَصْلِهِمْ إِلَى عَدْنَانَ (4)

إِنَّ الْعَرَبَ ارْتَفَعَتْ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ وَشَرَفَتْ بِهِ ، وَأَخْضَعُوا الْمُلُوكَ بِهِ ، فَهَمَّ فِي الْفَخْرِ وَالشَّرَفِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَنْتَسِبُونَ مِنْ جِهَةِ آبَائِهِمْ إِلَى عَدْنَانَ مُسْتَدًّا فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " كَذَبَ النَّسَابُونَ مَا فَوْقَ عَدْنَانَ " (5) .

ويقول على لسان بعض بني تنوخ مفتخرًا ومعتزًا بنسبه :

وَمَجْدِي يَدُلُّ بَنِي خَنْدِفٍ عَلَى أَنَّ كُلَّ كَرِيمٍ يَمَانٍ (6)

1 (المتنبّي ، الديوان 4 / 212 .

2 (البهقي ، شعب الإيمان 5 / 276 .

3 (جوخان ، إبراهيم عقله عبد الرحمن ، التناص في شعر المتنبّي / 185 ، رسالة دكتوراه ، جامعة

اليرموك ، إربد - الأردن ، 2006 م .

4 (المتنبّي ، الديوان 4 / 184 - 185 .

5 (المتقي ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال 7 / 149 .

6 (المتنبّي ، الديوان 4 / 188 .

فكرم ممدوحه وشرفه يدلّ على أنّ كلّ كريم من قبائل اليمن لأنّه منهم , وذلك لأنّ أهل اليمن يتميزون عن غيرهم بالحكمة والإيمان , وطيبة القلب والكرم مستوحياً قول الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "الإيمان يمان , وأجد ريح الرحمن من قبل اليمن والحكمة يمانية , وأهل اليمن أئین قلوباً ... " (1).

ويوظف المتنبّي ألفاظاً من الحديث النبويّ الشريف في قوله :

أَنْتَ أَعْلَى مَحَلَّةً أَنْ تُهْنَى بِمَكَانٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ

وَلَكَ النَّاسُ وَالْبِلَادُ وَمَا يَسُـ رَحٌ بَيْنَ الْغَبْرَاءِ وَالْخَضْرَاءِ (2)

و المتنبّي في هذين البيتين يمدح كافور الإخشيدي ويهنئه ببناء دار , فيقول له أنّه أعلى قدراً من أن يهنأ بمكان , وهو يملك ما بين الخضراء والغبراء , ويلاحظ أنّه أخذ بعض ألفاظه من قول الرسول - عليه الصلّاة والسّلام - " ما أقلّت الغبراء , ولا أظلتّ الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر " (3) .

ويستلهم المتنبّي لفظة من الحديث الشريف ويوظفها في شعره كقوله :

شَدِيدُ الْبُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّمُولِ تُرْجُ الْهِنْدِ أَوْ طَلَعُ النَّخِيلِ

وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ طَيِّبٌ لَدَيْكَ مِنَ الدَّقِيقِ إِلَى الْجَلِيلِ

وَمِيدَانُ الْفَصَاحَةِ وَالْقَوَافِي وَمَمْتَحَنُ الْفَوَارِسِ وَالْخِيُولِ (4)

يصور المتنبّي مجلس ممدوحه سيف الدولة , فهو ليس كمجالس الآخرين التي تعقد لشرب الخمر , ولكنها مجالس يفوح منها الطيب والحديث الحسن , حيث يتسابق الموجودون فيها

1 (البخاري , صحيح البخاري / 257 والنيسابوري , صحيح مسلم 1 / 52 والبيهقي , شعب الإيمان 6 / 268 .

2 (المتنبّي , الديوان 1 / 33 .

3 (ابن حنبل , المسند 2 / 63 .

4 (المتنبّي , الديوان 3 / 90 - 91 .

في النَّثر والنَّظم ، والحديث عن الخيل والفرسان . و المتنبّي استعار كلمة ترنج من الحديث النبوي لرسم صورة هذا المجلس : " ومثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب " (1) .

وهكذا يلاحظ أن أبا تمام والمتنبّي قد توأما مع الحديث النبوي الشريف ، وذلك للتعبير عن حالاتهما الشعورية ورؤاهما المماثلة لمعاني هذه الأحاديث دون تكلف في معظم المواقف رغم حرص أبي تمام على استقصاء كل ما يتعلّق بالتراث الديني ، ولكنه استقصاء فرضته عليه عقليته التي ازدحمت بالثقافات المختلفة ، فصدرت عنها في المواقف التي تحتلها وتتناسب معها ، حيث تقل الكلفة إذا ورد الحديث في مكانه الطبيعي الذي اجتهد أبو تمام في تحديده . أمّا المتنبّي فقد كان يقتبس الحديث النبوي الشريف للتعبير عن الحالات الشعورية المماثلة لهذه الأحاديث .

التّواصل بالكتاب المقدّس في شعر أبي تمام

توظيف قصص أهل الكتاب

وظّف أبو تمام في شعره بعض قصص أهل الكتاب ، ومن الأمثلة على ذلك

استيحاؤه قصّة سدوم في قوله :

فَإِنْ أَكْ قَدْ حَلَلْتُ بَدَارِ هُونٍ صَبَوْتُ بِهَا فَقَدْ يَصْبُو الْحَلِيمُ
أَلَوْمُكَ لَا أَلَوْمُ سِوَاكَ دَهْرًا قَضَى لِي بِالَّذِي يَقْضِي سَدُومُ (2)

(1) مسلم ، صحيح مسلم 6 / 83 والسيوطي ، الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير 3 / 122 .

(2) أبو تمام ، الديوان 4 / 538 .

فهو يشكو الدهر , ويصف سوء مطلبه بنيسابور , لأنه وجد فيها خيبة الأمل واليأس
والغربة وضيق العيش , فأخذ يلوم الدهر الجائر الذي قضى له بالذهاب إلى هذه المدينة
, لأنّ حكمه كان كحكم قاضي سدوم (1).

كما يتواصل مع يوشع بن نون (2) في قوله :

فَرَدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخَدْرِ تَطْلُعُ
نَضًا ضَوْءُهَا صَبِغَ الدُّجْنَةَ فَانطَوَى لِيَهْجَتْهَا ثَوْبُ السَّمَاءِ الْمُجْرَعُ
فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي أَلْحَلَامُ نَائِمٌ أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرِّكْبِ يَوْشَعُ (3)

إذ يصور أبو تمام محبوبته وهي تخرج من خدرها , حيث أضاعت ظلمة الليل , فاحتار
فيما حدث . فأخذ يتساءل : أكان هذا حلمًا أم كان معه في الركب يوشع ؟ وهذا المعنى
محمول على ما يحكيه أهل الكتاب من أنّ الشمس ردت ليوشع بن نون لينتهي من قتال
الجبارين قبل دخول السبت .

توظيف ألفاظ من الكتاب المقدس

وقد وردت في ديوان أبي تمام بعض ألفاظ أهل الكتاب نتيجة اتصال العرب بالروم

عن طريق الحروب الصليبية , ولكنها قليلة , ومن الأمثلة على ذلك :

خَلَقَ اللَّهُ لِحَيَّةٍ لَكَ لَوْ تَحَدَّ لَقَ لَمْ يُدْرَ مَا غَلَاءُ الْمُسُوحِ !

(1) سدوم " إحدى مدائن لوط - عليه السلام - , تميز قضاتها بالظلم , والقرية : سدوم التي قيل فيها :
أجور من قاضي سدوم) كانوا ظالمين ينظر العهد القديم / 333 والزمخشري , الكشاف عن حقائق
التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - 3 / 456 .

(2) هو يوشع بن نون بن أفراتيم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل - عليهم السلام - وأهل
الكتاب يقولون يوشع بن عم هود وقد ذكره الله تعالى في القرآن دون أن يصرح باسمه في قصة الخضر
في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ ﴾ الكهف / 60 و ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ ﴾ الكهف / 62 . وهو متفق
على نبوته عند أهل الكتاب , لأنه مصرح به في التوراة ينظر ابن كثير , قصص الأنبياء 326 والعهد
القديم , الإصحاح الرابع / 341 .

(3) أبو تمام , الديوان / 2 / 320 .

أَحْلَى وَأَعْدَبُ مِنْ سَبَبِ تَجَوُّدٍ بِهِ وَكَانَ تَجَوُّدَ بِهِ يَا كَلْبُ يَا كَلْبُ (1)

حيث وظف أبو تمام لفظة المسوح في هجائه موسى بن إبراهيم الرافقي , وذلك ليشبهه لحيته بمسوح الرهبان .

ووظف أيضاً كلمة الصلْب في قوله :

النَّارُ وَالْعَارُ وَالْمَكْرُوهُ وَالْعَطْبُ وَالْقَتْلُ وَالصَّلْبُ وَالْمُرَانُ وَالْخَشْبُ (2)

ليبين أن النار والعار وإصابته بمكروهه والقتل والصلب أفضل وأعذب من عطاء عيَّاش بن لهيعة .

وقوله :

لَوْ بَيَّنَّتْ قَطُّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ لَمْ تُخَفِ مَا حَلَّ بِالْأَوْثَانِ وَالصُّلْبِ (3)

فهو هنا قرن الأوثان والصلب على صعيد واحد هو صعيد الترادف , وبذلك يكون قد عدّ الصليبيين وإن حملوا شارات الصليب على الظاهر , إنما هم مشركون , كما هم عبدة الأوثان من أهل مكة قبل مجيء الإسلام .

ووظف عبارة روح القدس في قوله :

أَبُو عَلِيٍّ أَخْلَافُهُ زَهْرٌ غِبَّ سَمَاءٍ وَرُوحُهُ قُدْسٌ (4)

ليصور نضارة ومدوحه وطهارة روحه .

وقوله :

فَإِنَّ مُوسَى وَصَلَّى عَلَى رُوحِهِ الرَّبِّ صَلَاةً كَثِيرَةً الْقُدْسِ

(1) أبو تمام , الديوان 4 / 333 .

(2) نفسه 4 / 313 .

(3) نفسه 1 / 45 .

(4) نفسه 2 / 230 .

صار نبياً وعظماً بُعِثَهِ في جذوةٍ للصلاءِ أو قبسٍ (1)

تأول أبو تمام لهذا الممدوح شرفاً عظيماً في وفادته على الخليفة تماماً مثل موسى - عليه

الصلاة والسلام - حينما طلب جذوة من نار فأوتي النبوة بإذن الله .

ووظف لفظه البطريق في قوله :

يَسْتَعِيثُ الْبَطْرِيْقَ جَهْلًا وَهَلْ تَطَّ لُبُّ إِلَّا مُبْطِرِقَ الْبَطْرِيْقِ (2)

ليصور شجاعة ممدوحه أبي سعيد في الحرب من خلال استعانة البطريق الذي لا يعني

بالنسبة لممدوحه شيئاً .

التواصل بالكتاب المقدس في شعر المتنبي

توظيف قصص أهل الكتاب

شغلت المأثورات المسيحية جانباً واضحاً في شعر المتنبي , ولعل السبب في

ذلك يرجع إلى الحروب الصليبية المستمرة بين سيف الدولة والبيزنطيين . ومن ذلك

إشارة المتنبي إلى حادثة صلب عيسى - عليه السلام - , ومن الجدير بالذكر أن هذه

القصة قد وردت في القرآن الكريم , ولكنه هنا وظفها من منطلق وجهة النظر المسيحية

للاستهزاء بمعتقدات الصليبيين , فيقول :

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ إِنْ يَعْذُ يَعِدُ مَعَهُ الْمَلِكُ الْمُعْتَصِبُ

وَيَسْتَنْصِرَانِ الَّذِي يَعْبُدَانِ وَعِنْدَهُمَا أَنَّهُ قَدْ صُلبُ

وَيَدْفَعُ مَا نَالَهُ عَنْهُمَا فَيَا لِلرِّجَالِ لِهَذَا الْعَجَبِ (3)

(1) أبو تمام , الديوان 2 / 241 .

(2) نفسه 2 / 437 .

(3) المتنبي , الديوان 1 / 104 .

فيسخر المنتبّي من عقيدة الملك وقائده متعجباً ، لأنّهما يسألان المسيح النصر على المسلمين ، ودفع الهلاك ، رغم أنّهما يعتقدان أنّ المسيح قد صلبه اليهود وقتلوه ، فكيف يقدر أن يدفع الهلاك عنهما ، وهو لم يستطع دفعه عن نفسه ! وهذا الاعتقاد في نهاية المسيح أوجزه القرآن بقوله : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (1) وأشار إليها الكتاب المقدّس : " أما المسيحية فلم تبدأ إلا بعد أن رفض ، كملك اليهود وصلب ، وصنع الخلاص لجميع البشر " (2).

ووظّف أيضاً قصة عازر الذي أحياه عيسى - عليه السلام - في قوله :

كَفَلَ الثَّنَاءُ لَهُ بَرْدَ حَيَاتِهِ لَمَّا انطوى فَكَانَهُ مَنْشُورُ

وَكَانَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ذِكْرَهُ وَكَانَ عَازِرَ شَخْصُهُ الْمَقْبُورُ (3)

وذلك ليبين أنّ ثناء الناس على هذا المرثي ، وذكرهم إياه بالحسنى بعد موته ، كفيل برّد الحياة له ، فإن من بقي ذكره طيباً في الناس كمن لم يموت ، لأنّ ذكر الناس له يحييه لهم كما أحيى عيسى بن مريم عازر بعد موته مستوحياً هذه القصة من الإنجيل : " وقال لعازر هلم خارجاً ، فخرج الميت ويده ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل فقال لهم يسوع حلّوه ودعوه يذهب " (4).

ويتواصل مع عازر مرّة أخرى في قوله :

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازِرَ سَيْفُهُ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ لِأَعْيَا عِيسَى (5)

(1) النساء 157 .

(2) بنكرتن ، بنيامين ، تفسير إنجيل متى / 98 .

(3) المنتبّي ، الديوان 2 / 131 - 132 .

(4) العهد الجديد / 350 .

(5) المنتبّي ، الديوان 2 / 198 .

ويبالغ المتنبّي في وصف شجاعة ممدوحه محمد بن زريق الطرطوسي ، وحسن استخدامه
السيف في الحرب ، فلو قتل بسيفه عازر ، لشقّ على عيسى - عليه السلام - إحياءه بعد
موته .

أما الحواريون فقد ذكروهم في قصيدته التي قالها عقب هزيمة مني بها سيف الدولة
بالقرب من ثغر الحدث :

وَلَوْ رَأَهُ حَوَارِيُّوهُمْ لَبَنُوا عَلَى مَحَبَّتِهِ الشَّرْعَ الَّذِي شَرَعُوا (1)

فهو يمدح سيف الدولة ويذكر الواقعة التي نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحدث
ويشيد بعدل سيف الدولة ، فلو رأى حواريو المسيح - عليه السلام - المتصفون باجتماعهم
على الحقّ والعدل عدل سيف الدولة وكرمه ، لبنوا شريعة الروم على محبّته ، وألزموا
الروم على الدخول في طاعته . فالمتنبّي هنا يلمح إلى أنّ سيف الدولة أحقّ من سواه
بالنصر .

توظيف ألفاظ أهل الكتاب

ويتضح تأثر المتنبّي بألفاظ أهل الكتاب نتيجة اختلاطه بالروم في حروبه مع سيف
الدولة الحمداني . ومن الأمثلة على تأثره بألفاظ أهل الكتاب قوله :

يا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُصَفَّى جَوْهَرًا مِنْ ذَاتِ ذِي الْمَلَكُوتِ أُسْمَى مَنْ سَمَا
نورٌ تَظَاهَرَ فِيكَ لَاهُوتِيَّةً فَتَكَادُ تَعْلَمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعْلَمَا (2)

فالمتنبّي عدّ ممدوحه في هذين البيتين جوهراً مصفّى من ذات الله تعالى ، فقد ظهر فيه
نور إلهي يكاد يعلم به الغيب الذي لا يعلمه إلا الله - سبحانه وتعالى - ، لأنّه صاحب

(1) المتنبّي ، الديوان 2 / 225 .
(2) نفسه 4 / 30 - 31 .

ذهن صاف . ويكثر استخدام لفظ ملكوت في الإنجيل ومن الأمثلة على ذلك : "لم يقل له يوحنا المعمدان أن ملكوت السماء قد حضر" (1) , وهي كلمة لاهوتية عبرانية وتعني الله. وقيل إن هذا الممدوح كان " نصرانياً فأسلم , ويريد أن يكالمة من حيث هو , ويريه فيه بهاء ربه , ويصفه بشيء فيه للكلام محال على طريقته" (2).

ويوظف المتنبي لفظة الصليب في عدة مواضع نحو قوله :

سَبَقَتْ إِلَيْهِمْ مَنَائِمُهُمْ وَمَنْفَعَةُ الْغَوْتِ قَبْلَ الْعَطْبِ
فَخَرَّوْا لِخَالِقِهِمْ سُجْدًا وَلَوْ لَمْ تُغْتِ سَجَدُوا لِلصُّلْبِ (3)

فقد أغاث سيف الدولة أهل الثَّغور قبل أن يظفر بهم الروم , فخرّوا لله سجداً شاكرين , لأنه أنقذهم من السَّجود للصليب خوفاً من الروم .

وقوله :

حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضِ خَرَشْنَةَ تَشْقَى بِهِ الرُّومُ وَالصُّلْبَانُ وَالْبَيْعُ (4)

فقد نزل سيف الدولة إلى أرض خرشنة , فشقيت به الروم , لأنه قتلهم وحرق صلبانهم , وهجروا كنائسهم .

ويوظف لفظة الرهبان في قوله يصف أسداً :

فِي وَحْدَةِ الرَّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا (5)

ليبين المتنبي أن هذا الأسد منفرد في غيله انفراد الرهبان في صوامعهم , غير أنه لايعرف حراماً ولا حلالاً .

1 (بنيامين , بنكرتن , تفسير إنجيل متى / 39 .

2 (الصقلي المغربي , أبو علي الحسين بن عبيد الله , التكملة وشرح الأبيات المشككة من ديوان أبي الطيب المتنبي / 50 .

3 (المتنبي , الديوان / 1 / 102 - 103 .

4 (نفسه / 2 / 224 .

5 (نفسه / 3 / 239 .

ووظف عدة ألفاظ وهي "المسوح والدير والترهب" في تصويره ما حلّ بالدمستق في

حربه مع سيف الدولة :

فَأَصْبَحَ يَجْتَابُ الْمُسُوحَ مَخَافَةً وَقَدْ كَانَ يَجْتَابُ الدَّلَاصَ الْمُسْرَدَا
وَيَمْشِي بِهِ الْعُكَازُ فِي الدَّيْرِ تَائِبًا وَمَا كَانَ يَرْضَى مَشْيَ أَشْقَرٍ أَجْرَدَا
فَلَوْ كَانَ يُنْجِي مِنْ عَلِيٍّ تَرْهَبٌ تَرَهَّبَتِ الْأَمْلَاكُ مَثْنَى وَمَوْحَدَا (1)

حيث صور المنتبّي هزيمة الدمستق أمام سيف الدولة وخذلانه ، إذ ولى هارباً منهزماً ، وقد خلع دروع الحرب ، ليلبس عوضاً عنها مسوح الرهبان . فلحقه الضّعف نتيجة الهزيمة ، فأصبح يجوب الدير على عكاز . وكان المنتبّي على صواب في تقييم هذا الفعل ، فهو من أفعال الهزيمة الذي لا يتصل بالإخلاص الديني المسيحي ، والحقيقة أنّ البيزنطيين يعدّون لجوء القائد في الحرب أو في السياسة إلى الأديرة والاعتزال فيها وصمة عار تلحق به (2).

يلاحظ قلة تأثر أبي تمام والمنتبّي بتراث أهل الكتاب إذا ما قورن بالتراث الديني الإسلامي ، وربما يعود ذلك إلى أن القرآن الكريم كان المصدر الأوّل في ذلك العصر للثقافة ، لتميّزه بالبلاغة والفصاحة والبيان . وكذلك فإنّ أبا تمام والمنتبّي يعيشان في ظلّ دولة ذات طابع إسلامي ، ويمدحان حكّاماً يتّخذون الشريعة الإسلامية دستوراً لدولتهم . وهم في الوقت نفسه في صراع مستمر مع الصليبيين .

(1) المنتبّي ، الديوان 1 / 284 - 285 .

(2) الجعافرة ، ماجد ياسين ، قراءات في الشعر العباسي / 65.

الفصل الثاني

التراث الأدبيّ في شعر أبي تمام والمتنبّي

التراث الأدبي في شعر أبي تمام والمنتبّي

يعدّ استيحاء الموروث الشعريّ أو التّأثر به من أقدم الطّواهر في الأدب العربيّ ؛ ولم يغفل الشّاعر عن أهميّة هذا الموروث ، ولا يوجد شاعر لم يفد من شعر غيره الذي يمثّل لديه حياة أخرى ، وعالمًا يزخر بالتّجربة والفكر . فيستمدّ منه الصّور والمعاني التي يوردها في شعره . والحفظ سبب قويّ في تآثر الشّاعر بغيره من الشّعراء ، حيث إنّ ذاكرته تقوم بالتّدكّر التلقائيّ اللاواعي ، وأحياناً يتعمّد التّدكّر أو استدعاء المعاني التي يحتاج إليها خياله حينما تستبهم عليه مسالك الإبداع .

التراث الأدبي في شعر أبي تمام

تدلّ أخبار أبي تمام على أنّه أطلّ النّظر في الموروث الأدبيّ عامّة والشّعريّ خاصّة، ويبدو أنّ تعمّقه بالموروث وحرصه على النّهل منه ، جعله يؤلّف كتباً موضوعاتها اختيار المجموعات الشعريّة ذات القيمة الأدبيّة العالية ، وهي :

كتاب الاختيار من أسفار القبائل ، وكتاب الاختيارات من شعر الشّعراء ، وكتاب الفحول وكتاب الحماسة ، ومختارات من الشّعراء المحدثين ، ونقائض جرير والأخطل ، وقد وصل إلينا منها الحماسة والنقائض (1).

وتدلّ هذه المؤلفات دلالة واضحة على صحبة أبي تمام للشعر والشّعراء ، فنتيجة صلته الشديدة بالموروث الشعري كانت تستوقفه المعاني والصّور والأخيلة ، وكان يعمل فيها ذهنه ، ثم يستدرك عليها بما يراه إضافةً أو عمقاً أو تصحيحاً . ولعلّ هذا ما دفع نقاد عصره في البحث عن سرقاته .

(1) النديم ، الفهرست 4 / 190 وابن خلكان ، وفيات الأعيان 2 / 12 .

وقد وظّف أبو تمام الموروث الأدبيّ في شعره بصورة جليّة , ولا غرو في ذلك , فقد قيل قديماً عنه : " ... وإنّه ما فاته كبير شيء من شعر جاهليّ ولا إسلاميّ ولا محدث إلا وقرأه وطالع فيه " (1) .

استدعاء نصوص بعض الشعراء

استدعى أبو تمام نصوص بعض الشعراء من خلال ذكر أسمائهم أو سماتهم أو الإشارة إلى قصائدهم أو بعض مواقفهم ومن ذلك تواصله مع امرئ القيس في قوله :

مِنَ الْمُعْطِيَاتِ الْحُسْنَ وَالْمُؤْتَيَاتِهِ مُجَلِّبَةً أَوْ فَاضِلًّا لَمْ تُجَلِّبِ
لَوْ أَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ بْنِ حَجْرٍ بَدَتْ لَهُ لَمَا قَالَ مُرًّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدُبِ (2)

فقد أراد أبو تمام أن يبيّن شدة جمال محبوبته وفتنتها في وقفة طلبية , فتواصل مع امرئ القيس في قصيدته المشهورة التي نافر بها علقمة الفحل , فقال إنّها تفوق محبوبة امرئ القيس جمالاً , فلو أنّ امرأ القيس رآها , لما قال بيته المشهور الذي يدلّ على مكانة أمّ جندب في نفسه :

خَلِيلِيَّ مُرًّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدُبِ نُقِضَ لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذِّبِ (3)

ويتواصل أبو تمام مع المرقش الأكبر (4) , في غزله بمحبوبته في إشارته إلى فتنتها , حتى إن المرقش لو رآها لصدّته عن التعلّق بصاحبته أسماء بنت عوف بن مالك , فيقول :

فَأَقْسِمُ لَوْ تَبَدُّو لِعَيْنِ مُرْقَشٍ لِأَذْهَلْتَ عَنَ أَسْمَاءَ حَقًّا مُرْقَشًا (5)

ويستدعي أيضاً مطلع معلقة طرفة بن العبد في قوله :

(1) الأمدي , الموازنة / 56 .
(2) أبو تمام , الديوان / 1 / 149 .
(3) امرؤ القيس , الديوان / 64 .
(4) المرقش الأكبر (? - 72 ق.هـ) عوف (وقيل عمرو) بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس من بني بكر بن وائل . شاعر جاهلي من المتيمين الشّجعان عشق ابنة عم له اسمها (أسماء) وقال فيها شعراً كثيراً , يحسن الكتابة وشعره من الطبقة الأولى . ينظر ابن قتيبة , الشعر والشعراء / 1 / 205 والأصفهاني , الأغاني / 6 / 93 .
(5) أبو تمام , الديوان / 227/4 .

زُرْتَ الخليفةَ زُورَةً مَيْمُونَةً مَذْكُورَةً قَطَعْتَ رَجَاءَ الحُسَدِ
يَتَنَفَّسُونَ فَتَتَنَتَّنِي لَهَوَاتِهِمْ مِنْ جَمْرَةِ الحَسَدِ الَّتِي لَمْ تَبْرُدِ
نَفْسُوكَ فَالْتَمَسُوا نَدَاكَ فَحَاوَلُوا جَبَلًا يَزِلُّ صَفِيحُهُ بِالمَصْعَدِ
دَرَسْتَ صَفَائِحَ كَيْدِهِمْ فَكَأْتَمَا أَذْكَرْنَ أَطْلَالَ بَبْرِقَةٍ تَهْمَدِ (1).

حيث استدعى أبو تمام مطلع معلقة طرفة في نهاية قصيدته التي يمدح بها أبا سعيد الثغري، ليبين أن زيارة ممدوحه للخليفة، قطعت رجاء الحساد الذين حاكوا له المكائد، فباعت محاولاتهم في الإيقاع بينه وبين الخليفة بالفشل ودرست صفائح كيدهم، فأصبحت أطلالاً مثل أطلال محبوبة طرفة ببريقة تهمد. فأبو تمام في هذه الأبيات لم يوظف مطلع معلقة طرفة بدلالاته الأصلية كما يلاحظ. ويفيد أبو تمام من شعراء العصر الأموي إفادة واضحة، فتأثر بالرّاعي النميري (2) في وصفه للنّاقة، إذ يقول:

بِنْتُ الفَضَاءِ مَتَى تَخْدُ بِكَ لَا تَدَعُ فِي الصَّدْرِ مِنْكَ عَلَى الفَلَاةِ غَلِيلاً
أَوْ مَا تَرَاهَا مَا تَرَاهَا هَزَّةً تَشَأَى العُيُونَ تَعَجْرُفًا وَدَمِيلاً
لَوْ كَانَ كَلْفَهَا عُيَيْدٌ حَاجَةً يَوْمًا لِأَسِيٍّ شَدَقَمًا وَجَدِيلاً (3)

حينما يصف أبو تمام رحلته على ناقته في عبورها الصّحراء، يستدعي أبيات الرّاعي النميري الملقّب بـ "راعي الإبل"، لأنه كان يحسن وصفها من خلال إشارته إلى أبياته التي يخاطب فيها ابنته خليدة، ويصف مطاياها، ويشبهها بفحلين من الإبل هما شدقم وجديل:

أَخْلِيدَ إِنَّ أَبَاكَ ضَافٌ وَسَادُهُ هَمَّانَ بَاتَا جَنْبَةً وَدَخِيلاً

(1) أبو تمام، الديوان 140/2.

(2) الراعي النميري (? - 90 هـ) هو عبيد بن حُصين بن معاوية بن جندل، ولقب بالرّاعي لكثرة وصفه الإبل. وقيل: كان راعي إبل من أهل بادية البصرة. عاصر جريراً والفرزدق. وسماه بعض الرواة حُصين بن معاوية. ينظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1 / 404. وابن سلام، طبقات فحول الشعراء 502/.

(3) أبو تمام، الديوان 3 / 68 - 69.

طَرَقَا فِتْلَكَ هَمَاهِمِي أَقْرِبِيهِمَا فُلُصَا لَوَاقِحُ كَالْقِسِيِّ وَحَوْلَا
شُمُّ الْكَوَاهِلِ جُنْحًا أَعْضَادُهَا صُهْبًا تَنَاسِبُ شَدَقَمًا وَجَدِيلاً (1)

إن ناقة أبي تمام سريعة ، وتتحمل المشاق و المتاعب ، حتى إن عبيداً لو امتطأها ، لاحتقر هذين الفحلين من الإبل ، فهدف أبي تمام من هذا الاستدعاء ، بيان أصالة ناقته وسرعتها وتحملها مشاق السفر في سبيل الوصول إلى الممدوح .

ويصف أبو تمام بطولته ، حيث يقول :

تَوَجَّعُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا كَأَنَّ الْمَجْدَ يُدْرِكُ بِالصَّرْعِ
فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِي إِذَا مَا فَطَفَنَ بِهِ إِلَى خُلُقٍ وَسَاعِ
يُثِيرُ عَجَاجَةً فِي كُلِّ ثَغْرِ يَهِيمُ بِهِ عَدِيُّ بِنِ الرَّقَّاعِ (2)

فهو يوظف في هذه الأبيات قول عدي بن الرقاع (3) الذي ذكر فيه الغبار في وصفه لحمار وأتان يتعاوران الركض :

يَتَعَاوَرَانِ مِنَ الْغُبَارِ مَلَاءَةً غِبْرَاءَ مُحْكَمَةٍ عَمَا نَسَجَاهَا
تَطْوِي إِذَا عَلَوْا مَكَانًا نَاشِرًا وَإِذَا السَّنَابِكُ أَسْهَلَتْ نَشْرَاهَا (4)

ويواجه أبو تمام النكبات والشدائد ، ومن عادته إثارة العجاجات والقساطل في الحروب التي يستهام بذكرها عدي بن الرقاع ، فيدفع عنه النكبات بقوة قلبه أو يموت فيها ميتة حميدة ، فاستدعاء أبي تمام بيت عدي بن الرقاع الذي يصف فيه العجاجة ، أغناه عن وصفها في خوضه المعارك .

ويستحضر أبو تمام بعض أشعار الفرزدق في قوله :

(1) القرشي ، جمهرة أشعار العرب / 172 .

(2) أبو تمام ، الديوان 2 / 336 - 337 .

(3) عدي بن الرقاع العاملي (? - 95 هـ) شاعر كبير ، من أهل دمشق . كان معاصراً لجرير ، مهاجياً له ، مقدماً عند بني أمية ، مداحاً لهم ، خاصاً بالوليد بن عبد الملك . مات في دمشق ينظر ابن قتيبة ، الشعر

والشعراء 603/2 والأصفهاني ، الأغاني 9 / 228 .

(4) ابن قدامة ، نقد الشعر / 132 - 133 .

صَفْرَاءُ صُفْرَةَ صِحَّةٍ قَدْ رَكَّبَتْ جُثْمَانَهُ فِي ثَوْبِ سَقْمٍ أَصْفَرِ

قَتَلْتَهُ سِرًّا ثُمَّ قَالَتْ جَهْرَةً قَوْلَ الْفَرَزْدَقِ لَا بَظْبِي أَعْفَرُ⁽¹⁾

فهو في أبياته يستوحي قول الفرزدق :

أَمْسِكِينَ أَبْكِي اللَّهُ عَيْنَيْكَ إِنَّمَا جَرَى فِي ضَلَالٍ دَمْعُهَا إِذْ تَحَدَّرَا

أَتَبْكِي امْرَأً مِنْ أَهْلِ مَيْسَانَ كَافِرًا كَكَسْرِي عَلَى عِدَانِهِ أَوْ كَقَيْصِرَا

أَقُولُ لَهُ لَمَّا أَتَانِي نَعِيُّهُ بِهِ لَا بَظْبِي بِالصَّرِيمَةِ أَعْفَرَا⁽²⁾

فأبو تمام يصرح في عجز بيته الثاني ، بأنه استمدّ هذا المثل من قول الفرزدق في مسكين

الدارمي⁽³⁾ و الشّماتة بموت زياد بن أبيه الذي كان مسكين قد رثاه . وعبارة "لا بظبي أعفر"

ترد كمثل وتقال عادة في حالة الشّماتة⁽⁴⁾ .

فقد وظف أبو تمام قول الفرزدق في مقدمة غزلية ، رابطاً بين موقف محبوبته الشّامت ، إذ شمتت

بما آلت إليه حاله عندما هجرته ، وموقف الفرزدق الشّامت بموت زياد ، فأبو تمام يعدّ نفسه قتيلاً

كزياد ، ومحبوبته تمثّل دور الفرزدق الشّامت .

و يتواصل مع ذي الرّمه⁽⁵⁾ ، فيقول :

مَا رُبِعَ مِيَّةٌ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ غَيْلَانُ أَبْهَى رُبِيٍّ مِنْ رُبْعِهَا الْخَرِبِ

وَلَا الْخُدُودُ وَقَدْ أَدْمِينَ مِنْ حَجَلٍ أَشْهَى إِلَى نَاطِرٍ مِنْ خَدَّهَا التَّرْبِ⁽¹⁾

(1) أبو تمام ، الديوان 4 / 450 451 .

(2) الفرزدق ، الديوان 1 / 201 .

(3) مسكين الدارمي (90 هـ) هو ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن عدس بن دارم . شاعر عراقي له أخبار مع معاوية ، وكان بينه وبين الفرزدق وعبد الرحمن بن حسان وشائج مودة وهجاء . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1 / 536 والبغدادي ، خزائن الأدب 1 / 467 وابن سلام ، طبقات فحول الشعراء 3 / 6 .

(4) الميداني ، مجمع الأمثال 1 / 136 .

(5) ذو الرّمّة (117 هـ) غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي ، من مضر . من فحول الطبقة الثانية في عصره ، وكان شديد القصر دميماً ، يضرب لونه إلى السواد ، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال ، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين وكان مقيماً بالبادية ، يختلف إلى اليمامة والبصرة كثيراً ، امتاز بإجادة التشبيه . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1 / 515 - 527

وهو يصف الخراب والدمار الذي حل بمدينة عمورية حينما فتحها المعتصم من خلال الإشارة إلى ربع مية الذي أكثر ذو الرمة من وصف حسنه , ليبين حسنه في عيون المسلمين, فهو في عيونهم أبهى من ربع مية في عيون ذي الرمة , فهو هنا قرن صورة الخراب والدمار بصورة من صور الجمال مستعينا فيها بوصف المرأة وجمالها. و قد جاء الطباق معموراً وخراب في سبيل تجميل القبيح . وهو في هذين البيتين يستدعي قول ذي الرمة :

إِلَى نَوَاحٍ مِنْ أَطْلَالِ أَحْوِيَةٍ كَأَنَّهَا خَلَلٌ مَوْشِيَةٌ قُشِبُ
 دِيَارُ مِيَّةٍ إِذْ مَيُّ تُسَاعِفُنَا وَلَا يَرَى مِثْلَهَا عَجْمٌ وَلَا عَرَبٌ (2)

ويقول إيليا الحاوي في تعليقه على هذين البيتين : " ولكنه لم يدع الأشياء جارية على رسلها , بل إنه استلّ النقيض من النقيض , وعرف الغبطة فيما يكون باعثاً للحزن , وما يشفع بهذين البيتين الغنائية العذبة التي تندى منهما بما يوحى بالصدق والمعاناة الفعلية . والإيقاع هنا فاقد الجلبة التي استولت عليه منذ المطلع. والشعراء المعاصرون يعمدون إلى ذلك , بل إنهم يتعمدونه لأنّ من الأشخاص من يحملون خاصة النموذج الذي ينتمون إليه للنصر وجه بهي تجريدي ووجه واقعي , هو وجه الخراب والتدمير, وأصل الفرح أن يُستدرّ للبناء وال عمران , لقد وصل الشاعر في النهاية إلى غايته , وهي أن يعثر على صلات ممكنة بين الخراب والفرح " (3).

أما ليبد بن أبي ربيعة ومسعود بن عمرو الأزديّ أخو ذي الرمة , فيتواصل أبو تمام معهما في مقدمة قصيدته , إذ يقول:

مَالِي بَرَبِعٍ مِنْهُمْ مَعَهُودُ إِلَّا الْأَسَى وَعَزِيمَةُ الْمَجْلُودِ

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 56 - 57 .

(2) ذو الرمة , الديوان / 3.

(3) أبو تمام - فنه ونفسيته من خلال شعره / 119 .

إِنْ كَانَ مَسْعُودٌ سَقَى أَطْلَالَهُمْ سَبَلَ الشُّؤُونَ فَلَسْتُ مِنْ مَسْعُودٍ
ظَلَعُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ ثُمَّ ارْعَوَيْتُ وَذَلِكَ حُكْمٌ لِبَيْدٍ⁽¹⁾

إذ يفضل أبو تمام الصبر وإيثار التعزي والجلادة على فراق محبوبته , فهو لن يبكي طويلاً كما فعل مسعود بن عمرو الأزديّ أخو ذي الرمة الذي قضى أيامه في البكاء على الأطلال , وإنما يكتفي بالمدة التي حددها لبيد في وصيته لابنتيه :

تَمَنَى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْ مُضَرَ
فَقُومًا فَقَوْلًا بِالَّذِي قَدْ عَلِمْتُمَا وَلَا تَخْمِشَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقَا شَعْرَ
إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ⁽²⁾

استيحاء معاني الشعراء والفاظهم

استوحى أبو تمام معاني من تقدّمه من الشعراء من مختلف العصور , ومن الأمثلة على ذلك قوله :

وَقَدْ قَالَ إِمَّا أَنْ أُغَادِرَ بَعْدَهَا عَظِيمًا وَإِمَّا أَنْ أُغَادِرَ أَعْظَمًا⁽³⁾

فبيّن أبو تمام هيبه ومدوحه في قلوب أصحابه وأوليائه , وبذلهم الوسع فيما يكسبهم حمده , فيذكر استماتتهم في القتال , ومنهم بشر الذي قال للممدوح : إما أن أهلك فأكون قد أبلّيت العذر عندك , أو أكون عظيماً عندك , مستوحياً قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكُ عَيْنِكَ إِمَّا نَحَاوِلُ مُلْكَاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذِرَا⁽⁴⁾

فامرؤ القيس يسعى لاستعادة ملك أبيه , وهو من أجل ذلك تستوي عنده الحياة والموت , فقد ضمّن أبو تمام بيت امرئ القيس وأعاد صياغته بتشكيل لغويّ جديد . فقول أبي تمام

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 386 - 387 .

(2) ابن ربيعة العامري , لبيد , الديوان / 74 - 75 .

(3) أبو تمام , الديوان 3 / 240 .

(4) امرؤ القيس , الديوان / 95 .

" إِمَّا أَنْ أُغَادِرَ بَعْدَهَا عَظِيمًا وَإِمَّا أَنْ أُغَادِرَ أَعْظَمًا " يماثل معنى قول امرئ القيس " إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكَاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذِرَا " , فبشر وامرؤ القيس تتساوى عندهما الحياة والموت من أجل تحقيق هدف كل منهما .

ويتواصل مع عروة بن الورد , فيقول :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ السُّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبٍ (1)

فيرى أبو تمام أن الدعة ربما تكون نتيجة التعب , ويأتي الغناء من عناء , والنضرة من شحوب , مستوحياً قول عروة بن الورد في مخاطبته زوجته حين لامته على كثرة تطوافه :

تَقُولُ سُلَيْمَى لَوْ أَقَمْتَ لِسِرِّنَا وَلَمْ تَدْرِي أَنِّي لِلْمُقَامِ أُطُوفُ (2)

فالشاعران هنا متفقان على المعنى وهو: أن الراحة لا تأتي الا نتيجة الجهد والتعب , وهذا يؤكد أن قدرة الشاعر على الإبداع والتجديد لا تمنعانه من الإفادة من التراث .

ويتواصل أبو تمام مع لقيط بن يعمر (3), حيث يقول :

طَلَبَ الْمَجْدِ يورثُ المرءَ خَبلاً وَهُمُومًا تُقْضِضُ الحَيْرُومَا

فترَاهُ وَهُوَ الخَلِيُّ شَجِيحاً وَتَرَاهُ وَهُوَ الصَّحِيحُ سَقِيمَا (4)

فيرى أبو تمام أن الكرم يتطلب جهداً عظيماً , كما أن طلب المجد يتطلب تضحيات عظيمة , فالكريم لا يكون كريماً إلا بعد تعب وجهد , مستوحياً معناه من قول لقيط بن يعمر :

لَا يُطْعَمُ النُّومَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ يَكَادُ سَنَاهُ يَقْصِمُ الضَّلْعَا (5)

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 119 .

(2) ابن الورد , عروة , الديوان / 51 .

(3) لقيط بن يعمر الإيادي. (? - 249 ق. هـ) شاعر جاهلي فحل، من أهل الحيرة، كان يحسن الفارسية واتصل بكسرى سابور (ذي الأكتاف)، فكان من كتابه والمطلعين على أسرار دولته ومن مقدمي مترجميه. ينظر ابن قتيبة , الشعر والشعراء 195/1 .

(4) أبو تمام , الديوان 3 / 227 - 228 .

(5) الإيادي , لقيط بن يعمر , الديوان 85 .

فعبارة أبي تمام : " طَلَبُ الْمَجْدِ يورثُ المرءَ خَبَلًا " معناها يماثل " لا يُطعمُ النومَ إلا رَيْثَ يَبْعَثُهُ همُّ " , وعبارة أبي تمام : " وَهُمُومًا تُقْضِضُ الْحَيَوزَما " معناها يماثل عبارة لقيط " هَمٌّ يَكَادُ سَنَاهُ يَقْصِمُ الضَّلْعَا " , فقد ضمّن نصّه معاني قول لقيط بعد أن حوّرهُ , وأعاد صياغته بسياق لغويّ جديد .

ويمدح المعتصم لفتحته مدينة عمورية , فيقول :

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ (1)

فأبو تمام يكذبُ تنبؤات المنجّمين بهزيمة المعتصم , فيجعل الميزان للقوة مستوحياً قول الكميت ابن ثعلبة :

ولا تكثرُوا فيها الضَّجَاجَ فَإِنَّهُ مَحَا السِّيفِ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ (2) أَجْمَعًا (3)

فدارة هجا بعض بني فزارة , فقتله رجل منهم , فبذلك مَحَا العارَ الَّذِي ألحقه هجاؤه بهم تماماً كالسيف الذي كذبُ تنبؤات المنجّمين في فتح المعتصم عمورية .

ويتواصل مع الفرزدق في قوله :

نَجْمَانِ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا يَطْلُعَا إِلَّا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْفِلَا
 إِنَّ الْفَجِيعَةَ بِالرِّيَاضِ نَوَاضِرًا لِأَجْلِ مِنْهَا بِالرِّيَاضِ ذَوَابِلَا
 لَوْ يُنْسَانِ لَكَانَ هَذَا غَارِبًا لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هَذَا كَاهِلَا
 لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ فِيهِمَا لَوْ أْمَهَلْتُ حَتَّى تَكُونَ شَمَانِلَا
 إِنَّ الْهَلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا (4)

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 40 .

(2) ابن دارة هو سالم بن دارة أحد بني عبد الله بن غطفان . ودارة أمه ينظر الميداني , مجمع الأمثال 3 / 227 .

(3) نفسه 3 / 227 .

(4) أبو تمام , الديوان 4 / 114 - 115 .

حيث يرثي أبو تمام ابني عبد الله بن طاهر متمنياً أن يكون الأجل قد أمهلها , لأنهما يتمتعان بصفات تجعله يتوقع أن يكون لهما شأن عظيم , وهو في هذا المعنى يستوحى قول الفرزدق :

وَجَفَنَ سِلَاحٍ قَدْ رَزِنْتُ فَلَمْ أُنْحَ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ عَلَيْهِ الْبَوَاكِيَا
وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوْ أَنَّ الْمَنِيَا أَنْسَأَتْهُ لِيَالِيَا⁽¹⁾

فقد اشترك الشاعران في المعنى ولكنهما اختلفا في التركيب السياقي , حيث أعاد أبو تمام هذا المعنى بعد أن حوَّره بسياق جديد فيه زيادة على المعنى الأصلي .

استيحاء صور الشعراء

واستوحى أبو تمام صور الشعراء القدماء , ومن الأمثلة على ذلك استيحاؤه تصوير الشعراء السابقين الحروب , وبخاصة تحليق الطير فوق الجيوش المحاربة بحثاً عن دماء القتلى وأجسادهم , ومنهم النابغة الذبياني , حيث قال :

إِذَا مَاغَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَابُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَابِ⁽²⁾

وقول أبي نواس :

تَتَأَيَّا الطَيْرُ غُدْوَتَهُ ثِقَةً بِالشَّبَعِ مِنْ جَرِّهِ⁽³⁾

وقول مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَتَقَنَّ بِهَا فَهَنْ يَتَبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلٍ⁽⁴⁾

يتضح من الأبيات السابقة أن هؤلاء الشعراء قد اشتركوا جميعاً بألفاظ معينة , كما يلاحظ توافقهم في المعنى والصورة . ولا تفاضل فيما بينهم إلا من جهة حسن السبك أو الإيجاز في اللفظ وتكثيف المعنى . واستوحى أبو تمام هذه الصور ولم يقنع بتجديد مسلم :

(1) الصولي , أخبار أبي تمام / 220 لم أجده في الديوان .

(2) الديوان / 10 .

(3) الديوان / 311 .

(4) الديوان / 12 .

وَقَدْ ظَلَمْتُ عِقْبَانَ أَعْلَامِهِ ضَحَىٰ
بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرِّيَّاتِ حَتَّىٰ كَانَتْهَا
مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ (1)

فظلَّ يحورُّ فيها ويجدد ويعدل , ويضيف إليها ألواناً من عقله , وألواناً من فنه , حتَّى أخرجها إخراجاً جديداً واضحاً عليها لمسأته وقد أخضعها لمذهبه الفنى , فجعل أعلام الجيش عقباناً , وحدد زمان هذه الصّورة بوقت الضحى حين تخرج هذه الطيور ساعية وراء رزقها , فتحلّق فوق الجيش , فتظللّه كأنّها رايات تخفق فوقه , ثم جعلها تنهل من دماء القتلى وتلازم الجيش وتختلط به وكأنّها أصبحت جزءاً منه , أو جنداً من جنوده , ولكنّها غريبة لا تقاتل معه .

ويقول في مدح المعتصم :

تَعَوَّدَ بَسَطَ الكَفِّ حَتَّىٰ لَوْ أَنَّهُ
ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُهُ (2)

ويصورّ أبو تمام تأصل عادة الكرم في نفس ممدوحه , مستوحياً صورة مسلم بن الوليد , إذ يقول :

لَا يَسْتَطِيعُ يَزِيدٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ
عَنِ الْمَنِيَّةِ وَالْمَعْرُوفِ إِحْجَامًا (3)

ولقد تفوق أبو تمام هنا على مسلم بن الوليد , حيث اعتمد في تصويره على الضدّين " دعاها - لم تجبه " فضلاً عن الحركة التي تسم صورة العطاء بينما تبدو السمة التقريرية واضحة في بيت مسلم .

ويصورّ أبو تمام عجز الشعر والنثر عن وصف فتح عمورية والإحاطة به لعظمته ,

فيقول :

فَتَحُ الْفُتُوحِ تَعَالَىٰ أَنْ يُحِيطَ بِهِ
نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخُطْبِ (4)

فهو يكاد يلتقي مع أشجع السلمي في تصويره عظمة ممدوحه المثال :

(1) أبو تمام , الديوان 3 / 82 .

(2) نفسه 3 / 29 .

(3) ابن الوليد , مسلم , الديوان 65/ .

(4) أبو تمام , الديوان 1 / 45 .

وَمَا تَرَكَ الْمَدَاحُ فَيْكَ مَقَالَةً وَلَا قَالَ إِلَّا دُونَ مَا فَيْكَ قَائِلٌ⁽¹⁾

وهذا ما يؤكد أنّ صور أبي تمام ولغته كانت في مجملها امتداداً لصور القدماء ولغتهم إلا أنه جدّد في بعضها وابتدع الآخر تبعاً لمعطيات عصره وثقافته .

توظيف قصص الشعراء ومواقفهم

وظّف أبو تمام بعض قصص من تقدّمه من الشعراء ، ومنهم عبيد بن الأبرص الذي ورد

على النعمان بن المنذر في يوم بؤسه فقتله⁽²⁾ ، فيقول :

لَمَّا أَظَلَّتْنِي غَمَامُكَ أَصْبَحْتَ تِلْكَ الشُّهُودُ عَلَيَّ وَهِيَ شُهُودِي

مِنْ بَعْدِ أَنْ ظَنُّوا بَأَنْ سَيَكُونُ لِي يَوْمٌ بَبَغْيِهِمْ كَيَوْمِ عَبِيدِ⁽³⁾

وهذان البيتان من قصيدة يمدح بها ابن أبي دؤاد ، ويعتذر إليه مستشفعاً بخالد بن يزيد في تهمة ألصقت به مفادها: أنه هجا مضر ونال منها ، وذلك في معرض حديثه عن تفويت شماتة أعدائه به حينما أصغى ممدوحه إلى قوله في دفاعه عن نفسه ، ممّا خيب أملهم ورجاءهم في أن يموت مقتولاً كما حدث لعبيد بن الأبرص .

ويستثمر أيضاً قصة النعمان مع النابغة في مدح ابن أبي دؤاد ، فيقول :

تَثَبَّتْ إِنْ قَوْلًا كَانَ زورًا أتَى النُّعْمَانَ قَبْلَكَ عَنْ زِيَادِ⁽⁴⁾

وَأَرَّتْ بَيْنَ حَيِّ بَنِي جُلَاحٍ سَنَا حَرْبٍ وَحَيِّ بَنِي مَصَادِ⁽⁵⁾

1 (السلمي ، أشجع ، الديوان / 248 .

2 (ينظر ابن فتيبة ، الشعر والشعراء 1 / 259 .

3 (أبو تمام ، الديوان / 396/1 .

4 (زياد بن معاوية : هو النابغة الذبياني (? - 18 ق.هـ) ، كان حظياً عند النعمان بن المنذر ، حتى شبب في قصيدة له بالمتجرّدة (زوجة النعمان) فغضب منه النعمان ، ففر وغاب زمناً . ثم رضي عنه النعمان فعاد إليه ينظر الشعر والشعراء 1 / 156 وابن سلام ، طبقات فحول الشعراء / 56 .

5 (أبو تمام ، الديوان / 1 / 378 .

فهو في هذين البيتين يستكر أن يكون قد ذكره بسوء ، ويدعو الممدوح أن يتثبت من التهمة التي ألصقت به ، وذلك من خلال تمثله بموقفٍ مشابه ، وهو موقف النابغة الذبياني الذي وُشي به عند النعمان ، فنظم اعتذارياته المشهورة ، فبانته براءته وقبل عذره .

وتواصل أبو تمام مع عدد من الشعراء المخضرمين ومنهم الأعشى ، وذلك من خلال الإشارة إلى موقفه من المنافرة التي كانت بين عامر⁽¹⁾ وعلقمة⁽²⁾ ، ليدلل على شجاعة ممدوحه ، فيقول:

إِنْ كَانَ بِالْوَرَعِ ابْنِي الْقَوْمِ الْعُلَى أَوْ بَالْتَقَى صَارَ الشَّرِيفُ شَرِيفًا
فَعَلَامَ قُدِّمَ وَهُوَ زَانٍ عَامِرٌ وَأُ مِيطَ عَقْمَةٌ وَكَانَ عَفِيفًا؟! ⁽³⁾

وهو يمدح في هذه القصيدة التي أخذ منها البيتان أبا سعيد محمد بن يوسف النخري ، ويعرض بإنسان ولي الثغور مكانه ، وكان ناسكاً فهزم ، ليؤكد على أنه ليس كل ناسك شجاعاً و يصلح لقيادة الجيوش ، وتحقيق النصر ، فلو كان العلى والشرف يكسبان بالورع ، لما قدم الأعشى عامر بن الطفيل - وكان زانياً - على علقمة بن علاثة - وكان عفيفاً - حينما تافرا إليه ، فالأعشى قدمه لكونه الأشجع ، والأجمع لخصال الكرم والشرف .

ومن مواقف الشعراء المشهورة التي وظفها في شعره : حزن متمم بن نويرة ⁽¹⁾ على أخيه مالك ، وحزن لبيد بن ربيعة العامري على أخيه أربد ، ثم سلو كل منهما عن مصابه رغم ما ألمَّ به من حزن :

¹ (عامر بن الطفيل بن مالك (70 ق.هـ - 11 هـ) ، من بني عامر بن صعصعة. فارس قومه وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية. أدرك الإسلام شيخاً فوفد على الرسول - صلى الله عليه وسلم - يريد الغدر به، فدعاه إلى الإسلام فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة وأن يجعله ولي الأمر من بعده، فردد، فعاد حانقاً . ينظر، البغدادي ، خزنة الأدب 1 / 473 وابن قتيبة ، الشعر والشعراء 322/1 .

² (علقمة بن علاثة بن عوف الكلابي العامري (؟ - 20 هـ / ؟ - 640 م) صحابي ، كان في الجاهلية من أشرف قومه. وفد على قيصر ، وناقر عامر بن الطفيل ، ثم أسلم . ينظر ابن حجر، الإصابة 2 / 1288 والبغدادي ، خزنة الأدب 3 / 492 .

³ (أبو تمام ، الديوان 2 / 388 .

طامِنُ حَشَاكَ أبا الحُبَابِ فَإِنَّهَا نُوبٌ تَرَوْحُ عَلَى الْأَنَامِ وَتَعْتَدِي
فَلَقَدْ أَفَاقَ مُتَمِّمٌ عَن مَالِكٍ وَسَلَا لَبِيدٌ قَبْلَهُ عَن أَرَبِدٍ (2)

وقد وظف أبو تمام هذه المواقف في رثائه حجة بن محمد الأزدي وأخاه قرم في تعزيتة لذويه بغرض التخفيف عنهم في مصابهم .

واستثمر أبو تمام قصة نصيب مع بناته (3) ووظفها في حديثه عن قصائده التي ستكسد إن

لم يتداركها الممدوح بالقبول ، فيقول :

وَلَوْ عَضَلْتَ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَطْهَارِهَا أَرَبُ
كَانَتْ بَنَاتُ نَصِيبٍ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَنِ الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلِ بِهَا الْعَرَبُ (4)

ويوظف مواقف لشعراء من عصور مختلفة في نص واحد ، ومن ذلك قوله :

أَمَوَاقِفَ الْفَتِيَانِ تَطْوِي لَمْ تَزُرْ شَرَفًا وَلَمْ تَنْدُبْ لَهُنَّ صَعِيدَا
أَذْكَرْتَنَا الْمَلِكَ الْمُضَلَّلَ فِي الْهَوَى وَالْأَعْشِيَيْنِ وَطَرْفَةَ وَكَبِيدَا
حَلَّوْا بِهَا عُقْدَ النَّسِيبِ وَنَمْنَمُوا مِنْ وَشِيهَا حُلًّا لَهَا وَقَصِيدَا (5)

لقد تذكر أبو تمام امرأ القيس وطرفة بن العبد من الشعراء الجاهليين ، والأعشيين ولبيد من الشعراء المخضرمين في وقوفه على الأطلال التي بكأها في أول القصيدة ، وكأنما كان يساوره أن يترك هذا

1 (مُتَمِّمٌ بن نويرة اليربوعي : (?) - 30 هـ) شاعر فحل، صحابي، من أشرف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام، وكان قصيراً أعور، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك . سكن المدينة في أيام عمر بن الخطاب وتزوج بها امرأة لم ترض أخلاقه لشدة حزنه على أخيه . ينظر ابن حجر ، الإصابة 3 / 1774 والأصفهاني ، الأغاني 15 / 303 .

2 (أبو تمام ، الديوان 62/4 - 63 .

3 (نصيب بن رباح . (?) - 108 هـ) مولى عبد العزيز بن مروان، مقدم في النسب والمدايح، كان عبداً أسوداً من سكان البادية ، له شهرة ذائعة . وكانت له بنات، من لونه، امتنع عن تزويجهن للموالي ولم يتزوجهن العرب، فقيل له: ما حال بناتك؟ فقال: صبيت عليهن من جلدي فكسدن علي! قال الثعالبي: وصرن مثلاً للبنات يرضن بها أبوها فلا يرضى من يخطبها ولا يرغب فيها من يرضاه لها . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1 / 398 والأصفهاني ، الأغاني 6 / 88 .

4 (أبو تمام ، الديوان 253/1 .

5 (أبو تمام ، الديوان 1 / 407 - 408 .

البكاء , ويقلع عن هذه السنّة , ولكنه لم يستجب لما خالجه , فبكاها , وتساءل بعد ذلك مندهشاً من هذا الذي خطر له , وهو الذي قد أبدع في وصفها والوقوف عندها إبداعاً ذكره بهؤلاء الشعراء الذين أشار إليهم , حيث زينوا بهذه الوقفات على الأطلال عقود نسيبهم , وحركت أشجانهم فأوحت لهم بالنسيب .

توظيف شخصيات الشعراء

ووظف أبو تمام شخصيات من تقدّمه من الشعراء, ومن ذلك قوله :

عَفُ الْإِزَارِ تَنَالُ جَارَةَ بَيْتِهِ أَرْفَادُهُ وَتَجَنَّبُ الْأَرْفَاقَا
عَمْرُو بْنُ كَلْثُومِ بْنِ مَالِكِ الَّذِي تَرَكَ الْعِلَا لِبَنِي أَبِيهِ تُرَاثَا
أَلْقَى عَلَيْهِ نَجَارَةَ فَآتَى بِهِ يَقْظَانَ لَا وَرَعًا وَلَا مُنْتَاثَا (1).

ويعدّ أبو تمام مآثر ممدوحه مالك بن طوق مستلهما شخصية عمرو بن كلثوم الذي يعد أسطورة في القوة والبأس والنبيل قائل المعلقة الماثورة في الفخر , ليدلّل على شرف هذا الممدوح وعراقة نسبه وشجاعته الذين ورثهم عن جده عمرو بن كلثوم فلا يجبن ولا يبطئ , فعمرو بن كلثوم هنا رمز إلى المعالي وخلودها , وهذه القيم مستفادة من واقع العربي المتخايل عادة بنسبه وشجاعته .

ويوظف أبو تمام زهير بن أبي سلمى , وممدوحه هرم بن سنان في عتابه لمحمد بن سعيد

كاتب الحسن بن سهل , إذ يقول :

لَمْ تُسْقَ بَعْدَ الْهَوَى مَاءً عَلَى ظَمَأٍ كَمَاءٍ قَافِيَةٍ يَسْقِيهَا فَهْمٌ
مِنْ كُلِّ بَيْتٍ يَكَادُ الْمَيِّتُ يَفْهَمُهُ حُسْنًا وَيَحْسُدُهُ الْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
مَالِي وَمَالِكَ شِبْهَ حِينَ أَنْشَدُهُ إِلَّا زُهَيْرٌ وَقَدْ أَصْغَى لَهُ هَرَمٌ (1).

(1) نفسه 1/ 318- 319 .

ليقيم شيئاً في علاقته بهذا الممدوح مع علاقة زهير بن أبي سلمى بهرم بن سنان، فهو يريد من خلال هذا التشبيه أن ينبه إلى أنه رائد مذهب فني جديد مثلما كان زهير صاحب منهج في حولياته، يستحق اهتمام الممدوح، ويستكثر عطاء ممدوحه ليكون جزلاً مثل عطاء هرم بن سنان لزهير .

كما يوظف أبو تمام زهير بن أبي سلمى في المدح، فإنه يوظفه في الهجاء، ومن ذلك قوله هاجياً أحد أدعياء الشعر :

وَمَا لَكَ بِالْغَرِيبِ يَدٌ وَلَكِنْ تَعَاطَيْكَ الْغَرِيبَ هُوَ الْغَرِيبُ
فَلَوْ نَبَشَ الْمُقَابِرُ عَنْ زُهَيْرٍ نَصَرَحَ بِالْعَوِيلِ وَبِالْأَنْحِيبِ
مَتَى كَانَتْ قَوَافِيهِ عِيَالاً عَلَى تَفْسِيرِ بُقْرَاطِ الطَّبِيبِ (٢).

ويتواصل مع شخصية الحطيئة في قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي، ويستبطنه لتأخره عنه بإرسال ما كان يأمله، حيث يقول :

لَمْ آتِهَا مِنْ أَيِّ وَجْهِ جِئْتُهَا إِلَّا حَسِبْتُ بُيُوتَهَا أَجْدَاثَا
بَلَدُ الْفَلَاحَةِ لَوْ أَتَاهَا جَرُولٌ أَعْنِي الْحُطَيْئَةَ لِأَعْتَدِي حَرَاثَا
تَصَدَّا بِهَا الْأَفْهَامُ بَعْدَ صِقَالِهَا وَتَرَدُّ ذُكْرَانِ الْعُقُولِ إِنَاثَا (٣)

ففي هذه الأبيات يستعطف أبو تمام الممدوح من خلال إشارته إلى ضيق مجالات الحياة في قريته، وقلة أهل الفضل فيها، حتى إن شاعراً كبيراً مثل الحطيئة لو ولد فيها لما وجد مجالاً لتحقيق عبقريته وشاعريته إلا العمل بالفلاحة. وبخاصة أن من فيها لا يفهم الشعر، فلا تشجيع على الإبداع فيها، فالعقول القوية الجبارة تتحول إلى ضعيفة عاجزة، لأنها تمتنع عن ممارسة ما

(١) أبو تمام، الديوان، 4 / 490 .

(٢) نفسه، 4 / 315 .

(٣) نفسه، 1 / 322 .

تستطيعه , فتوجّه إلى ممارسات صغيرة لا تلبث أن تصغر معها وتضعف , مما دفع أبا تمام إلى الاغتراب , ممّا بيّن أثر المكان والبيئة والثّقافة في شخصيّة الإنسان .

وفي مجال الفخر بشعره يستحضر جريرا , حيث يقول :

وَبَقِيْتُ لَوْلَا أَنَّنِي فِي طَيِّئٍ عَلمَ لَقَالَ النَّاسُ أَنْتَ جَرِيرٌ (1)

فهو يشبّه نفسه بجرير الذي عُقد له لواء السّيق في الشعر في العصر الأمويّ .

ويتواصل مع الفرزدق والأخطل في خاتمة قصيدته التي مدح بها أحمد بن أبي دؤاد

الإياديّ , فيقول :

إِنْ يَعْجَبِ الْأَقْوَامُ أَنِّي عِنْدَكُمْ مِنْ دُونَ ذِي رَحِمٍ بِهَا مُتَوَصِّلٌ

فَبَنُو أُمَيَّةِ الْفَرَزْدَقِ صَنُوهُمْ نَسَبًا وَكَانَ وِدَادُهُمْ فِي الْأَخْطَلِ (2)

ويعجب بعض الشعراء من مكانة أبي تمام لدى الممدوح رغم أنه من طيء وممدوحه من إياد , فيبيّن لهم أنّ هذا الأمر لا غرابة فيه , فبنو أمية كانوا يقربون الأخطل وهو من ربيعة , وتركوا الفرزدق وهو مضريّ مثلهم .

ومن عادة أبي تمام في نهاية أغلب قصائده إطراء شعره والإشادة به , ومن ذلك قوله في

مدحة له :

خُذْهَا فَمَا نَالَهَا بِنَقْصٍ مَوْتُ جَرِيرٍ وَلَا الْبَعِيثِ

وَكُنْ كَرِيمًا تَجِدُ كَرِيمًا فِي مَدْحِهِ يَا أبا الْمُغِيثِ (3)

(1) أبو تمام , الديوان 4 / 360 .

(2) نفسه 3 / 51 - 52 .

(3) أبو تمام , الديوان 1 / 328 .

فهو ذكر كلاً من جرير والبعيث (1)، ليبين لمدوحة أنّ منزلته لا تقل عن منزلة هذين الشاعرين
الكبيرين في الشعر، ويستحقّ العطاء الجزيل عليها.

ويوظف عروة بن حزام (2) والمرقش الأكبر، ليرفع من شأن شعره، ويحطّ من شأن
شاعريّة غريمه:

بُدِّلتَ بَعْدَ تَأْنُسٍ بِتَوْحُشٍ وَأَعْرَتَ سَمْعَكَ مَنْ يُبْلَغُ أَوْ يَشِي
وَزَعَمْتَ أَنِّي ذَاهِلٌ فَمَنْ الَّذِي يُدْعَى خَلِيفَةَ عُرْوَةَ وَمُرْقَشٍ (3)

ويوظف كثيراً في مدحه لأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري، حيث يقول:

لَوْ يُفَاجَا رُكْنُ النَّسِيبِ كَثِيرٌ بِمَعَانِيهِ خَالِهِنَّ نَسِيباً (4)

ولقد عرف أبو تمام بنزعه العقليّة، فهو يسعى دوماً للعثور على أحوال التّوحد والتّوافق عبر
التّفارق والتّفروق، حيث يعثر على صلة بين فن المدح والنّسب، فيجعل المديح والغزل باباً واحداً
في أبي سعيد الثغري، ذلك أنّ مدحه يجدي لذّة ولا يكون عنثاً وتكلّفاً، فهو حين يمدحه يغتبط
ويلتذّ، وكأنه ينظم غزلاً. ويمضي في استنفاذ أحوال المعنى، فيقول لو أنّ كثيراً وقع على هذا
المدح لخاله غزلاً، لا مدحاً.

وهكذا راح أبو تمام يصول ويجول بين الأخبار القديمة ويقلب الدّواوين، ولم يستأثر بجيل
معين، ولا عصر محدّد بل امتدّت جولته إلى كلّ العصور الأدبيّة السّابقة له، والمدارس الشعريّة

(1) البعيث المجاشعي (? - 134 هـ) خدّاش بن بشر بن خالد، أبو زيد التميمي. خطيب، شاعر، من
أهل البصرة. وكانت بينه وبين جرير مهاجاة دامت نحو أربعين سنة. ينظر خزانة الأدب، البغدادي 1 /
310 وابن قتيبة، الشعر والشعراء 1 / 488.

(2) عروة بن حزام بن مهاجر الضني، من بني عذرة (? - 30 هـ) شاعر من متّمي العرب، كان
يحب ابنة عم له اسمها (عفراء) فخطبها، فطلبت أمها مهراً لا قدرة له عليه فرحل إلى عم له في اليمن،
وعاد فإذا هي قد تزوجت. ينظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء 2 / 607 والأصفهاني، الأغاني 4 /
174

(3) أبو تمام، الديوان 4 / 382.

(4) نفسه 1 / 161.

المختلفة ينهل من أخبارها ويتحاور مع شعرائها وأدبائها . فأفاد منهم فنّه وأثراه وبخاصّة حين مزجه بفكر عصره وثقافته الجديدة .

أشخاص ضربت بهم الأمثال بصفات معيّنة

يتواصل أبو تمام مع أشخاص عرفوا بسمات معيّنة ضربت فيهم الأمثال أو اشتهروا بقصص معيّنة ومن ذلك ، تشبيهه بمدوحه الحسن بن وهب بمجموعة من رجال الشعر والأدب ، فيقول :

وَإِذَا الرَّجَالُ تَسَاجَلُوا فِي مَشْهَدٍ فَمَرِيحُ رَأْيٍ مِنْهُمْ أَوْ مُعْزِبُ
وَإِذَا رَأَيْتَكَ وَالْكَلامُ لَأَلِيٌّ تَوْمٌ فَبِكْرٌ فِي النِّظامِ وَثَيِّبُ
فَكَانَ قَسًّا (1) فِي عَكاظٍ يَخْطُبُ وَكَانَ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ (2) تَنْدُبُ
وَكَثِيرَ عَزَّةَ يَوْمَ بَيْنِ يَنْسُبُ وَابْنَ الْمُقَفَّعِ فِي الْيَتِيمَةِ يُسْهَبُ (3)

فمدوح أبي تمام يتميّز بالفصاحة والبلاغة والحكمة والزهد ، فإذا ما اختلف الرجال بالرأي ، فإنه يأتي بالرأي المصيب المؤثر بالنفس ، فإذا تكلم ظننته قسّ بن ساعدة ، الذي كان يُحکم له بالسبق في خطابته ، فيقال "أبلغ من قسّ" (4) ، وليلَى الأخيلىة التي كان يحکم لها توبة بن الحمير السابق في مراتبها ، وكثير عزة الذي يحرز السابق في النسب ، وابن المقفّع في كتابه اليتيمة المنقطع النظير .

ويوظّف في مدحه أحمد بن أبي دؤاد الإيادي قسّ بن ساعدة ، فيقول :

(1) قس بن ساعدة (? - 23 ق. هـ / ? - 600 م) . خطيب العرب وشاعرها وحكيمها في عصره ، كان أسقف نجران يقال أنه أول من علا على شرفٍ وخطب عليه ، وأول من قال : أما بعد ، وكان مؤمناً بالله والبعث . ينظر الميداني ، مجمع الأمثال 1 / 169 .
(2) ليلَى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب الأخيلىة (? - 80 هـ / ? - 700 م) من بني عامر بن صعصعة . شاعرة فصيحة ذكية جميلة . اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير . وطبقها في الشعر تلي طبقة النساء . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1 / 439 والبكري ، سمط اللآلي 119 / .
(3) أبو تمام ، الديوان 1 / 134 .
(4) الميداني ، مجمع الأمثال 1 / 169 .

وَأَجَلَ مِنْ قُسٍّ إِذَا اسْتَنْطَقَتْهُ رَأْيًا وَأَنْطَفَ فِي الْأُمُورِ وَأَجْزَلَ (1)

فأبو تمام يمدح هذا الممدوح بعدة صفات منها الفصاحة ، والبلاغة ، والرأي السديد ، وحسن الإدارة ، حتى إنه جعله يتفوق على قس بن ساعدة في هذه الأمور .

ويوظف أيضاً سحبان بن وائل (2) وبقلاً (3) في مدحة ، فيقول :

جَازُوا خَلْقَ قَدِ تَيَقَّنَتِ الْعُلَى كُلَّ التَّيَقِّنِ أَنَّهُنَّ نَجُومُهَا

لَوْ أَنَّ بَاقِلًا الْمُفَهِّهَ يَنْبَرِي فِي مَدْحِهَا سَهَلَتْ عَلَيْهِ حُزُومُهَا

وَلَوْ أَنَّ سَحْبَانَ الْمُفَوَّهَ يَنْتَحِي فِي ذَمِّهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَذِمُّهَا (4)

فهو حين يمدح عدداً من الشخصيات التي تحتل مكاناً مرموقاً ، يعدد مآثرهم التي يعجز سحبان بن وائل المشهور بالفصاحة والبلاغة عن الإحاطة بها ، كما أنها تتطرق باقلاً المشهور بالعي فيعددها .

ويوظف مجموعة من الأشخاص ضربت فيهم الأمثال في مجالات مختلفة ، وذلك في قوله :

قُلْ لَابِنِ طَوْقٍ رَحَى سَعْدٍ إِذَا خَبَطَتْ نَوَائِبُ الدَّهْرِ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلَهَا

أَصْبَحَتْ حَاتِمَهَا جُودًا وَأَحْنَفَهَا حِلْمًا وَكَيْسَهَا عِلْمًا وَدَغْفَلَهَا (5)

فالممدوح كما يرى أبو تمام عماد قومه ، وعظيم الشأن فيهم فهو يحتل منزلة ككل من زيد بن

الكيس النمري ودغفل الذهلي الشيباني عالمي العرب بالأنساب حتى قيل عنهما في الأمثال "أفصح

من العُضين" (6) ، والأحنف بن قيس سيّد تميم الذي ضرب به المثل بالحلم ، فيقال "أحلم من

الأحنف" (1) . وحاتم الطائي الذي ضرب به المثل في الجود والكرم . فيقال "أجود من حاتم" (2) .

1 (أبو تمام ، الديوان 3 / 49 .

2 (سحبان بن وائل : قيل في الأمثال "أنطق من سحبان" ينظر مجمع الأمثال 3 / 348

3 (باقل : هو رجل من ربيعة ، بلغ من عيه أنه اشترى ظيباً بأحد عشر درهماً ، فمر بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي؟ فمد يده ودلع لسانه يريد أحد عشر ، فشرذ الظبي وكان تحت إبطه . فقيل : "أعيا من

باقل" ينظر مجمع الأمثال 2 / 320 .

4 (أبو تمام ، الديوان 3 / 274 - 275 .

5 (نفسه 3 / 47 .

6 (الميداني ، مجمع الأمثال 2 / 388 .

وفي وصف رحلة له إلى ممدوحه ، فإنه يوظف حلم الأحنف بن قيس مرة أخرى ، فيقول :

أَمَّتَكَ وَالشَّيْطَانُ يَرْهَبُ ظَلْمًا فَآتَتْكَ وَهِيَ تَفُوقُ حِلْمَ الْأَحْنَفِ (3)

إذ يصف السفينة التي أقلته إلى ممدوحه ، فهي عظيمة وسريعة المرور ، فإذا ما هبت الريح ، فإنها تضطرب حتى يرهب ظلها الشيطان ، فإذا ما سكنت الريح ، وتعقبت الصبا ، جرت السفينة معها بلين ورفق يفوقان حلم الأحنف .

وحيثما يشيد بشاعرية صديقه الشاعر علي بن الجهم ، فإنه يبالغ في الإطراء على شاعريته ، فيجعله يفوق خالد بن صفوان بلاغة وفصاحة ، حتى إن السامع يخال أن خالدًا تعلم منه بلاغته وفصاحته ، فيقول :

أَوْ قَدَّمْتَكَ السِّنُّ خَلْتُ بِأَنَّهُ مِنْ لَفْظِكَ اشْتُقَّتْ بِلَاغَةُ خَالِدٍ (4)

وعندما يمدح أحمد بن المعتصم ، فإنه يتواصل مع كل من عمرو بن معدي كرب والقاضي إياس بن معاوية وحاتم الطائي ، فيقول :

إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفٍ فِي ذُكَاةِ إِيَّاسٍ (5)

فهو يصف ممدوحه بالشجاعة والذكاء والحلم والسماحة ، فهو في شجاعته مساوٍ لعمر بن معدي كرب (6) ، وفي سماحته مساوٍ لحاتم الطائي ، وفي حلمه مساوٍ للأحنف بن قيس ، وفي ذكائه مساوٍ

للقاضي إياس بن معاوية ، حيث يقال "أزكى من إياس" (1).

1 (الأحنف بن قيس اسمه صخر، وكنيته: أبو بحر من بني تميم الميداني ، مجمع الأمثال 1 / 337 .

والزمخشري ، المستقصى من أمثال العرب 1 / 273 .

2 (الميداني ، مجمع الأمثال 1 / 282 .

3 (أبو تمام ، الديوان 2 / 398 .

4 (نفسه 1 / 403 .

5 (نفسه 2 / 249 .

6 (عمرو بن معدي كرب الزبيدي (ق. هـ - 21 هـ / 547 - 642 م) . فارس اليمن ، شهد اليرموك ، وذهبت فيها إحدى عينيه ، وشهد القادسية . وكان عصي النفس ، أبيها ، فيه قسوة الجاهلية ، وأخبار شجاعته كثيرة وعرف بسيفه الصمصامة . ينظر ابن حجر ، الإصابة 2 / 1360 ، والبغدادي ، خزائن الأدب 3 / 467 .

ويوظف من علماء اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي , ليعرض بغباء مهجوه عيَّاش بن لهيعة

فيقول :

فَلَوْ نَشَرَ الْخَلِيلُ لَهُ لَعَفْتُ رَزَايَاهُ عَلَى فِطْنِ الْخَلِيلِ (2)

ويوظف مسيلمة الكذاب في هجائه موسى بن إبراهيم الراقبي , فيقول :

نَبَذُوا بِكَذَابٍ مُسَيْلَمَةَ فَقَدْ وَهَمُوا وَجَارُوا بِلِأَنَا الْكَذَّابُ
هَتَّكَتُ دِينِي فَاسْتَتَرْتُ بِتَوْبَةٍ فَأَنَا الْمُقَرُّ بِذَنْبِهِ التَّوَابُ (3)

فيشير أبو تمام إلى مسيلمة الكذاب (4) , ليبين ندمه على مدح موسى , فهو يؤنب نفسه حتى إنه يستحق أن يلقب بلقب دون الكذاب , وأن ينبذ أكثر مما نبذ مسيلمة , فمدحه له بمثابة هتكه لستر الدين.

وحينما دحر جيش المعتصم بابك الخرمي , واضطرَّ إلى الفرار استوحى قصة أبي سمَّال الأسديَّ المشهور بقسمه حينما ضلت ناقته , حيث قال : " أيمنك إن لم تردّها عليّ لا عبدتك " فوجدها وقد نشب حبلها في شجرة , فقال : " علم ربي أنّها مني إصري ! " (5) , فيقول :

وَكَذَاكَ مَا تَنْجَرُ أَذْيَالُ الْوَعْيِ إِلَّا غَدَاةَ تَشْمُرُ الْأَذْيَالِ
لَمَّا رَأَاهُمْ بِابِكِّ دُونَ الْمُنَى هَجَرَ الْغَوَايَةَ بَعْدَ طَوْلٍ وَصَالِ
تَخَذَ الْفِرَارَ أَخَا وَأَيْقَنَ أَنَّهُ صَرِيٌّ عَزَمَ مِنْ أَبِي سَمَّالٍ (6)

1 (وهو إياس بن معاوية بن قرّة المزني , كان قاضياً فائقاً زكناً , تولى قضاء البصرة سنة لعمر بن عبد العزيز الميداني , مجمع الأمثال 2 / 82 .

2 (أبو تمام , الديوان 4 / 416 .

3 (نفسه 4 / 312 .

4 (يقال "أكذب من مسيلمة " الميداني , مجمع الأمثال 3 / 65 .

5 (أبو تمام , الديوان 3 / 136 و"إنها مني لصري "يقوله الرّجل يعزم على الأمر عزيمة مؤكدة لا يتنبه عنها شيء الميداني , مجمع الأمثال 1 / 84 .

6 (أبوتمام, الديوان 3 / 136.

فوظّف أبو تمام هذه القصّة , ليشبّه عزم بابك الخرميّ حينما لم يستطع مواجهة جيش المعتصم وعانده , واضطرّ إلى الفرار وأصر عليه , بأنّه دون عزم أبي سمّال وأنّ الذي حدث له من فعله الذي أصرّ عليه .

ويوظّف عمرو الزاهد ليعرّض بشخصين أفاكين , حظيا بمنزلة عالية عند ممدوحه محمّد ابن يوسف , فيقول :

شَخْصَانِ أَفَاكَانِ قَبْلَهُمَا الْخَنَا حَلًّا لَدَيْكَ مَحَلَّ عَمْرٍو الزَّاهِدِ (1)

فتوظيفه شخصيّة عمرو الزاهد هدفه الحطّ من منزلة هذين الشّخصين اللّذين احتلا منزلة مرموقة لا يستحقّانها عند الممدوح , وتشبيهه نفسه به ليسترعي انتباه الممدوح إلى أنّه أحقّ بهذه المنزلة منهما . ومن الزّهاد أيضا يوظف أويس القرنيّ (2) الذي لم يكن يلبس إلا الخشن الدّون , وذلك في قوله :

مِنْ شُنْعِ الْخَلْعَةِ الْغَرِيبَةِ إِنَّ الْمَجْدَ مَجْدُ الرِّيشِ فِي شُنْعِهِ
لَوْ أَنَّهَا جَلَّتْ أَوْيسًا لَقَدْ أَسْرَعَتِ الْكِبْرِيَاءُ فِي وَرَعِهِ (3)

فيصف أبو تمام جمال الخلعة التي أهداها إليه ممدوحه , فلو لبسها أويساً وهو من هو في الزّهد , لتداخله الكبر ولترك زهده .

أما البراض (1) الذي اشتهر بين النّاس بفتكه , حتّى قيل : "أفتك من البراض " (2) , فقد وظيفه أبو تمام في مدح أحمد بن أبي دؤاد , فيقول :

(1) أبو تمام , الديوان 151 / 2 .
(2) أويس القرني (؟- 37 هـ) أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، من بني قرن بن ردمان بن ناجية ابن مراد: أحد النساك العباد المقدمين، من سادات التابعين. ينظر الجرجاني , الكامل في ضعفاء الرجال 1 / 412 .
(3) أبو تمام , الديوان 2 / 346.

صَلَّتَانِ أَعَادُوهُ حَيْثُ حَلَّوَا فِي حَدِيثٍ مِنْ عَزْمِهِ مُسْتَفَاضٍ
كُلُّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ اللَّيَالِي فَتَكَةٌ مِثْلُ فَتَكَةِ الْبَرَّاضِ (3)

فقد ذكر أبو تمام البراض ليضرب مثلاً على صولة ممدوحه على صروف الزمان وفتكه بها .

ووظف أيضاً أشهر دليلين وهما الدُعَمِيص (4) ورافع (5) في قوله :

يُجَاوِزُ الْخَفْضَ وَأَفْيَاءَهُ إِلَى السَّرَى وَالسَّفَرِ الشَّاسِعِ
أَدْلُ بِالْفَقْرِ وَأَهْدَى لَهُ مِنْ الدُّعَمِيصِ وَمِنْ رَافِعٍ (6)

وحين يمدح أبو تمام نوح بن عمرو ، فإنه يشير إلى هدايته ، وإلى معرفته بالصحراء معرفة تفوق معرفة أشهر دليلين عرفتهما العرب وهما الدُعَمِيص حيث يقال "أدل من دُعَمِيص الرَّمَل" (7) .

توظيف الأمثال في شعر أبي تمام

تعدّ الأمثال ، لونا من ألوان الأدب ، وفناً من فنونه الرائعة في حسن التصوير ، وبلاغة التأثير ، وإيجاز التعبير ، وصدق الحديث عن الأحداث ، ودقة الرّسم لما يجري على مسرح الحياة في العصور المختلفة (8) .

وهي بمثابة تخطيط بياني لفن القول الموجز الذي يهدف إلى سرعة التذكير ، وعمق التفكير ، دون زلزلة أو خلخلة أو اضطراب . وقد أصبحت الأمثال وسيلة من وسائل القياس بين المعاني

(1) البراض بن قيس الكنانى قتل عروة الرجال في غير حب فجر ذلك حرب الفجار التي كانت بين قيس وكنانة وشهدتها قريش ورئيسها حرب بن أمية ، ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم - حضرها وهو ابن عشرين سنة ينظر أبو تمام ، الديوان 2 / 312 و الميداني ، مجمع الأمثال 2 / 385 .

(2) الميداني ، مجمع الأمثال 2 / 385 .

(3) أبو تمام ، الديوان 2 / 311 - 312 .

(4) الدُعَمِيص الملقب بدعَمُوص الرَّمَل هو عبد أسود داهية من الأدلاء ، وما كان يدخل بادية وبار غيره . ينظر ابن الأثير ، البداية والنهاية 2 / 419 .

(5) رافع : هو رافع بن عميرة بن جابر دليل خالد بن الوليد من العراق إلى الشام على السماوة . ينظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب / 402 .

(6) أبو تمام ، الديوان 2 / 356 .

(7) الميداني ، مجمع الأمثال 1 / 416 .

(8) ينظر خفاجي ، محمد عبد المنعم ، دراسات في النقد الأدبي / 119 .

, ومصدراً من مصادر الرّبط بين الماضي والحاضر, تصل بين الأشباه والنظائر في مختلف الأزمنة , ولهذا يلجأ إليها الأدباء والشعراء فيستمدون من أضوائها , وينسجون على منوالها, ويزيّنون بها آدابهم وأشعارهم , ويشعلون مصابيحها كي تضيء أمامهم معالم الطريق . والأمثال المنقولة عن العرب لون فريد من ألوان الأدب عرفته العربيّة مذ كانت , وألفه بنوها مذ دخلوا أبواب الحياة . والدّارس لتلك الأمثال يحسّ أنّها صور شاعرة رسمت معالم واضحة لكثير من الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة الموروثة (1).

ويستوحي أبو تمام أمثالاً عربيّة قديمة , وحكماً مأثورة , ويربطها بالنص , ويحكم لحمتها بهدف تعضيد الفكرة ومؤازرتها , ومن ذلك إيراده المثل القائل : "ويل الشّجي من الخلي" (2) حيث يقول :

أيا وَيْلَ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ وَبِأَلِي الرَّبِّعِ مِنْ إِحْدَى بَلِيٍّ (3)

وهو يوظّف هذا المثل في وقفة ظلّية , مبينا اللوم والتعنيف اللذين يتعرض لهما بسبب حزنه على فراق محبوبته وشوقه إليها , ليدلل على أن هؤلاء اللوام لا يشعرون بحاله , فمن لا يعاني لا يشعر بحال من يعاني .

ويوظّف أيضاً المثل المشهور : " اتسع الخرق على الرّاقع" (4) وذلك في هجائه عبد الله

الكاتب , فيقول :

يَا عَمْرُو قُلْ لِقَمَرِ الطَّالِعِ اتَّسَعَ الْخَرَقُ عَلَى الرَّاقِعِ
يَا فِتْنَةَ النَّاطِرِ قَدْ صِرْتَ فِي فَعَلِكِ هَذَا فِتْنَةَ السَّامِعِ
مَا كَانَ فِي الْمَخْدَعِ مِنْ أَمْرِكُمْ فَإِنَّهُ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ (1)

(1) ينظر خفاجي , محمد عبد المنعم , دراسات في النقد الأدبي / 119 - 122 .

(2) الميداني , مجمع الأمثال 3 / 363 .

(3) أبو تمام , الديوان 3 / 351 .

(4) الزمخشري , المستقصى من أمثال العرب 1 / 35 .

حيث يستعين أبو تمام بهذا المثل , ليبين أعمال المهجور المشينة التي ذاعت وانتشرت في كل مكان حتى في الجوامع , فلم يعد أمامه مجال كي يسترها أو يبررها .

وحيثما يصف إيقاع ممدوحه محمد بن يوسف بالخرمية , فإنه يستثمر المثل القائل : " آخر

البز على القعود" (2) في قوله :

وَهَرَجَامًا بَطَشْتَ بِهِ فُقُنَّا خِيَارُ الْبِزِّ كَانَ عَلَى الْقَعُودِ (3)

وهذا المثل ضربه لفساد أحوال بابك الخرمي , فأراد أن هرجاماً كان أشرف من بابك , فبطش به الممدوح , فانقطعت بقتله مادة الأعداء , فضربه مثلاً لخيار البز.

واستوحى المثل القائل "كالمستغيث من الرمضاء بالنار" (4) , في قوله متغزلاً :

بِعَقْلِي هَذَا صِرْتُ أُحْدُوثةَ الرَّكْبِ وَقَدْ كُنْتُ فِي سَلْمٍ فَأَصْبَحْتُ فِي حَرْبٍ

لَعَمْرُو مَعَ الرَّمْضَاءِ وَالنَّارُ تَلْتَنِظِي أَرْقُ وَأَحْفَى مِنْكَ فِي سَاعَةِ الْكَرْبِ (5)

فأبو تمام أورد هذا المثل , ليدلل على قسوة محبوه عليه .

كما وظّف المثل القائل " أنج سعد فقد هلك سعيد " (6) في قوله مادحا نصر بن منصور ابن

بسام (7) :

بِسَيْبِ أَبِي الْعَبَّاسِ بَدَّلَ أَرْؤْنَا بِخَفْضِ وَصِرْنَا بَعْدَ جَزْرِ إِلَى مَدِّ

غَنِبْتُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ وَحَوَّلْتُ عَجَافَ رِكَابِي عَن سَعِيدٍ إِلَى سَعْدِ (8)

(1) أبو تمام , الديوان 4 / 386 .

(2) الميداني , مجمع الأمثال 1 / 120 .

(3) أبو تمام , الديوان 2 / 40 .

(4) الميداني , مجمع الأمثال 3 / 30 .

(5) أبو تمام , الديوان 4 / 170 .

(6) الميداني , مجمع الأمثال 3 / 322 .

(7) نصر بن منصور بن بسام قدم دمشق وكان المعتصم بها وكان الفضل بن مروان وزير المعتصم

يتخوفه أن يلي وزارة المعتصم ينظر ابن عساكر , تاريخ مدينة دمشق - 62 / 49 .

(8) أبو تمام , الديوان 2 / 64-65 .

حيث استثمر هذا المثل ليشير إلى تبدل حاله عند هذا الممدوح , إذ تحول بعد هلكة إلى نجاة , مما جعله يترك مدح سواه منصرفاً إلى مدحه .

وسعيد هنا رمز للهلاك والموت وسعد رمز للخير والعطاء , والأمثال على هذه الصورة تعكس الانفعالات النفسية لقائلها ورؤيته الفنية , وهو هنا أحدث في المثل تحويراً يتلاءم مع موقفه النفسي الشعوري مستغلاً التضاد بين سعيد وسعيد فيما يرمزان إليه .

كما يستوحي المثل القائل : " طارت به عنقاء مغرب " (1) , وعنقاء مغرب طائر خرافي ضخم , يضرب به المثل في الإغراب والبعد , وذلك في مدح الحسن بن وهب الذي أهدى إليه غلاماً , حيث يقول :

حَمْدٌ حُبَيْتَ بِهِ وَأَجْرٌ حَقَّقْتَ مِنْ دُونِهِ عَنقَاءُ لَيْلٍ مُغْرِبٌ (2)

ويقول أبو تمام إن هذا الغلام جلب إليك الحمد والشكر , لما أهديته إليّ , ولكن ليس لك في إهدائه أجر , لأنك أهديته إليّ لأسومه الحرام , فكأن أجره طارت به عنقاء مغرب .

وفي مدح أبي تمام المعتصم , يذكر فتح الخرمية ويشيد بالمعتصم , يوظف المثل القائل : " آخر الدواء الكي " أو " لكل داء دواء " (3) :

فَرَمَاهُ بِالْأَفْشِينِ بِالنَّجْمِ الَّذِي صَدَعَ الدُّجَى صَدَعَ الرِّدَاءِ الْبَالِي

لِقَاهُ بِالْكَأْوِي الْعَنيفِ بِدَائِهِ لَمَّا رَأَهُ لَمْ يُفِقْ بِالطَّالِي (4)

فقد استمدّ أبو تمام هذه الصورة من البيئة , فالمصاب بالجرب يداوى بالطلاء والمرهم , فإن لم يجد ذلك , فإنه يداوى بآخر الدواء وهو الكي - كما ورد في المثل - , والأفشين (1) كان عامل الكي أي الدواء الذي قضى على بابك الذي كان بمثابة المرض بالنسبة للدولة العباسية .

(1) الزمخشري , المستقصى من أمثال العرب 2 / 150 والميداني , مجمع الأمثال 2 / 233 .

(2) أبو تمام , الديوان 1 / 136 .

(3) الميداني , مجمع الأمثال 3 / 197 .

(4) أبو تمام , الديوان 3 / 134 - 135 .

ويوظّف المثل القائل: "أجور من قاضي سدوم" (2) - وهذا المثل ضرب في قاضٍ من

سدوم اشتهر بظلمه - , وذلك حين يصف سوء مطلبه في نيسابور , فيشكو الدهر :

فَإِنْ أَكُ قَد حَلَلْتُ بِدَارِ هَوْنٍ صَبَوْتُ بِهَا فَقَدْ يَصْبُو الْحَلِيمُ

أَلْوَمُكَ لَا أَلْوَمُ سِوَاكَ دَهْرًا قَضَى لِي بِالَّذِي يَقْضِي سَدُومُ (3)

يعدّ أبو تمام نفسه بأنه صبا, لأنه ترك وطنه وذهب إلى نيسابور, فيلوم الدهر الذي اضطرّه أن

يذهب إلى نيسابور , حيث كان حكمه جائراً كحكم قاضي سدوم .

وفي قصيدة فتح عمورية يتواصل أبو تمام مع المثل القائل " أعدى من الجرب " (4) , وذلك

في قوله :

لَمَّا رَأَتْ أُخْتَهَا بِالْأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ كَانَ الْخَرَابُ لَهَا أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ (5)

فوظّف هذا المثل , ليدلّل على أنّ فتح المعتصم لمدينة أنقرة كان سبباً في فتحه مدينة

عمورية , إذ إن فتحه لها كان بمثابة العدو السريعة .

ويوظّف المثل " منك أنفك وإن كان أجدع " (6) , وهذا المثل يضرب لمن يلزمك خيره

وشره , حيث يقول :

لَهُ مَنْظَرٌ فِي الْعَيْنِ أبيضُ ناصِعٌ وَلكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أسودٌ أسْفَعُ

1 (الأفشين : أمير فارسي اسمه خيذر بن كاوس , أصبح قائداً مشهوراً في خلافة المعتصم , حيث تولى قيادة الحملة العسكرية ضد فتنة الخرمية , وكان له دور فعال في حملة المعتصم على عمورية سنة 223 هـ , ولكن الأفشين لم يلبث أن حرض مازيار على العصيان في طبرستان حقداً على نفوذ عبد الله بن طاهر هناك , وبعد قمع عصيان مازيار اتهم الأفشين باشتراكه معه في الفتنة , وعقدت له محاكمة تاريخية مشهورة حبس بعدها في سامراء حتى أمر المعتصم بقطع قوته فمات جوعاً سنة 226 هـ ينظر الطبري , تاريخ الطبري - تاريخ الأمم والملوك - 5 / 210 - 268 والأتابكي , النجوم الزاهرة 2 / 240 .

2 (الميداني , مجمع الأمثال 1 / 293 .

3 (أبو تمام , الديوان 4 / 538 .

4 (الميداني , مجمع الأمثال 2 / 324 .

5 (أبو تمام , الديوان 1 / 52 .

6 (الميداني , مجمع الأمثال 3 / 259 .

وَنَحْنُ نُزَجِّيهِ عَلَى الْكُرْهِ وَالرِّضَا وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهُوَ أَجْدَعُ (1)

ووظف أبو تمام المثل السابق عند وصفه الشيب , حيث يقول: إنا راضون به , لأنه لا بد منه وإن

كنا نبغضه , مثل الأنف الأجدع , يعلم الفتى أنه من وجهه ولا حيلة له إلا الرضا به .

ويوظف المثل القائل "قد يقدم العير من دعر على الأسد" (2), ذلك أن العير إذا شم رائحة

الأسد وثب عليه فرعاً , وقد جاء بهذا المثل حين هجا أحد الشعراء :

لَا تَنْتَسِبُ قَدْ حَوَيْتَ الْفَخْرَ مُجْتَمِعاً وَالذِّكْرَ إِذْ صِرْتَ مَنْسُوباً إِلَى حَسَدِي

أَطَلْتَ رَوْعَكَ حَتَّى صِرْتَ لِي غَرَضاً قَدْ يُقَدِّمُ الْعَيْرُ مِنْ دُعْرِ عَلَى الْأَسَدِ (3)

إن هذا الشاعر كان يحسد أبا تمام ويهجوّه , ليحطّ من منزلته الشعريه , لشعوره أنه يتفوق عليه ,

فاستوحى أبو تمام هذا المثل ليشير إلى ضالة هذا الشاعر ورفعة شأنه , فالشاعر بمثابة العير بين

الشعراء وأبو تمام بمثابة الأسد .

وقد يكتفي أبو تمام أحياناً بالإشارة إلى المثل من خلال ذكر بعض ألفاظه الموحية به ومن

ذلك إشارته للمثل القائل "للبيدين والفم" (4) الذي يضرب عند الثماتة بسقوط إنسان , فقد أورد

بعضه وحرف بعضه , ولكن ما جاء به كان موحياً بالمثل كله , فيقول :

وَأَيَّامَ الْكُلَابِ غَدَاةَ هَرَّتْ مُرَارِيَيْنِ فِيهَا مُتْرَفَيْنِ

أَخٌ تَرَكَتْ أَسِنَّتَهُ أَخَاهُ تَلِيلاً لِلْجَبِينِ وَاللِّبْدَيْنِ (5)

لقد أورد هذا المثل في قصيدة يمدح بها إسحق بن إبراهيم , عندما وصف بطولته في حربه

التي أنست ما سبقها من وقعات , حتى إنها أنست الناس أيام الكلاب , وبخاصة التي كانت بين

1 (أبو تمام , الديوان 2 / 324 .

2 (الميداني , مجمع الأمثال 2 / 442 .

3 (أبو تمام , الديوان 4 / 351 .

4 (الزمخشري , المستقصى من أمثال العرب 2 / 293 والميداني مجمع الأمثال 3 / 122.

5 (أبو تمام , الديوان 3 / 302 .

شرحبيل وسلمة أولاد الحارث بن عمرو آكل المرار اللذين تنازعا على الملك بعد موت أبيهما ,
وجعل كل واحد في رأس أخيه مئة بعير , فلما جد القتال قتل أبو حنش التغلبي شرحبيل . (1)
أدى إلى شماتة أعدائهما بهما , فجاءت إشارة أبي تمام إلى هذا المثل , لبيان شماتة الأعداء بهذين
الأخوين .

وقد يوظف أحيانا أقوالاً تذهب مذاهب الأمثال (2) كـ " ضربة لازم (3) " , وذلك في
رثائه لهاشم بن عبد الملك الخزاعي :

أهَاشِمُ صَارَ الدَّمْعُ ضَرْبَةً لَازِمٍ وَمَا كَانَ لَوْلَا أَنْتَ ضَرْبَةً لَازِمٍ (4)

فقد وظّف هذا المثل لبيّين فداحة المصاب بفقد هاشم , فهاشم شخص عزيز وصاحب فضائل وعالي
المنزلة , مما يجعل من حوله يبكونه رغماً عنهم , وما كان ذلك ليكون لولا أن المفقود هو هاشم .
ويوظّف المثل نفسه في مدحه لمالك بن طوق , وتعزّيته بأخيه القاسم بن طوق , فيقول :

وَهَلْ مِنْ حَكِيمٍ ضَبَّعَ الصَّبْرَ بَعْدَمَا رَأَى الحُكَمَاءُ الصَّبْرَ ضَرْبَةً لَازِمٍ (5)

وظّف هذا المثل ليحضّ مالك على الصبر على مصابه , ويحكّم عقله في هذا الموقف العصيب ,
لئلا يضيع الأجر الذي وعد الله به الصّابرين .

ويوظّف أبو تمام بعض الأمثال بطريقة إيحائية , كقوله :

الصَّبْرُ أَجْمَلُ وَالْقَضَاءُ مُسَلِّطٌ فَارْضُوا بِهِ وَالشَّرُّ فِيهِ خِيَارٌ (6)

(1) نفسه 3 / 302 .

(2) غصبة , عبد الرحمن , استلهام التراث في شعر أبي تمام / 265, مجلة مركز الوثائق والدراسات
الإنسانية , جامعة قطر , السنة 3 , العدد 3 , 1991 م .

(3) ابن العماد , شذرات الذهب 3 / 236 وابن عساكر , تاريخ مدينة دمشق 48 / 289 .

(4) أبو تمام , الديوان 4 / 132 .

(5) نفسه 3 / 259 .

(6) أبو تمام , الديوان 2 / 172 .

فهو لا يقصد هنا الدلالة المباشرة للأمثال الثلاثة " الصبر أجمل " و " الشر فيه خيار " (1) و " بعض الشر أهون من بعض " (2) وإنما هو يستغل ناتج هذه الأمثال في تكثيف معنى هذا البيت , وفحوى هذا الناتج : التّهوين من وقع المصيبة في حالة وقوع الشر بين المتفاوتين سواء أكان ذلك مستخلصاً من واقع الأمثال كثرات للعقل الجمعي , أم مستخلصاً من استعمالاتها في البناء الشعري (3) كما في البيت الذي قاله طرفة حين أمر النعمان بقتله :

أبا مُنذرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضَنَا حَنَائِكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنَ مِنْ بَعْضِ (4)

فوظف أبو تمام هذه الأمثال الثلاثة للتّهوين من وقع المصيبة التي أصابت جيش " منويل " حين أتاه فلول جيشه وشذاذ عسكره يشكون إليه ما حلّ بهم من انقلاب الزمان وسوء تأثير الأيام.

التراث الأدبي في شعر المتنبي

لقد أدرك المتنبي أهمية الشعر العربي القديم , الذي يحمل في طياته تجارب شعرية غنية يمكن إسقاطها على واقعه الشعري , فحاول توظيف تلك النماذج الشعرية المعبرة عن أحاسيسه ومشاعره وأهدافه , فوجد في الشعر الجاهلي والإسلامي على مختلف مراحلها وعصوره تجارب متشابهة بتجربته الشعرية ينلمسها ويتمثلها , فحاكاها محاوراً ومقتبساً ومستلهماً لتحقيق ما يصبو إليه من أهداف يسعى لتحقيقها (5) .

1 (الميداني , مجمع الأمثال / 1 / 413 .

2 (نفسه / 1 / 92 .

3 (السعدني , مصطفى , قراءة المعنى الشعري - رؤية حديثة لقضية قديمة في ضوء شرح مشكلات ديوان أبي تمام للمرزوقي / 64 .

4 (ابن العبد , طرفة , الديوان / 172 .

5 (جوخان , إبراهيم عقله عبد الرحمن , التناص في شعر المتنبي / 45 , رسالة دكتوراه , جامعة اليرموك , إربد - الأردن , 2006 م .

استيحاء معاني الشعراء

استحضر المتنبي كثيراً من النصوص الشعرية القديمة تتسق ورؤيته , فأظهر براعة في تعامله معها من خلال طبعها بطابعه الخاص , وتحميلها شحنات دلالية خاصة تعبر عن رؤاه الشعرية , ومن الأمثلة على ذلك تواصله مع تأبط شراً في قوله :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الدَّلِيلَ بِعَيْشٍ رَبِّ عَيْشٍ أَخْفُ مِنْهُ الحِمَامُ⁽¹⁾

فالموت في العز كما يرى المتنبي أخف من العيش في الدل , وهو في هذا المعنى متأثر بقول تأبط شراً :

هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ وَمِنَّةٌ وَإِمَّا دَمٌ وَالْقَتْلُ بِالْحَرِّ أَجْدَرُ⁽²⁾

فالفكرة هنا مشتركة بين الشاعرين رغم أن لكل شاعر موقفاً منفرداً , فتأبط شراً شاعر صعلوك وضع روحه على كفه , قرر أن يجابه الأعداء فإمّا أن يبقوه حياً , وإمّا أن يهدر دمه ويقتل , والقتل بالحر الذي يأبى الدل والعبودية أجدر . أما المتنبي فهو يتحدث عن الإنسان الدليل وحقير النفس الذي لاتهمه كرامته وعزّة نفسه , وفي بيته دعوة صريحة ليأخذ الإنسان مكانه الطبيعي في الحياة , بحيث لا يتيح لأية قوّة أن تنقص من قدره وإنسانيته .

ويتواصل المتنبي أيضاً مع امرئ القيس , فيقول :

تَهْوِي بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ لِلْبُسِ ثُوبٍ وَمَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ⁽³⁾

فيفخر المتنبي بنفسه وعلوّ همته وشموخته , و هو دائماً يسعى إلى تحقيق المجد , ويتطلع إلى معالي الأمور , ويترفع عن دناياها مستوحياً معنى امرئ القيس في قوله :

1 (المتنبي , الديوان 4 / 93 .

2 (تأبط شرا , الديوان 31/ .

3 (المتنبي , الديوان 1 / 174 .

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي - وَلَمْ أَطْلُبْ - قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤْتَلٍّ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلَّ أَمْثَالِي (1)

فامرؤ القيس يسعى إلى تحقيق المعالي من خلال تحقيق هدف سام , وهو استعادة ملك أبيه المسلوب , غير ملتفت إلى دنيا الأمور . فقول امرئ القيس " فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني " تفيد معنى قول المتنبي " تهوي بمنجرد ليست مذاهبه لليس ثوب ... " إضافة إلى تشابه فكرة كل منهما , وهي الفخر والاعتزاز بالنفس , والترفع عن الدنيا من الأمور , وكل منهما قد غلب على أمره , فامرؤ القيس فاقد ملك أبيه والمتنبي يمدح من لا تطيقه نفسه .

ويستمر المتنبي في التوصل مع نصوص امرئ القيس , حيث يشاطره قيمه ومبادئه , وبخاصة التي تكمن في التضحية بالنفس من أجل تحقيق المعالي من الأمور , وعدم الاكتراث بالحياة في سبيل تحقيقها في قوله :

وَمَنْ يَبْغِ مَا أَبْغَى مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَا تَسَاوَى الْمَحَايِي عِنْدَهُ وَالْمَقَاتِلِ (2)

فهو يرى أن الذي يطلب ما يطلبه من المجد والشرف والرتب العالية يستوي عنده الحياة والقتل , لأن تحقيق الأهداف السامية فيها المخاوف التي قد تكلفه فقد حياته , لذلك فقد وطّن نفسه على الهلاك بصبر دون مبالاة مستوحياً معنى قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبِكْ عَيْنَكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلْكَاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذِرَا (3)

فامرؤ القيس من أجل تحقيق هدفه الذي يكمن في استعادة ملك أبيه المسلوب يستوي عنده الحياة والموت , فهما من أجل تحقيق المجد يعلمان ما يواجههما من مخاطر .

1) امرؤ القيس , الديوان / 145 .

2) المتنبي , الديوان / 3 / 177 .

3) امرؤ القيس , الديوان / 95 .

ويتواصل المتنبي مع حاتم الطائي عندما يرسم صورة من صور شجاعته

وإقدامه في الحروب , فيقول :

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي العِدَا (1)

فكل إنسان يعمل بعادته حسبما تربى عليه , وعادة سيف الدولة غزو الأعداء وقتلهم بسيفه

وطعنهم برمحه , مستوحياً قول حاتم الطائي :

ذَرِينِي وَحَالِي إِنْ مَالِكٌ وَافِرٌ وَكُلُّ امْرِئٍ جَارٍ عَلَى مَا تَعَوَّدَا (2)

فالمتنبي ضمن بيته عجز بيت حاتم ناقلاً معنى تأصل الكرم في النفس , إلى تأصل الإقدام

والشجاعة وقتل العدا بصياغة جديدة مولداً منه معنى جديداً يتمثل في وصف الشجاعة

والإقدام في الحرب .

ويتابع المتنبي التواصل مع حاتم الطائي في قوله :

هُمُ لِأَمْوَالِهِمْ وَلَيْسَ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَلْتَمُّ

مَنْ طَلَبَ الْمَجْدَ فَلْيَكُنْ كَعَلِيٍّ سِي يَهَبُ الْأَلْفَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ (3)

فيصف المتنبي اللئام بأنهم عبيد لأموالهم وخدم لها , لأنهم يتعبدون في الحصول عليها ,

فيجمعونها ويحافظون عليها , وكأنها ليست لهم , فربما أصابها حادث في حال حياتهم

يحول دون أن ينتفعوا بها , أو تصير للورثة , فلا يكسبون الحمد في الدنيا , ولا الأجر

والتواب في الآخرة , بهذا يوصف اللئيم المكثّر , مستوحياً قول حاتم الطائي :

إِذَا كَانَ بَعْضُ الْمَالِ رَبًّا لِأَهْلِهِ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مَالِي مُعَبَّدٌ (4)

(1) المتنبي , الديوان 1 / 281.

(2) الطائي , حاتم , الديوان / 40.

(3) المتنبي , الديوان 4 / 60.

(4) الطائي , حاتم , الديوان / 34.

فالمُتنبّي أخذ من معاني حاتم بما يلائم تجربته ، طابعاً إيّاها بطابعه الخاصّ ، ليعبّر عما
يجول في نفسه متّقاً مع حاتم في نظرته إلى المال ، وفي طرق إنفاقه .

كما أفاد المتنبّي من شعر عمرو بن كلثوم في تصويره شجاعة ممدوحه وإقدامه ،

فيقول :

إلى فتى يُصدرُ الرِّمَاحَ وَقَدْ أَنهَلَهَا فِي القُلُوبِ مَوْرِدُهَا
لَهُ أَيَادٍ إِلَيَّ سَابِقَةٌ أُعَدُّ مِنْهَا وَلَا أُعَدِّدُهَا (1)

يصف المتنبّي ممدوحه بالإقدام والشجاعة والكرم ، فهو يصيب برماحه قلوب أعدائه ،

وذو فضل عليه ، مستوحياً قول عمرو بن كلثوم :

بأنا نوردُ الرِّايَاتِ بِيضاً وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رَوَيْنَا
وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٌّ طَوَالٍ عَصَيْنَا المُلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
وَسَيِّدٍ مَعَشَرَ قَدْ تَوَجَّوهُ بِتَاجِ المُلْكِ يَحْمِي المُحْجَرِينَ (2)

فعمرو بن كلثوم هنا يعتزّ بشجاعة قومه وإقدامهم في الحروب ، وقد ضمّن المتنبّي في
عجز بيته الأول معنى عمرو بن كلثوم " بأنا نورد الرّايات بيضاً ونصدرهنّ حمراً " ، كما
ضمّن في نصّه " له أياد سابقة " قول عمرو بن كلثوم " وسيد معشر قد توجّوه " ، ليبين
كرم ممدوحه بألفاظ مختلفة ، كما أن الشّاعرين مجبولان على الفخر والاعتزاز
بشجاعتها .

ويتواصل المتنبّي مع نصوص عنترّة العبسيّ في قوله :

دُونَ الحَلَاوَةِ فِي الزَّمَانِ مَرَارَةً لَا تُخْطِئُ إِلَّا عَلَى أَهْوَالِهِ (3)

(1) المتنبّي ، الديوان ، 303 / 1 - 305 .

(2) ابن كلثوم ، عمرو ، الديوان / 71 .

(3) المتنبّي ، الديوان ، 3 / 65 .

فبين المنتبّي أن الإنسان لا يصل إلى حلاوة الزّمان إلا بعد أن يتذوّق مرارته ولا تتجاوز تلك المرارة إلا بارتكاب الأهوال , وهو يستوحي معناه من قول عنتره العبسيّ :

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَذْهَبَ سَقْمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ وَبِكَ عَنَتَرَ أَقْدِمُ
وَالْخَيْلُ تَقْتَحِمُ الْخَبَارَ عَوَابِسًا مِنْ بَيْنِ شَيْظَمَةٍ وَأَخْرَ شَيْظَمٍ (1)

فالمرارة هي الطّريق إلى الحلاوة عند المنتبّي كما أن اقتحام الخبر في الجو العابس خيولاً وفرساناً وطبيعة معركة هي الطريق إلى شفاء نفس عنتره , وشفاء النفس هنا هو شفاء معنويّ , وليس داء مبرحاً أو مرضاً عضالاً , إنّما هو انفراج نفس الشّاعر وانفراج أساريره , لأنه تعود أن يمرّ بهذه المنعطفات الخطيرة والأحداق المثيرة . وهي صورة مستوعبة من مشاهد الحياة وصورها .

ومعنى المنتبّي غاية في الرّوعة وحسن السّبك , لتلاؤم الألفاظ مع الموقف العام وعمق التجربة وشمولها , فهي لا تقتصر على فترة زمنيّة محدّدة , أو حادثة بعينها لتكون محصورة في إطار محدّد , وموقف ثابت , بينما عنتره يعبر عن تجربة شخصيّة قويّة المبني , والمعنى ضيق الإطار محدود المساحة إلا أنّ الصورة واضحة المعالم سريعة الحركة كثيفة الظلال , مرئية مسموعة متحركة , يسمع فيها قول الفوارس , ويرى اقتحام الخيول وحركتها , وأقدامها تسيح في التراب في موقف جليل وهمة عالية , وإرادة لا مبالية في الحروب .

ويتواصل المنتبّي مع زهير بن أبي سلمى حينما يصورّ كرم ممدوحه وشجاعته ,

فيقول :

تَهَلَّلَ قَبْلَ تَسْلِيمِي عَلَيْهِ وَالْقَى مَالَهُ قَبْلَ الْوَسَادِ (1)

(1) ابن شداد , عنتره , الديوان / 30 .

يصف المتنبي استبشار ممدوحه عليّ بن إبراهيم التتوخي برؤيته قبل سلامه عليه ,
وقد تلاًّ وجهه إضافة إلى كرمه , حتّى إنّه يبذل ماله قبل جمعه وحفظه مستوحياً معناه
من قول زهير بن أبي سلمى في رسم صورة ممدوحه في حرصه على العطاء , حيث
يسرّ ويفرح بمن يسأله فيوصله ويعطيه كما جاء في قوله :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ (2)

ويتواصل المتنبي مع خدّاش بن زهير (3) فيقول :

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَا دِ أَنْكَرَ أَظْلَافُهُ وَالْغَبَبُ (4)

وقد جعل المتنبي الجواد مثلاً لسيف الدولة والثور لمن لقي بعده من الملوك , فهم أشبه ما
يكونون بالحيوانات قليلة الشان التي لا تصلح للركوب وهو في هذا متأثر بقول خدّاش
ابن زهير :

وَلَا أَكُونُ كَمَنْ أَلْقَى رِحَالَتَهُ عَلَى الْحِمَارِ وَخَلَّى صَهْوَةَ الْفَرَسِ (5)

ولكن قول خدّاش فيه معنى التخصيص لأنّه يتحدّث عن نفسه بوضوح , فهو لا يرضى
لنفسه أن يكون كمن تخلّى عن صهوة الجواد ليلقي رحله على الحمار , بينما معنى
المتنبي يفيد التعميم وفي هذا المعنى ما لا يليق بسيف الدولة وعلو منزلته , ويبين مدى
غرور المتنبي .

ويتواصل المتنبي مع أميّة بن أبي الصلت (1) في مدحه لكافور , فيقول:

1 (المتنبي , الديوان / 1 / 358 .
2 (ابن أبي سلمى , زهير , الديوان / 142 .
3 (? - 6 هـ) خدّاش بن زهير العامري , من بني عامر بن صعصعة . شاعر جاهلي من أشراف
بني عامر وشجعانهم , يغلب على شعره الفخر والحماسة . يقال أن قریش قتلت أباه في حرب الفجار ,
فكان يكثر من هجوها . وقيل أدرك حيناً , وشهداها مع المشركين . ينظر ابن سلام , طبقات فحول الشعراء
/ 143 و ابن قتيبة , الشعر والشعراء / 2 / 631 .
4 (المتنبي , الديوان / 1 / 98 .
5 (نفسه / 1 / 98 .

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخَطَابٌ (2)

يُصِفُ الْمُتَنَبِّيَّ كَافُورًا بِالْفُطْنَةِ وَالذِّكَاةِ وَالسَّخَاءِ ، مِمَّا يُمْكِنُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا فِي نَفْسِ الْمُتَنَبِّيِّ مِنْ رَغْبَاتٍ وَحَاجَاتٍ ، وَسُكُوتِ الْمُتَنَبِّيِّ يَقُومُ مَقَامَ الْبَيَانِ عَنْهَا ، فَالْمُتَنَبِّيُّ كَانَ يَطْمَعُ بِوَلَايَةِ ، وَسُكُوتِهِ أَبِينٌ مِنَ الْإِفْصَاحِ عَنْهَا ، وَهُوَ هُنَا يَتِمَثَّلُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ أُمِّيَّةَ ابْنِ أَبِي الصَّلْتِ الَّذِي يَصِفُ مَمْدُوحَهُ بِالذِّكَاةِ وَالْفُطْنَةِ وَالْجُودِ مِنْ خِلَالِ التَّنَاءِ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِسُؤَالِهِ فِي قَوْلِهِ :

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ
إِذَا أَتْنِي عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ التَّنَاءُ (3)

وَيَصِفُ الْمُتَنَبِّيَّ شِجَاعَةً مَمْدُوحَهُ عَلِيِّ بْنِ مَكْرَمٍ وَشِدَّةَ بَأْسِهِ بِقَوْلِهِ :

شَدِيدُ الْخُنْزُوانَةِ لَا يُبَالِي أَصَابَ إِذَا تَنَمَّرَ أَمْ أُصِيبَا (4)

يَصِفُ الْمُتَنَبِّيَّ مَمْدُوحَهُ عَلِيِّ بْنِ مَكْرَمٍ ، فَهُوَ يَتَمَيَّزُ بِكِبْرِيائِهِ وَعِزَّةِ نَفْسِهِ ، فَإِذَا مَا غَضِبَ عَلَى عَدُوِّهِ تَنَمَّرَ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ غَيْرَ مَبَالٍ بِالْحَيَاةِ أَوْ الْمَوْتِ فَالْأَمْرُ عِنْدَهُ سَيَّانٌ مُسْتَوْحِيًّا قَوْلُ الْعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسٍ (5) حِينَمَا وَصَفَ إِقْدَامَهُ وَشِجَاعَتَهُ وَعَدَمَ مَبَالَاتِهِ فِي سَاحَةِ الْوَعْيِ :

أَشَدُّ عَلَى الْكُتَيْبَةِ لَا أُبَالِي أَحْتَفِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا (6)

وَيَمْدَحُ الْمُتَنَبِّيَّ الْمَغِيثَ بْنَ عَلِيٍّ الْعَجَلِيَّ بِقَوْلِهِ :

1 (أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي . (? - 5 هـ) ، شاعر جاهلي ، حكيم ، من أهل الطائف . وكان مطلعاً على الكتب القديمة ، يلبس المسوح تعبدًا وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر وشعره من الطبقة الأولى . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1 / 450 والأصفهاني الأغاني 4 / 96 .

2 (المتنبّي ، الديوان 1 / 198 .

3 (ابن أبي الصلت ، أمية ، الديوان 19 / 19 .

4 (المتنبّي ، الديوان 1 / 139 .

5 (العباس بن مرداس بن أبي عامر السلميّ (? - 18 هـ) من مُضَرَ ، أبو الهيثم . شاعر فارس ، من سادات قومه ، أمه الخنساء الشاعرة . وكان بدويًا قحًا ، ومات في خلافة عمر . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1 / 291 والأصفهاني ، الأغاني 4 / 192 .

6 (ابن وكيع ، المنصف ، 608 .

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُنْثٌ ضَخَامٌ (1)

يرى المتنبي أن ممدوحه متفرد بالقدر والهمة في دهره , فهذا الدهر أهله صغار القدر والهمم , ضخام الأجسام , وهو هنا يتمثل قول حسان بن ثابت حينما هجا قوم واصفاً إياهم بضخامة الأجسام , وقلة العقول :

لَا بَأْسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طَوْلٍ وَلَا عِظَمٍ جِسْمُ الْبِغَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ (2)

فالمعنى واحد لدى الشعارين ولكن السياق مختلف , فقد استخدم المتنبي أسلوب المفارقة في نصه , من خلال تبطينه المدح بالهجاء , واستخدم كل منهما أسلوب التضاد . ويتواصل المتنبي مع الأعور الشنّي (3) في قوله :

وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغْيِيراً تَكَلَّفُ شَيْءٍ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ (4)

ويرى المتنبي أن الدنيا لاتديم مودتها لأنها بنيت على التغير والتقل , فإن فعلت ذلك كانت كمن تكلف شيئاً ضدّ طباعه , فيتركه ويعود إلى طبعه وهو يستمدّ معناه من قول الأعور الشنّي :

وَمَنْ يَقْتَرِفْ خُلُقاً سِوَى خُلُقِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَتَغْلِبُهُ عَلَيْهِ الطَّبَائِعُ

وَأَقْصَرُ أَفْعَالِ الرَّجَالِ الْبِدَائِعُ (5)

1 (المتنبي , الديوان 4 / 70 .

2 (ابن ثابت , حسان , الديوان / 122 .

3 (الأعور الشنّي (? - 50 هـ) أبو منقذ بن منقذ من بني شن من عيد القيس . شاعر مشهور يخشى هجاؤه , اشترك في وقعة الجمل في صف علي بن أبي طالب . ينظر ابن قتيبة , الشعر والشعراء 1 / 624 .

4 (المتنبي , الديوان 2 / 19 .

5 (المتنبي , الديوان 2 / 19 .

فالشاعران يستندان إلى التجارب السابقة التي تعبر عن القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع ، فكل إنسان راجع إلى أصله وطبعه مهما تكلف من صفات وادعاها لنفسه فالتطبع لا يخفي الطبع .

ويتواصل المتنبي مع قيس بن الملوّح ، فيقول :

مَنْعَمَةٌ مُمْنَعَةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّفُ لَفْظَهَا الطَّيْرَ الوُقُوعَا (1)

فيصف المتنبي محبوبته بعدة صفات ، فهي امرأة رداح أي ضخمة العجيزة ، وعذبة الكلام ، حتّى إنّ الطير إذا سمع لفظها وقع وسقط لحسنه ، وهو في هذا البيت يستلهم قول قيس بن الملوّح :

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا فَتَنْتَنِي بِقَوْلِ يَحِلُّ العَصْمَ سَهْلَ الأَبَاطِحِ (2)

ولكنّ قيس جعل عذوبة حديث المحبوبة سبباً في نزول العصم من مكانها في الجبال . ويتواصل المتنبي مع قيس بن ذريح (3) حينما يصف شعوره اتجاه محبوبته ، فيقول :

الحُبُّ مَا مَنَعَ الكَلَامَ الأَلْسُنَا وَالأَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَا (4)

فالحبّ غايته أن يمنع لسان المحب عن الكلام ، فالمحبّ عندما يرى محبوبته لا يستطيع أن يعبر عمّا في قلبه من أحاسيس ومشاعر ، فيبهت ويخرس لجلال الموقف وعظمته في نفسه ، وهو هنا يتمثّل صورته ومعناه من قول قيس بن ذريح :

فَمَا هِيَ إِلاَّ أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَأَبْهَتُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ (1)

1 (نفسه 2 / 250 .

2 (مجنون ليلي ، الديوان / 64 .

3 (قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة الكناني . (? - 68 هـ) ، شاعر من العشاق المتيّمين ، اشتهر بحب لبنى بنت الحباب الكعبية ، وهو من شعراء العصر الأموي ، ومن سكان المدينة . ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 2 / 613 والأصفهاني ، الأغاني 9 / 210 .

4 (المتنبي ، الديوان 4 / 195 .

ولكنّ المنتبّي نقل معنى قيس بن ذريح من الغزل إلى الاعتذار إلى بدر بن عمّار لتخلّفه عنه .

ويوضّح المنتبّي رؤيته من الحبّ , وموقفه من العذال والوشاة , فيقول :

كُفِّي أَرَانِي وَيَكْ لَوْمَكِ أَلُومًا هَمُّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادِ أَنْجَمًا (2)

ويؤكد المنتبّي أنّ لوم العذال أشدّ عليه , وأبلغ تأثيراً من همّة الناتج عن فراق المحبوب له , مستوحياً رؤية عمر بن أبي ربيعة للوشاة ورفضه تدخلهم :

تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَجَدًا بِنَا وَوَجَدِي وَإِنْ أَظْهَرْتَ أَوْجُدُ (3)

فلا يطيق عمر بن أبي ربيعة وجد الوشاة , لأنّ هدفهم الإيقاع بين المحبّين , فوجدهم وحرزهم غير صادق , ولا يضاهاي وجد المحبّين على محبوباتهم .

ويتواصل المنتبّي مع سديف بن ميمون (4) , فيقول :

وَالذُّلُّ يُظْهِرُ فِي الذَّلِيلِ مَوَدَّةً وَأَوْدُ مِنْهُ لِمَنْ يَوْدُ الْأَرْقَمُ (5)

فيرى المنتبّي أنّ الدليل يظهر المودة لمن أدلّه لأنّه لا يقدر على مجابته ولا الامتناع عنده , فيتودّد إليه . ولكن تودّده مزيف حتّى إنّ الأفعى تكون أقرب إلى المصافاة منه إذا أظهر الودّ , مستوحياً قول سديف بن ميمون :

ذَلَّهَا أَظْهَرَ الْمَوَدَّةَ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمْ كَحَزَّ الْمَوَاسِي (6)

1 (ابن ذريح , قيس , الديوان / 116 .

2 (المنتبّي , الديوان / 27 / 4 .

3 (ابن أبي ربيعة , عمر , الديوان / 150 .

4 (سديف بن ميمون : مولى بني العباس وشاعرهم , ويقال إنه لامرأة من خزاعة , وكان زوجها من اللهبين , فنسب إلى ولاء اللهبين ينظر ابن قتيبة , الشعر والشعراء 2 / 749 والأصفهاني , الأغاني 4 / 241 .

5 (المنتبّي , الديوان / 130 / 4 .

6 (المنتبّي , الديوان / 130 / 4 .

ولكن سديف يجعل الذلّ نتيجة الضّعف والعجز , لأنّ ما حصل من الضرّ والإيلام يشبه حدّ المواسي , فإظهار المودّة بسبب الذلّ العارض , ذلّ مقنع كما أنّ المودّة المصاحبة لهذا الذلّ غير صادقة . أما الذلّ في بيت المتنبيّ فإنّه يخفي وراءه حقداً شديداً , ولوماً خبيثاً رغم المودّة التي يظهرها الإنسان , فهي مودّة مبطنّة بطبقة من السمّ . ومن هنا يتبين أنّ بيت سديف فيه ضعف واستسلام للأمر الواقع إلا أنّ الآثار التي خلفها القهر بالنفس لم تمح ما ترسّب فيها من الحقد . أما بيت المتنبيّ فالذلّ متأصل بصاحبه لأنّه ممزوج باللؤم ومختلط بالخسة التي لا يرجى لصاحبها الصلاح بحيث يستبعد فيها هذه المودّة , فالأفعى المعروفة بغدورها بما تتفتنه من سمومها أكثر ودأً من هذا الدليل .

ويتواصل المتنبيّ مع صالح عبد القدّوس (1) , فيقول :

وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ (2)

فيرى المتنبيّ أنّ عداوة الساقط تدلّ على مباينة طبعه فتتفع , وصداقته تدلّ على مناسبتها فتضرّ , وهو في هذا المعنى متأثر بقول صالح بن عبد القدّوس :

عَدُوُّكَ نُو الْعَقْلِ خَيْرٌ مِنَ الْـ صَدِيقِ الْوَامِقِ الْأَحْمَقِ (3)

فبيت المتنبيّ يخلو من التعقيد المعنويّ , فإدخاله حرف الجرّ "من" في شطري البيت يفيد التبويض , ولكنّ معنى صالح بن عبد القدّوس فيه تعميم .

ويتواصل المتنبيّ مع منصور النمرّي (4) في قوله :

(1) صالح بن عبد القدّوس الأزديّ الجذاميّ، (? - 160 هـ) شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة. ينظر ابن المعتز , طبقات الشعراء / 89 والأصفهاني , الأغاني / 4 / 113.

(2) المتنبي , الديوان / 4 / 130.

(3) نفسه / 4 / 130.

(4) منصور بن الزبرقان بن سلمة بن شريك النمرّي , من بني النمر بن قاسط شاعر من أهل الجزيرة الفراتية , مدح الخليفة هارون الرشيد. ينظر ابن قتيبة , الشعر والشعراء / 2 / 847 ابن المعتز , طبقات الشعراء / 241.

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ (1)

فيؤكد المتنبي أن السيادة مشقة , ولولا ذلك لأصبح الناس كلهم سادة , ثم يبين المشقة التي

في السيادة , فقال : من جاد فقد افتقر , ومن أقدم على الحرب قتل , ولا سيادة دون

الجدود والشجاعة , وهو في هذا المعنى متأثر بقول منصور النمرى :

الْجُودُ أَخْشَنُ مَسَاءً يَا بَنِي مَطَرٍ مِنْ أَنْ تَبْرَكُمُو كَفَّ مُسْتَلَبِ

مَا أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّ الْجُودَ مَكْسَبَةٌ لِلْمَجْدِ لَكِنَّهُ يَأْتِي عَلَى النَّشْبِ (2)

يتحدث الشاعران في هذه الأبيات عن بعض القيم الاجتماعية السائدة في

عصرهما , فمنصور النمرى يرى في بيته الثاني أن الجود طريق المجد , والمجد يأتي

على كل ما يمتلكه الإنسان من أموال , لأنه قد يهلكها بسبب جوده وهو في طريقه إلى

المجد . أما المتنبي فبيته يتضمن حكمتين الأولى هي الجهد والثانية المشقة في السيادة

وهي بذل المال والروح .

ويتواصل المتنبي مع أبي تمام , فيقول:

كَمْ ثَرَاءٍ فَرَجَّتْ بِالرُّمَحِ عَنْهُ كَانَ مِنْ بُخْلِ أَهْلِهِ فِي وَثَاقِ (3)

جعل المتنبي الثراء أسيراً , وكان في وثاق من بخل أهله فحرره الممدوح وأطلق سراحه

ليذهب في الطرق المشروعة , فالمال في يد اللئيم قبيح لأنه يضمن به عن حقوقه ,

وهو في هذا المعنى متأثر بقول أبي تمام :

كَمْ نِعْمَةٍ لِلَّهِ كَانَتْ عِنْدَهُ فَكَانَهَا فِي غُرْبَةٍ وَإِسَارِ (4)

(1) المتنبي , الديوان 2 / 287 .

(2) نفسه 3 / 287 .

(3) نفسه 2 / 370 .

(4) أبو تمام , الديوان 2 / 198 .

ويصف أبو تمام شخصية ذات ثراء , ويصور النعمة التي بين يديها تصويراً رائعاً , فهو يشبهها مرة بأنها غريبة بين يديه , وأخرى بأنها أسيرة , والأسر غربة , فهو هنا قد أسقط على النعمة صفة الإنسانيّة , وجعلها تشعر بالغربة والأسر , لأنها مقيدة بين يديه , فالمال خلق للتداول والحركة لا للأسر .

ويقول المتنبي في قصيدة مدح فيها سيف الدولة :

وَشَرُّ مَا قَنَصْتُهُ رَاحَتِي قَنَصٌ شُهْبُ الْبُرْزَةِ سِوَاءٍ فِيهِ وَالرَّحْمُ⁽¹⁾

يساوي سيف الدولة في عطائه بين المتنبي وخساس الشعراء في أخذ العطاء , ولذلك لا يعده صاحب فضل عليه وهو في هذا البيت متأثر بقول أبي تمام :

لَنْ يَكْرُمَ الظَّفَرُ الْمُعْطَى وَإِنْ أُخِذَتْ بِهِ الرَّغَائِبُ حَتَّى يَكْرُمَ الطَّلَبُ⁽²⁾

فبيت أبي تمام فيه معنى الشمول , بينما بيت المتنبي فيه معنى الفردية والذاتية , وإن كان لكل منهما مناسبة الخاصة , التي لا تخرج عن إطار العلاقة بالممدوح والهبات والعطايا التي يجب أن تتلاءم مع مكانة كل منهما , إلا أن بيت أبي تمام فيه معنى الرفعة والسمو , لأنه يرفع من قدر الطلب , فإذا لم يكن الطلب سامياً , فلا قيمة للعطاء ولو كثر وإضافة إلى ذاتية المتنبي في بيته إلا أنه لا يخلو من التجريح للخساس من الشعراء الذين لا قيمة لهم , وهم يحظون بما يحظى به المتنبي من العطاء , وهذا مما يعده المتنبي الشر بعينه .

ويقول المتنبي مخاطباً سيف الدولة:

وَمِنْ الْخَيْرِ بَطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ⁽³⁾

1 (المتنبي , الديوان 3 / 373 .

2 (أبو تمام , الديوان 1 / 245 .

3 (المتنبي , الديوان 4 / 100 .

فتأخر وصول عطاء الممدوح إلى المتنبّي ، كان بسبب تأخر زيارته إيّاه ، وهذا يدلّ على كثرة ذلك العطاء ، كالسحاب إنّما يسرع منه ما كان جهاماً لا ماء فيه ، أمّا ما يكون فيه ماء فإنه ثقيل المشي وهو في هذا المعنى متأثر بقول أبي تمام :

هُوَ الصَّنْعُ إِنْ يَعَجَلُ فَنَفَعُ وَإِنْ يَرِثُ فَللرِّيثِ فِي بَعْضِ المَواطِنِ أَسْرَعُ (1)

غير أنّ الشاعرين هنا يختلفان في عرض فكرة العطاء ، فالإسراع في الصنع عند أبي تمام أمر نافع ، إلا أنّ التأخر فيه أكثر فائدة في بعض المواطن . ولكنّ المتنبّي كان أكثر تحديداً وبلاغة ، لأنّه يفلسف هذا البطء لصالحه ، فالعطاء إذا تأخر في الوصول إلى الشاعر من الممدوح كانت فرجة الأمل أمامه أرحب وأوسع ، وهو هنا يوظّف مظاهر الطّبيعة لاستخلاص الحكمة من تأخر العطاء ، فالجهام وهو السحاب الذي لا ماء فيه أكثر السحب سرعة ، ولما كانت هذه السرعة لا تأتي إلا بالعدم فالشاعر في غنى عنها .

ويتواصل المتنبّي مع البحرّي في قوله :

وَكُلُّ امْرِئٍ يُولِي الجَمِيلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبٌ (2)

فالمتنبّي أحبّ الممدوح وآثره على أهله لما أسدى له من الجميل ، فطابت له الإقامة بساحته لما لقي فيها من العزّ ، وقد استمدّ معناه من عجز بيت البحرّي :

وَأَحَبُّ أَفَاقِ البِلادِ إِلى الفَتَى أَرْضٌ يَنالُ بِها كَرِيمَ المَطَلَبِ (3)

فالبحرّي يربط حبّ الإنسان بالأرض إذا ما توقّرت له الحياة الكريمة عليها ، وتحقّقت آماله وطموحاته فيها ، بينما المتنبّي وسع معناه ليشمل الإنسان والمكان فالأرض تكسب قيمتها من الإنسان الذي يعيش عليها . وبذلك يكون نصّ المتنبّي أشمل وأدقّ .

1 (أبو تمام ، الديوان 2 / 332 .

2 (المتنبّي ، الديوان 1 / 183 .

3 (البحرّي ، الديوان 1 / 141 .

استيحاء ألفاظ الشعراء ومعانيهم

استوحى المتنبي ألفاظ الشعراء ومعانيهم ومن الأمثلة على ذلك قوله :

وَلِلسَّلَاطِينِ مَنْ تَوَلَّاهَا وَالجَا إِلَيْهِ تَكُنْ حُدَيَّاهَا (1)

إن المتنبي ترك الملوك والسلاطين منصرفاً إلى عضد الدولة ، مؤكداً أنه باستتاده إليه يسامي الملوك و يصبح مثلهم ، مستوحياً قول عمرو بن كلثوم الذي يفخر فيه بشجاعة قومه وقوة بأسهم مضمناً نصه لفظة " حدياً " التي تعني التحدي والمباراة والغلبة :

حُدَيَّا النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً مُقَارَعَةً بَنِيهِمْ عَن بَنِينَا (2)

ويمدح المتنبي سيف الدولة في مواجهته الروم ، فيقول :

فَحُبُّ الجَبَانِ النَّفْسَ أوردَهُ التُّقَى وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أوردَهُ الحَرَبَا (3)

ويؤكد المتنبي أن الجبان يتقي الحرب ويتجنب القتال ، حباً لنفسه وخوفاً عليها ، والشجاع يخوض الحرب دفاعاً عن نفسه ، فهو يرد الحرب إما لبلاء حسن يمجّد ذكره في حياته ، وإما لقتل يبقى له ذكراً يقوم مقام حياته ، مستوحياً قول الخنساء لفظاً ومعنى بصياغة وبناء جديدين في رثائها أخيها معاوية :

نُهَيْنُ النَّفُوسَ وَهَوْنُ النَّفُوسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ أَبْقَى لَهَا (4)

ويتواصل المتنبي مع شعر الحطيئة ، فيقول :

وَمَا ماضِي الشَّبَابِ بِمُسْتَرَدٍّ وَلَا يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادٍ (5)

1 (المتنبي ، الديوان 4 / 280 .

2 (ابن كلثوم ، عمرو ، الديوان 77 / .

3 (المتنبي ، الديوان 1 / 65 .

4 (الخنساء ، الديوان / 121 .

5 (المتنبي ، الديوان 1 / 356 .

يحثّ المنتبّي ممدوحه على طلب المعالي , لأنّ أيام الشّباب إذا مضت لا تسترد , وعلى الإنسان أن يستثمر شبابه في تحقيق المعالي , وهو يستوحي هذه الحكمة لفظاً ومعنى من قول الحطيئة :

إِذَا ذَهَبَ الشَّبَابُ فَبَانَ مِنْهُ فَلَيْسَ لِمَا مَضَى مِنْهُ لِقَاءٌ (1)

ويتواصل المنتبّي مع حسّان بن ثابت في مدحه محمد بن عبيد الله العلويّ , فيقول :

لَعَلِمَهَا أَنَّهَا تَصِيرُ دَمًا وَأَنَّهُ فِي الرَّقَابِ يُعْمَدُهَا (2)

يصف المنتبّي ممدوحه بالشّجاعة وقوّة البأس , فيجعل رقاب أعدائه أعماداً لسيوفه , مستمداً بعض ألفاظه ومعناه وقافيته وصورته من قول حسّان بن ثابت :

وَنَحْنُ إِذَا مَا نَضِينَا السُّيُوفَ جَعَلْنَا الْجَمَاجِمَ أَعْمَادَهَا (3)

فحسّان يفخر بشجاعة قومه وإقدامهم في الحرب , فإذا ما استلوا سيوفهم جعلوا جماجم أعدائهم أعماداً لها . فالصّورتان اتخذتا جسم الإنسان محوراً لهما , فالرقاب والجماجم موضع مقتل الإنسان .

ويتواصل المنتبّي مع رؤية جميل بثينة في الحبّ , فيقول :

رَامِيَاتٍ بِأَسْهُمٍ رِيثُهَا الْهُدُ بٌ تَشَقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ (4)

حيث يرى المنتبّي أن الحبّ يضرّ بصاحبه , إذ يترك في نفسه أثراً سلبياً , وذلك من خلال تذكر المحبوبة والتأمّل فيها مما يزيد من تأجج الحبّ في نفس الشّاعر , فتجلب له العذاب والألم والموت . فهو يؤكّد أن سهام عيون المحبوبة تنفذ إلى القلوب فتشقّها قبل أن تشقّ الجلود ناقلاً وجهة نظر جميل بثينة في الحبّ , حيث يقول :

(1) الحطيئة , الديوان / 59.

(2) المنتبّي , الديوان / 1 / 309.

(3) الجرجاني , الوساطة بين المنتبّي وخصومه / 376 لم أجده في الديوان.

(4) المنتبّي , الديوان / 1 / 314.

رَمْتَنِي بِسَهْمِ رِيشَةِ الْكُحْلِ لَمْ يَضِرْ ظَوَاهِرَ جِلْدِي فَهُوَ فِي الْقَلْبِ جَارِحِي (1)

ويتواصل المتنبي مع جميل بثينة في رثاء محمد بن اسحق التتوخي ، فيقول :

وَقَنَعْتُ بِاللُّقْيَا وَأَوَّلَ نَظْرَةٍ إِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَبِيبِ كَثِيرٌ (2)

إن المتنبي يقنع بالقليل ، وأول نظرة ينظرها مضمناً نصّه قول جميل الذي يبين فيه أن المحب الصادق يغنيه القليل من محبوبته ، وإن كان على حقيقة الأمر لا يرضى لمحبوبته هذا العطاء :

وَإِنِّي لَيَرْضِينِي قَلِيلٌ نَوَالِكُمْ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرْضَى لَكُمْ بِقَلِيلٍ (3)

ويلاحظ هنا أن المتنبي نقل رؤية جميل من موقف الحب إلى موقف الرثاء لفظاً ومعنى .

ويتواصل المتنبي مع الفرزدق ، فيقول :

وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخَلِيقِ (4)

فيرى المتنبي أن الحسن في وجه الفتى ليس شرفاً له ، إذا لم يصاحبه خلق وفعل حسن ، وهو هنا يستوحي قول الفرزدق لفظاً ومعنى :

وَلَاخَيْرَ فِي حُسْنِ الْجُسُومِ وَطَوْلِهَا إِذَا لَمْ تَزِنْ حُسْنَ الْجُسُومِ عُقُولُ (5)

ويتواصل المتنبي مع ذي الرمة ، فيقول :

يَعْلَمَنَّ حِينَ تَحْيِي حُسْنَ مَبْسَمِهَا وَكَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّنْبِ (6)

1 (جميل بثينة ، الديوان / 23 .

2 (المتنبي ، الديوان / 2 / 134 .

3 (نفسه / 2 / 134 .

4 (نفسه / 2 / 320 .

5 (نفسه / 2 / 320 .

6 (المتنبي ، الديوان / 1 / 89 .

حيث يكشف المتنبي عن مظاهر الجمال المثالية عند محبوبته , فيصف حسن مسمها
مضمناً نصّه عجز بيت ذي الرمة الذي يصف فيه مظاهر الجمال لدي محبوبته , حيث
يقول :

لَمِيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسُ وَفِي الثَّنَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ (1)

ويلاحظ أن المتنبي قد أعاد بناء قول ذي الرمة , عاكساً معناه , فهو لم يعرف عذوبة ريق
المحبوبة وبرد أنيابها .

ويتابع تواصله مع شعر ذي الرمة , فيقول :

فَمَا قَلِيلاً بِهَا عَلَيَّ فَلَا أَقَلَّ مِنْ نَظْرَةِ أُرُودِهَا (2)

يطلب المتنبي إلى حاديي غير المحبوبة أن يتوقفا قليلاً , ليتعلّ بنظرة منها , فالنظرة منها
تغني , وهو هنا يعيد رؤية ذي الرمة في الكشف عن أبعاد الحبّ , وتصوير أحوال
المحبين عند الفراق , حيث يقول :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَعَلُّلَ سَاعَةٍ قَلِيلاً فَاتِي نَافِعٍ لِي قَلِيلُهَا (3)

ويتواصل المتنبي مع بشار بن برد في تصوير المعركة , فيقول :

يَزُورُ الْأَعَادِي فِي سَمَاءِ عَجَاجَةٍ أَسْنَتُهُ فِي جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ (4)

يصور المتنبي الأسنّة لما ارتفعت في الهواء وسط العجاجة , فبدت العجاجة سماء والأسنّة
في جانبها كالكواكب , مستوحياً قول بشار :

كَأَنَّ مَنَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُسِهِمْ وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ (5)

(1) ذو الرمة , الديوان / 5.

(2) المتنبي , الديوان / 1 / 296.

(3) ذو الرمة , الديوان / 550.

(4) المتنبي , الديوان / 1 / 107.

(5) ابن برد , بشار , الديوان / 146.

الذي صور فيه وقع السيوف على الأعداء وسط الغبار ، فهي لشدة لمعانها وحركتها
كواكب تتساقط في ليل مظلم .

ويمدح المتنبي علي بن محمد الأنطاكي في قوله :

وَمَا زِلْتُ حَتَّى قَادَتِي الشَّوْقُ نَحْوَهُ يُسَائِرُنِي فِي كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ
وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلَمَّا التَّقَيْنَا صَغَرَ الْخَبَرَ الْخَيْرُ
أَزَالَتْ بِكَ الْأَيَّامُ عَتْبِي كَأَنَّمَا بَنُوهَا لَهَا ذَنْبٌ وَأَنْتَ لَهَا عَذْرُ(1)

انتشر ذكر ممدوح المتنبي بين الناس ، فأصبح يستعظم كل ما يسمعه عنه ويستكبره حتى

زاره وخبره ، فوجده أعظم مما كان يسمعه عنه متأثراً بقول بشار بن برد:

وَأَنِّي لَفَادَتْنِي إِلَيْهِ مَوَدَّتِي وَرَغَبْتُهُ فِي الشُّكْرِ يَحْوِيهِ وَالْحَمْدِ
وَصَغَرَ فِي عَيْنِي اخْتِبَارُ خِصَالِهِ مَحَاسِنِ أَخْبَارِ أَتْتَنِي عَلَى الْبُعْدِ(2)

ويتابع المتنبي تواصله مع بشار في موقفه من التعلق بالنساء ، فيقول :

وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظِلَامٌ(3)

ويؤكد المتنبي أن الغواني ضياء في الظاهر ، ظلام في الباطن ، لأنهن يتعبن من يميل

إليهن ، ويقع في حبهن مستقيماً وجهة نظر بشار عندما هجا النساء في قوله :

إِنَّ النِّسَاءَ مُضِيئَاتٌ ظَوَاهِرُهَا لَكِنَّ بَوَاطِنَهَا ظُلْمٌ وَإِظْلَامُ
كَالدَّهْرِ فِي صَرْفِهِ سِقْمٌ وَعَافِيَةٌ وَكَالزَّمَانِ لَهُ بُؤْسٌ وَإِنْعَامٌ(4)

ويتواصل المتنبي مع العباس بن الأحنف في قوله :

تَذَلَّلْ لَهَا وَاخْضَعْ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى فَمَا عَاشِقٌ مَن لَّا يَذَلُّ وَيَخْضَعُ(1)

(1) المتنبي ، الديوان 2 / 155 ، 159.

(2) ابن برد ، بشار ، الديوان / 443.

(3) المتنبي ، الديوان 4 / 72.

(4) ابن برد ، بشار ، الديوان / 606.

يجعل المتنبي السّطة للمحبوبة في العلاقة التي ينبغي أن تكون بين المحبين , حيث التذلل والخضوع والانقياد للمحبوبة , مستوحياً قول العباس بن الأحنف في رسم طبيعة العلاقة بين المحبين :

تَحَمَّلَ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تَحِبُّهُ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُوماً فَقُلْ أَنَا ظَالِمٌ (2)

ويتواصل المتنبي مع مسلم بن الوليد في وصفه شجاعة ممدوحه , فيقول :

تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً وَوَجْهَكَ وَصَاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسْمٍ (3)

فيصوّر المتنبي شجاعة سيف الدولة في مقارنته لأعدائه وقوة بأسه وهيبته , ولا يكثر لما يراه حوله من الأهل , واثقاً بالنصر , وهو هنا يستمد هذا المعنى من قول مسلم بن الوليد عندما وصف شجاعة ممدوحه يزيد بن يزيد الشيباني (4) ووثوقه بالنصر خلاف أبطال أعدائه الذين تلوّنت وجوههم من الخوف , حيث يقول :

يَقْتَرُّ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مُبْتَسِماً إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْفَارِسِ الْبَطَلِ (5)

ويتواصل المتنبي مع أبي العتاهية , فيقول :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ (6)

ويؤكد المتنبي أنّ الإنسان الذي يقضي عمره في جمع المال ولم ينفقه خوفاً من الفقر , قد قضى عمره بالفقر , بل ما فعل هو الفقر بعينه , مستوحياً قول أبي العتاهية:

يَا جَامِعَ الْمَالِ وَالْأَيَّامِ تَخَدَعُهُ خَوْفاً مِنَ الْفَقْرِ هَذَا الْفَقْرُ وَالْعَدَمُ

1 (المتنبي , الديوان 2 / 238 .

2 (ابن الأحنف , العباس , الديوان / 243 .

3 (المتنبي , الديوان 3 / 387 .

4 (ت 185 هـ) , أمير من القادة الشجعان , كان والياً بأرمينية وأنربيجان , وأخبار شجاعته وكرمه كثيرة . ينظر ابن خلكان , وفيات الأعيان 2 / 283 .

5 (ابن الوليد , مسلم , الديوان / 9 .

6 (المتنبي , الديوان 2 / 150 .

أَسَاتَ ظَنِّكَ بِاللَّهِ الَّذِي خَضَعْتَ لَهُ الرِّقَابُ فَشَابَتْ قَلْبَكَ الظُّلْمُ (1)

ويتابع المتنبي التّواصل مع شعر أبي العتاهية , حيث يقول :

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضِ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَهُ وَالنَّزَالَ (2)

يمدح المتنبي سيف الدولة معرّضاً بالروم بقوله : إنّ الجبان إذا كان منفرداً بعيداً عن

الأقران , يطلب الطعان والمنازلة , فإذا شعر بقوة مقاتله , رجع إلى طبعه وفرّ , وهذا

شأن الروم مع سيف الدولة , فهم شجعان ما لم يروه , مستوحياً قول أبي العتاهية :

وَإِذَا الْجَبَانُ رَأَى الْأَسِنَّةَ شُرْعًا عَافَ الثَّبَاتَ فَإِنْ تَفَرَّدَ أَفْدَمَا (3)

ويتواصل المتنبي مع أبي تمام في قوله:

إِذَا أَتَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَنِيمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمُسِيءَ فَمَنْ أَلَوْمُ (4)

يتساءل المتنبي إذا أساء إليه وضيع لنيم ولم يوجه اللوم إليه فالى من يوجه اللوم مستمداً

قوله من بيت أبي تمام :

إِذَا أَنَا لَمْ أَلَمْ عَثْرَاتِ دَهْرٍ أُصِيبْتُ بِهَا الْغَدَاةَ فَمَنْ أَلَوْمُ (5)

ويوجد تشابه في البناء الفني للبيتين من حيث استخدام ألفاظ بعينها مثل أداة الشرط "إذا"

ولفظة "اللوم" عند كلا الشاعرين إلا أن الإساءة عند المتنبي تأتي من اللئيم , بينما هي عند

أبي تمام آتية من عثرات الدهر .

ويتواصل المتنبي مع ديك الجن في قوله:

غُصْنٌ عَلَى نَقْوَى فَلَآةٍ نَابِتٌ شَمْسُ النَّهَارِ تُقَلُّ لَيْلًا مُظْلَمًا (6)

(1) أبو العتاهية , أشعاره وأخباره / 635 .

(2) المتنبي , الديوان , 3 / 143 .

(3) أبو العتاهية , أشعاره وأخباره / 639 .

(4) المتنبي , الديوان / 4 / 152 .

(5) أبو تمام , الديوان / 4 / 538 .

(6) المتنبي , الديوان / 4 / 29 .

فيصور المنتبّي قامة محبوبته بالغصن الذي ينبت على كئيب من الرّمْل , ووجهها بالشمس التي تحمل ليلاً مظلماً مضمناً صورة ديك الجن لفظاً ومعنى , حيث يقول :

دَعَصُ يُقِلُّ قَضِيبَ بَانَ فَوْقَهُ شَمْسُ النَّهَارِ تُقِلُّ لَيْلًا مُظْلَمًا (1)

ولكنّ المنتبّي كان أكثر توفيقاً في رسم صورته لأنه رتب أوصاف المحبوبة , فبدأ بردفها وقدها ووجهها وشعرها , بينما بدأ ديك الجن بقدها ثم بردفها ثم عاد إلى وجهها وشعرها .

ويتواصل المنتبّي مع عليّ بن الجهم حينما يمدح عبد الرّحمن بن المبارك

الأنطاكيّ بقوله :

نَفْسُهُ جَيْشُهُ وَتَدْبِيرُهُ النَّصْرُ رُؤْيُ وَالْحَاضَةُ الظُّبَا وَالْعَوَالِي (2)

حيث يصف المنتبّي قوّة ممدوحه وشجاعته , ورجاحة عقله , فشجاعته تقوم مقام جيش , وحسن تدبيره وإصابته الرّأي يكفل له النّصر , وهيبته تقوم مقام السيّوف والرّماح في النّصر , وهو هنا يستمدّ هذه الصّورة من قول عليّ بن الجهم :

فَهَمَّتْهُ جَيْشٌ وَعَزَمَتْهُ سُرْيٌ وَفَكَّرَتْهُ حَرْبٌ وَآرَأُوهُ جُنْدٌ (3)

ويتواصل المنتبّي مع البحرريّ في قوله :

إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ تَيَقَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرَبَ مِنْ الْقَتْلِ (4)

فبعدّ المنتبّي الموت نوعاً من القتل , وذلك أنّ من لم يقتل بالسيف ومات بتقلب الزّمان عليه كمن قتل , وهو هنا متأثر في معناه ببيت البحرريّ :

1 (ديك الجن , الديوان / 118 .

2 (المنتبّي , الديوان / 3 / 198 .

3 (ابن الجهم , علي , الديوان / 122 .

4 (المنتبّي , الديوان / 3 / 51 .

رَأَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الْحُبِّ أَسْوَةً فَمَاتُوا وَمَوْتُ الْحُبِّ ضَرْبٌ مِنَ الْقَتْلِ (1)

والبحتريّ يعدّ أنّ قتل الحبّ لهم كقتل السيّف , أي ضرباً من ضروب القتل , لأنّ فيه تعذيباً للمحبّين , أدّى إلى القضاء عليهم , فيكون طرف آخر ساهم في عمليّة القتل ألا وهو الحبّ . أما المتنبّي فقد ذهب إلى أبعد من ذلك , فإن كان الحبّ مصدرّاً من مصادر التعذيب النّفسي لدى البحتريّ , فإنّ الزّمان وصروفه يحتلّ تلك المكانة ويقوم بالمسؤولية نفسها , فتقلّبات الزّمان وتأثيره على الإنسان بما يجلبه من مصائب وأوزار لا يقدر الإنسان على تحملها , توهي من عزمه وتوصله إلى الموت . وهذا التعذيب النّفسي لا يقلّ وطأة عن التعذيب البدنيّ , ومن هنا عدّ المتنبّي الموت الحاصل جرّاء المعاناة الحياتيّة نوعاً من القتل الذي هو أشدّ عنفاً وضراوة من الموت الطّبيعيّ المفاجئ .

ويقول المتنبّي :

فَإِنَّ الْجُرْحَ يَنْفِرُ بَعْدَ حِينٍ إِذَا كَانَ الْبِنَاءُ عَلَى فَسَادٍ (2)

فيرى المتنبّي أنّ أعداء ممدوحه يطوون له العداوة في أنفسهم إلى أن تمكنهم الفرصة , لذلك يطلب إليه المتنبّي ألا يبيّهم ضارباً المثل بالجرح الذي يرمّ على فساد , فيكون بناؤه على غير قواعد , فيكون الفساد أقرب إليه من الصّلاح , وهو هنا متأثر لفظاً ومعنى بقول البحتريّ :

إِذَا مَا الْجُرْحُ رُمَّ عَلَى فَسَادٍ تَبَيَّنَ فِيهِ تَفْرِيطُ الطَّبِيبِ (3)

يلاحظ هنا تقارب ألفاظ الشّاعرين , واشتراكهما بالمعنى الذي يتعلّق ببناء الجسم الإنسانيّ

1 (البحتري , الديوان 1 / 408 .

2 (المتنبّي , الديوان 1 / 363 .

3 (البحتري , الديوان 1 / 440 .

ويتواصل المتنبي مع ابن المعتز في توضيح رؤيته وموقفه من الحياة , فيقول :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم⁽¹⁾

فيهجو المتنبي ابن كيلغ من خلال التعريض به بقوله : إن العاقل يشقى وإن كان في نعمة , لتفكره في عواقب الأمور , وعلمه بتغيير الأحوال , والجاهل ينعم لغفلته , وعدم تفكره في عواقب الأمور مستلهماً قول ابن المعتز الذي يبين أن الدنيا جميلة في نظر الإنسان الجاهل , ومرة في نظر الإنسان العاقل :

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا⁽²⁾

كما يتواصل المتنبي مع ابن الرومي , فيقول :

وتفوح من طيب الثناء روائح لهم بكل مكانة تستنشق⁽³⁾

فيمدح المتنبي شجاع محمد بن أوس الرضاء الأزدي , فهو يتميز بالشهرة والذكر الحسن في كل مكان لكثرة المثنيين عليه , كالرائحة الطيبة التي تنتشر بالآفاق مستوحياً معناه ولفظه من قول ابن الرومي :

أعقبته من طيب ريحك نفحة كادت تكون ثناءك المسموعا⁽⁴⁾

استيحاء صور الشعراء

ويستوحي المتنبي كثيراً من صورته ممن سبقه من الشعراء ومن الأمثلة على ذلك

تواصله مع امرئ القيس حينما يشيد بفروسيته وفروسيته من معه بقوله :

يتقبلون ظلال كل مطهم أجل الظليم وربقة السرحان⁽¹⁾

⁽¹⁾ المتنبي , الديوان 4 / 124 .

⁽²⁾ نفسه 4 / 124 .

⁽³⁾ نفسه 2 / 338 .

⁽⁴⁾ ابن الرومي , الديوان 2 / 537 .

فيصف المتنبّي سرعة خيولهم , وهي إذا ما طردت النعام والذئاب أدركتها , فقتلتها
ومنعتها من العدو مستوحياً قول امرئ القيس :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ (2)

فكلا البيتين في وصف الخيل إلا أنّ المتنبّي زاد على قوله أجل الظليم , فاستحق المعنى
بهذه الزيادة .

ويرسم المتنبّي صورة جميلة تبيّن رقة وجه ومدوحه وجماله , وشدة حيائه ,

فيقول:

وَرِقَّةٌ وَجْهٌ لَوْ خَتَمَتْ بِنَظْرَةٍ عَلَى وَجَنَّتَيْهِ مَا انْمَحَى أَثَرُ الْخَتَمِ (3)

فمدوح المتنبّي الحسين بن اسحق التتوخي يتميز برقة وجهه الذي ينم عن كرمه وحيائه ,
حتى إنه لو نظر إليه ناظر لظهر أثر ذلك النظر على وجهه لرقته كأثر الختم الذي لا
يختفي , مستوحياً قول امرئ القيس حينما وصف امرأة أحبها في رحلته إلى قيصر الروم
لطلب المناصرة منه في قوله :

مِنَ الْفَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحُولٌ مِّنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لِأَثَرِهَا (4)

فمحبوبة امرئ القيس رقيقة وناعمة , حتى إنه لو مرّ فوق اتبها " قميصها " الصّغير من
الذرّ لأثر في جلدها , والمتنبّي بذلك نقل معنى امرئ القيس من الغزل إلى المديح .

ويمدح المتنبّي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب بقوله :

مُنْفَرِّقُ الطَّعْمَيْنِ مُجْتَمِعُ الْقُوَى فَكَأَنَّهُ السَّرَاءُ وَالضَّرَاءُ (5)

(1) المتنبّي , الديوان , 4 / 179 .

(2) امرؤ القيس , الديوان / 51 .

(3) المتنبّي , الديوان 4 / 55 .

(4) امرؤ القيس , الديوان / 96 .

(5) المتنبّي , الديوان 1 / 25 .

فيصور المتنبي قوى ممدوحه بأنها مجتمعة غير متفرقة , وفيه حلاوة لأوليائه ومرارة لأعدائه , ويتمثل المتنبي صورة لبيد في قوله :

مُمَقَّرٌ مُرٌّ عَلَى أَعْدَائِهِ وَعَلَى الْأَدْنَيْنِ حُلُوٌّ كَالْعَسَلِ (1)

حينما وصف أخاه أربد بأنه شديد على أعدائه , وفيه حلاوة لأوليائه . فالمتنبي تشرّب هذه الصورة , وصاغها بلغته .

ويتواصل المتنبي مع جرير , فيقول :

يُرُونَ مِنَ الذُّعْرِ صَوْتَ الرِّيحِ صَهِيلَ الجِيَادِ وَخَفَقَ البُنُودِ (2)

إن الأعداء لما هربوا من الممدوح , كانوا يظنون من شدة خوفهم وفزعهم صوت الرياح صهيل الخيول , مستوحياً صورة جرير في قوله :

مَا زِلْتَ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلاً تَكُرُّ عَلَيْكُمْ وَرِجَالاً (3)

وجرير يهجو في البيت الأخطل وقومه , فيصفهم بأنهم من شدة خوفهم وذعرهم يظنون كل شيء خيلاً وفرساناً يغيرون عليهم . والمتنبي ضمن عجز بيت جرير , معيداً بناءه بما يتسق وتجربته الشعرية , فجرير جعل كل شيء يخيفهم , أما المتنبي فقد خصّ الرياح بذلك .

ويتواصل المتنبي مع الطرماح , فيقول :

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِباً (4)

(1) لبيد , الديوان / 155 .

(2) المتنبي , الديوان / 1 / 344 .

(3) جرير , الديوان / 1 / 53 .

(4) المتنبي , الديوان / 1 / 111 .

فیشبه المنتبّي محبوبته بشعاع الشّمس في القرب من الطّرف , واستحالة القبض عليه ,
مستوحياً صورته من قول الطّرمّاح الذي يشبه فيه نفسه بالشّمس حين تتوسط السّماء ,
حيث إنّ العيون تراها إذا اقتربت , ولكن لا يستطيع أحد أن يصل إليها :

أنا الشّمسُ لما أن تغيبَ ليُها
وَعَارَتِ فَمَا تَبْدُو لِعَيْنِ نَجْمِهَا
تَراها عِيونُ الناظِرِينَ إذا بَدَتْ قَرِيباً وَلَا يَسْطِيعُهَا مَنْ يَرُومُهَا (1)

والصّورة رغم أنّها مستمدّة من شعر القدماء الذين شبّهوا وجه المرأة بالشّمس جديدة كلّ
الجدة بهذا الجمال المتمنّع كشعاع شمس يأخذ العين فتراها قريباً منها , وتعبي الكفّ عن
قبضه مع أنّه يظلّ في مكانه مقيماً (2).

ويتواصل المنتبّي مع أبي نواس , فيقول :

يَتَعَثَّرْنَ بِالرُّؤُوسِ كَمَا مَرَّ
رَبَاتَاتِ نَطْقِهِ التَّمْتَامُ (3)

فيصور المنتبّي حركة الخيول في أرض المعركة , حيث كانت تتعثّر برؤوس القتلى من
الأعداء , ممّا عاق حركتها وسرعة عدوها مستوحياً الصّورة التي رسمها أبو نواس لرجل
قد أثقلت الخمرة حواسّه , فأصبح يتعلثم في حديثه كالفأفأ , فجعل تعثر الخيل في سيرها
كتردد التّمّام في حروف التّاء إذا حاول النطق بها , حيث يقول :

وَشَكَا إِلَيَّ لِسَانُهُ مِنْ سُكْرِهِ
بِتَلَجُّجٍ كَتَلَجُّجِ الْفَأْفَاءِ (4)

ويتكرّر هذا النمط من التشبيه لدى المنتبّي بصورة مختلفة حينما يصور تبدّد شمل
القبيلتين بين ما تبدّد من القبائل التي هربت من بين يدي سيف الدّولة فقلنا وخفيتا خفاء
راعين في لفظ الألتغ إذا كرّرها في قوله :

1 (ابن حكيم , الطرمّاح , الديوان / 435 .

2 (ينظر الهاشم , جوزف , أبو الطيب المنتبّي - شاعر الطموح والعنفوان / 83 .

3 (المنتبّي , الديوان , 4 / 98 .

4 (أبو نواس , الديوان / 20 .

قُشِيرٌ وَبَلْعَجَانٍ فِيهَا خَفِيَّةٌ كَرَاءَيْنِ فِي أَلْفَاظِ أَثَغَ نَاطِقِ (1)

ويتواصل المتنبي مع دعبل الخزاعي في قوله :

بِلَادٍ إِذَا زَارَ الْحِسَانَ بَغَيْرِهَا حَصَى تُرْبَهَا ثَقْبَهُ لِلْمَخَانِقِ (2)

يفصف المتنبي تراب تلك الأرض الذي ينوب عن العنبر , وحصاها الذي ينوب عن الدر والياقوت , فالنساء الحسان بأرض غيرها يتقبنه كما يتقب اللؤلؤ ويتحلين به , وينظمنه في

عقودهن وهو في قوله هذا يستلهم صورته من قول دعبل الخزاعي :

فَكَأَنَّمَا حَصَبَاؤُهَا فِي أَرْضِهَا خَرَزُ الْعَقِيقِ نُظْمَنَ فِي سَلِكِ (3)

فكلا الشاعرين صور حصى الأرض بالعقد.

ويتواصل مع ابن الرومي في تصوير بعض فئات المجتمع المنحرفة , فيقول :

مَا زِلْتُ أَعْرِفُهُ قِرْدًا بِلَا ذَنْبٍ صِفْرًا مِنَ الْبَاسِ مَمْلُوءًا مِنَ النَّزْقِ (4)

ويهجو المتنبي اسحق بن كيلج , فهو لا يزال يعرفه في صورة القرد إلا أنه لا ذنب له , ويعرفه جباناً فارغاً من الشجاعة إلا أنه قد امتلأ حمقاً وطيشاً مستوحياً قول ابن الرومي

في هجائه الخصيان :

مَعَشَرٌ أَشْبَهُوا الْقُرُودَ وَلَكِنْ خَالَفُوهَا فِي خِفَّةِ الْأَرْوَاحِ (5)

فاين الرومي يهجو فئة من المجتمع " الخصيان " ذات عادات سيئة , بتشبيهم بالقرود في الجبن والحماقة والطيش , وكنى عن ذلك بخفة الأرواح .

توظيف مواقف الشعراء وقصصهم

(1) المتنبي , الديوان , 2 / 324 .

(2) نفسه 2 / 318 .

(3) الخزاعي , دعبل , الديوان / 145 .

(4) المتنبي , الديوان 2 / 359 .

(5) ابن الرومي , الديوان 1 / 588 .

ويوظف المتنبي بعض قصص الشعراء ومواقفهم , ومن الأمثلة على ذلك قصة

عروة بن حزام في بكائه على صاحبه عفراء , فيقول :

فَكَانَ كُلَّ سَحَابَةٍ وَكَفَّتْ بِهَا تَبْكِي بَعِيْنِي عُرْوَةَ بْنِ حِزَامٍ (1)

ويوظف هذه القصة في وقفة طليئة , ليشبه هطلان السحاب على تلك الدمن ببكاء عروة بن حزام على فراق صاحبه , ليدل على كثرة ما تجري عليها من السحب من الأمطار , بدليل أنها محت آثار تلك الديار .

ويستوحى المتنبي قصة عشق مجنون ليلي في مدحه المغيـث بن علي العجلي ,

فيقول :

تَلَذُّ لَهُ الْمُرْوَعَةُ وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعشُقْ يَلْذُّ لَهُ الْغَرَامُ

تَعَلَّقَهَا هَوَى قَيْسٍ لِلَيْلَى وَوَاصلَهَا فَلَيْسَ بِهِ سَقَامُ (2)

فممدوح المتنبي يعشق المروعة , ويجد فيها لذة , كما عشق المجنون ليلي العامرية , غير أن ممدوحه واصل المروعة رغم ما تتطوي عليه من تكاليف وتعب ونصب , فلم يورثه حبها سقماً , كما أورث عشق ليلي قيساً الجنون حين لم يجد إلى وصلها سبيلاً . فغرض المتنبي من توظيفه هذه القصة إظهار عشق ممدوحه الكرم , وما يؤول إليه حاله بسبب الكرم .

توظيف الأمثال في شعر المتنبي

ويستوحى المتنبي كثيراً من الأمثال في شعره , ومن الأمثلة على ذلك استيحاؤه

المثل القائل : " لو ذات سوار نطمتني " (3) في قوله :

(1) المتنبي , الديوان 4 / 71 .

(2) نفسه 4 / 75 .

(3) الميداني , مجمع الأمثال 3 / 70 .

رَمَانِي خِسَاسُ النَّاسِ مِنْ صَائِبِ اسْتِهِ وَآخِرُ قُطْنٍ مِنْ يَدِيهِ الْجَنَادِلُ (1)

فِيْبِيْنِ الْمَتْنَبِيِّ أَنْ لَهُ شَأْنًا عَظِيمًا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَرَاذِلَ النَّاسِ يَعْيِبُونَهُ بِعُيُوبِ هِيَ فِيْهِمْ ، وَآخَرُونَ لَمْ يُوَثِّرْ قَوْلُهُمْ فِيْهِ لِحَقَارَتِهِمْ ، فَهُوَ يَسْتُوْحِي هَذَا الْمَثْلَ لِيْبِيْنِ أَنَّ اللَّئِيمَ يُمْكِنُ أَنْ يَظْلِمَ الْكَرِيمَ .

ويستثمر المثل في رسم صورة من صور مجتمعه ، حيث يقول :

مَنْ لِيْ بِفَهْمِ أَهْلِ عَصْرِ يَدَّعِي أَنْ يَحْسَبَ الْهِنْدِي فِيْهِمْ بِأَقْلٍ (2)

فَهُوَ يَسْخَرُ مِنْ حَسَادِهِ وَعَدَالِهِ ، وَيَصْفَهُمْ بِالْجَهْلِ ، وَالْبَعْدَ عَنِ الْفَضَائِلِ ، فَهُمْ لَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْجَاهِلِ ، وَلَا النَّاقِصِ مِنَ الْفَاضِلِ . فَيَقُولُ : مَنْ يَكْفُلُ لِيْ بِفَهْمِ أَهْلِ عَصْرِ يَدَّعُونَ أَنَّ بَاقِلًا كَانَ يَعْلَمُ حِسَابَ الْهِنْدِ مَعَ سُوءِ عِلْمِهِ بِالْحِسَابِ ؟ وَهُوَ هُنَا يُوظِّفُ الْمَثْلَ " أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ " (3) لَفْظًا وَمَعْنَى وَقَافِيَةٍ لِمُسَاعَدَتِهِ رَسْمَ صُورَةِ حَسَادِهِ وَعَدَالِهِ وَبَعْدَهُمْ عَنِ الْفَضَائِلِ .

ويمدح المتنبي أبا الفضل بقوله :

إِذَا لَمْ تُجْزِهِمْ دَارَ قَوْمٍ مَوَدَّةً أَجَازَ الْقَنَا وَالْخَوْفُ خَيْرٌ مِنَ الْوُدِّ (4)

فِيَصِفُ جَيْشَ الْمَمْدُوحِ بِقَوْلِهِ : إِذَا بَلَّغُوا فِيْ أَسْفَارِهِمْ مَنَازِلَ قَوْمٍ لَا تَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةً ، أَجَازَتْهُمْ رِمَاحُهُمْ ، فَلَمْ يَخَافُوا أَهْلَ النَّاحِيَةِ ، وَأَنْ تَخَافَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُحِبَّ لِأَنَّ مِنْ أَطَاعَكَ خَوْفًا مِنْكَ ، كَانَ أَبْلَغَ طَاعَةٍ فِيْ هَذِهِ الْحَالَةِ . مُسْتُوْحِيًّا الْمَثْلَ الْقَائِلُ : " رَهْبُوتُ خَيْرٌ مِنْ رَحْمُوتٍ " (5) أَي لَأَنَّ تَرَهَّبَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَحَّمَ .

1 (المتنبي ، الديوان 3 / 174 .

2 (نفسه 3 / 260 .

3 (الميداني ، مجمع الأمثال 2 / 320 .

4 (المتنبي ، الديوان 2 / 62 .

5 (الميداني ، مجمع الأمثال 2 / 25 .

ويمدح سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابي المنبجي :

تُرَابُهُ فِي كِلَابٍ كُحْلٌ أَعْيُنُهَا وَسَيْفُهُ فِي جَنَابٍ يَسْبِقُ الْعَدْلَا (1)

فبيّن المتنبّي حبّ قبيلة الممدوح - كلاب - له , فهم لشدة حبّهم له يكتحلون بالتراب الذي يمشي عليه . وسيفه في جناب - وهم قبيلة عدوه - يسبق ملامة من يلومه في قتلهم , وهو بقوله : " يسبق العدلا " يستوحي المثل القائل : " سبق السيّف العدل " , وأصل هذا المثل أنّ رجلاً في الجاهليّة قتل قاتل ابنه في الحرم , فقال له الناس بعد أن لاموه : قتلت في الشهر الحرام ! فقال : " سبق السيّف العدل " فأرسلها مثلاً ومعناه : قد سبق من الفعل ما لا سبيل إلى رده . (2) ليشير إلى شقاء أعداء الممدوح بعداوته .

كما يصور المتنبّي معاناته وغرخته عن أهله ووطنه وحيرته في قوله :

لَقَدْ لَعِبَ الْبَيْنُ الْمُشْتَبِهَا وَبِي وَزَوَدَنِي فِي السَّيْرِ مَا زَوَدَ الضَّبَّ (3)

حيث فارق المتنبّي محبوبته من غير أن يودعها , ولم يوفّق في العودة إلى وطنه والاجتماع بها موظفاً المثل : " أخير من ضبّ " (4) , لمساعدته في التعبير عن حالته الوجدانية , فكما أنّ الضبّ لا يهتدي إلى جحره إذا خرج منه , فكذلك المتنبّي لم يوفّق في الرجوع إلى وطنه والاجتماع مع أحبته . كما أنّ الضبّ لا يتزوّد بالماء في الصّحراء , كذلك اليبين منع المتنبّي من التزوّد بالحبّ .

ويستوحي المتنبّي في مدح عليّ بن أحمد بن عامر أحمد الأنطاكي المثل القائل :

" تسمع بالمعيديّ خيراً من أن تراه " , ويضرب لمن خبره خير من مرآه . (5) , فيقول :

1 (المتنبّي , الديوان 3 / 167 .

2 (الميداني , مجمع الأمثال 2 / 86 .

3 (المتنبّي , الديوان 1 / 60 .

4 (الميداني , مجمع الأمثال 1 / 348 .

5 (الميداني , مجمع الأمثال 1 / 196 .

وَمَا زِلْتُ حَتَّى قَادَنِي الشُّوقُ نَحْوَهُ يُسَايِرُنِي فِي كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ
وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلَمَّا التَّقَيْنَا صَغَرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ (1)

انتشر ذكر الممدوح بين الناس ، فأصبح المنتبّي يستعظم كل ما يسمعه عنه ويستكبره حتى زاره وخبره ، فوجده أعظم مما يسمع عنه . فكما أنّ النعمان وجد مخبر المعيدي أفضل من منظره ، فكذلك المنتبّي وجد الممدوح فوق ما وصف له .

ويمدح المنتبّي سيف الدولة ، فيقول :

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانَ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَهُ وَالنَّزَالَ (2)

فيرضّ المنتبّي بالروم بقوله : إن الجبان إذا كان منفرداً بعيداً عن الأقران ، يطلب الطعان والمنازلة ، فإذا شعر بقوة مقاتله رجع إلى طبعه وفرّ ، وهذا شأن الروم مع سيف الدولة ، فهم شجعان ما لم يروه مستوحياً المثل : "كُلٌّ مَجْرٍ فِي الْخَلَاءِ يُسْرُ" (3) ، ليصورّ سيف الدولة بالشجاعة والإقدام وقوة البأس ، والأعداء بالجبان المغرور الذي يتظاهر بالشجاعة .

ويمدح المنتبّي سيف الدولة ساخراً بدمستق الروم ، فيقول :

يُسْرُ بِمَا أَعْطَاكَ لَا عَنُ جِهَالَةٍ وَلَكِنْ مَغْنُومًا نَجَا مِنْكَ غَانِمٌ (4)

فيسرّ الدّمستق بما غنمه سيف الدولة من جيشه ، لأنّ هذه الغنائم كانت له بمثابة الفداء ، إذ نجا هو ، وانشغل عسكر سيف الدولة بها عنه ، فكانت سبباً لأن ينجو بنفسه وهو هنا

1 (المنتبّي ، الديوان 2 / 155 .

2 (نفسه 3 / 143 .

3 (الميداني ، مجمع الأمثال 3 / 11 .

4 (المنتبّي ، الديوان 3 / 391 .

يستوحي معنى المثل القائل : " السّلامة إحدى الغنيمتين " (1) ليرسم صورة سيف الدّولة

الشّجاع مهيب الجانب , وصورة العدو الذي يعدّ النّجاة من المعركة غنيمة .

وهكذا يتبيّن لنا أنّ أبا تمام والمنتبّي تواصلوا مع التّراث الأدبيّ بمختلف أشكاله

وأنواعه , آخذين منه ما يتّسق وتجربتهما الشعريّة , ومظهرين براعة فائقة في تعاملهما

مع النّصوص الأدبيّة التي تمثلها أو أدخلها في بنية شعرهما , حيث طبعها كلّ منهما

بطابعه الخاصّ من خلال تحميلها شحنات خاصّة تعبّر عن رؤى كلّ منهما بأجمل

صياغة.

واختلفت طريقة أبي تمام في تواصله مع التّراث الأدبيّ عن المنتبّي , حيث أوقفنا على

أسماء طائفة من الشعراء الذين اطّلع على شعرهم , وبما رصده من أخبار دقيقة تتعلّق ببعضهم من

ناحية أخرى , وعلى عادته انطلق من المتناقضات حتّى فيما عرض من أسماء عرف أصحابها

بأنهم رجال حرب وشعراء قتال مثل عمرو بن كلثوم واضعاً في مقابلهم آخرين بعيدين عن الغزو ,

بل فضلوا شريعة السّلم والعطاء السّخي مثل حاتم الطّائي . وفي دائرة المتناقضات أيضاً يورد

أسماء شعراء الحرب , ويضع أمامهم مجموعة أخرى لا صلة لها بالقتال , بل ارتضت لنفسها حياة

اللّهو والتّرف والتّغزل بالنّساء والنّسيب بهن . وفي مقابل ما يعدّد من شعراء اللّهو والمجون

يستشهد في أكثر من موضع بمن عرفوا بحكمتهم وفصاحتهم من شعراء وخطباء لهم مكانة هامّة

في التّاريخ الأدبيّ .

أما المنتبّي فقد بنى طريقته في التّعامل مع التّراث الأدبيّ على استيعاب كثير من أشعار

السّابقين , فأصبحت معانيها وألفاظها وتراكيبها وصورها مادة ترفده بقصد أو بغير قصد جاعلاً

النّص المستدعى جزءاً من مكونات نصّه الشعريّ . ورغم تأثر المنتبّي بالقدماء , إلا أنّه لم يكن

1 (الميداني , مجمع الأمثال 2 / 129 .

صورة مطابقة لهم , كما لم يكن مقلداً أو مسلوب الإرادة , بل احتفظ في شعره بشخصيته وبروح عصره , فجاءت أشعاره موافقة لرؤيته وموقفه الشعوري الخاص به.

الفصل الثالث

التراث التاريخي في شعر أبي تمام والمتنبي

التراث التاريخي في شعر أبي تمام والمنتبي

تنبه النقاد القدماء إلى أهمية التاريخ , ولذلك حثوا الشعراء على التزود بالأخبار القديمة .
كما أورد ابن رشيق في قوله عن الشاعر : " وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر , ومعرفة النسب
وأيام العرب ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار وضرب الأمثال , وليعلق بنفسه بعض
أنفاسهم , ويقوى طبعه بقوة طباعهم " (1) .

التراث التاريخي في شعر أبي تمام

تعدّ الثقافة التاريخية المصدر الثالث من مصادر ثقافة أبي تمام , وهو من أغنى مصادره
في المعاني وأغزرها , ويرجع ذلك إلى سعة ثقافته التاريخية التي أفاد منها , وتقنن في صياغتها
معاني مختلفات (2) .

شخصيات تاريخية :

كان تكرار أبي تمام أسماء الأعلام وبخاصة في مفاخره ومدائحه من مقومات قصيدته ,
وهي من المواد التاريخية الواقعية , فهي أسماء لها هالات من الفخر القديم , والمآثر الحميدة
كالرؤساء والقادة والفرسان والأجواد أو من ذوي الصفات والسجايا المستحبة أو ممن كانت لهم
مواقف مشهورة , أو اشتهروا بسمات خاصة . ففي معرض حديثه عن فتح عمورية , يشير إلى
الإسكندر المقدوني , وكسرى وأبي كرب أحد ملوك التبابعة , وذلك في قوله :

وَبَرَزَةِ الْوَجْهِ قَدْ أَعَيْتَ رِيَاضَتُهَا كِسْرَى وَصَدَّتْ صُدُودًا عَن أَبِي كَرِبِ
يَكْرُ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النُّوبِ
مِنْ عَهْدِ إِسْكَندَرَ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِبِ

(1) العمدة 1 / 177 .

(2) ينظر الربدابي , محمود , الفن والصناعة في مذهب أبي تمام / 146 .

حَتَّى إِذَا مَخَّضَ اللَّهُ السَّنِينَ لَهَا مَخْضَ الْبَخِيلَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ الْحِقَبِ (1)

فأبو تمام يبيّن عظمة فتح المعتصم مدينة عمورية وذلك من خلال الإشارة إلى هاتين الشخصيتين فعمورية مدينة عريقة قديمة , فمنذ عهد الاسكندر وأبي كرب تتعصّى على الدهر الذي يهرم ويشيب من دونها . ويبدو أنّ هذه المدينة تأبّت على الفرس , حتّى إنّ كسرى قد أرق وأعيا من متابعة احتلالها وامتلاكها , وكانت فوق مقدرة ملوك التبابعة على التفكير بها وإمكان اقتحامها , وهذا إيحاء بوجود المنعة والتحصينات لحمايتها . وبخاصّة أنّ كسرى له إهابه التاريخي , حيث يمنح التجربة حالات لا نهائية من الإيحاءات على الفتوح والانتصارات , ومثله أبو كرب وإن كان أقلّ إيحائية .

ويوظّف أبو تمام كسرى في مدحه لإسحق بن إبراهيم فيقول :

رَاحَ التَّنَصُّلُ مَعْقُوداً بِالسُّنْبِهِمِ لَمَّا غَدَا السَّيْفُ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَكْماً

كَانُوا عَلَى عَهْدِ كِسْرَى فِي الزَّمَانِ وَلَنْ يَسْتَشْرِيَ الْخَطْبُ إِلَّا كُلَّمَا قَدُمَا (2)

ويشيد أبو تمام بقتل الممدوح هؤلاء الأعداء , لكثرة إثارتهم الفتن والشر منذ عهد كسرى فهو هنا ذكر كسرى , ليؤكد على أنّ الشر مزروع فيهم منذ القدم , فهم يستحقون المصير الذي آلوا إليه , فهم قوم لا يتعظون بما حدث لهم فيما مضى .

ويوظّف قصّة كسرى مع قيصر في قوله :

تُرْفُ إِلَيْكُمْ يَا بَنَ نَصْرٍ كَانَهَا حَلِيلَةُ كِسْرَى يَوْمَ آوَاهُ قَيْصَرُ (3)

فيفخر أبو تمام بشعره في خاتمة قصيدته , حيث يشبه قصيدته بأنها جميلة كحليّة كسرى .

ويتواصل أبو تمام مع النعمان بن المنذر في قوله :

وَكَأَنَّمَا أَهْدَى شَقَائِقَهُ إِلَى وَجَنَاتِهِنَّ بِهَا أَبُو قَابُوسَا (1)

(1) أبو تمام , الديوان / 1 / 47 - 49 .

(2) نفسه / 3 / 171 .

(3) نفسه / 2 / 217 .

يتبادر إلى ذهن أبي تمام شقائق النعمان ، حينما يصف حمرة خدود الفتيات الجميلات ، فكأنها مهداة من النعمان لجمالها ، وهذه الشقائق نسبت إليه لأنه وقف على شقيقة قد أنبتت هذا النور ، فأمر أن يحمى فقيل شقائق النعمان⁽²⁾.

ويتواصل مع كل من قيس بن زهير⁽³⁾ والحارث بن مضا⁽⁴⁾ اللذين عرفا بأشد غربة وأطولها عرفتها العرب ، فيقول :

إِنَّ خَيْرًا مِمَّا رَأَيْتُ مِنَ الصَّفِّ حِ عَنِ النَّائِبَاتِ وَالْإِعْمَاضِ
 غُرْبَةً تَقْتَدِي بِغُرْبَةِ قَيْسِ بـ نِ زُهَيْرٍ وَالْحَارِثِ بْنِ مُضَا
 غَرَضًا نَكَبْتَيْنِ مَا فَتَلَا رَأً يَا فَخَافَا عَلَيْهِ نَكْثَ انْتِقَاضِ⁽⁵⁾

فقد قرّر أبو تمام أن يغترب غربة تقتدي بغربة هذين الرجلين ، وذلك لفراق محبوبته له ، حيث يرى أنّ هذه الغربة أفضل من الصبر على نائبات الدهر.

كما يتواصل أبو تمام مع الحارث بن عبّاد⁽⁶⁾ في موقفه من الحرب ، وذلك في قوله :

لَا تُتَكْرَنَ أَنْ يَشْتَكِيَ ثَقْلَ الْهَوَى بِدَنِي فَمَا أَنَا مِنْ بَقِيَّةِ عَادِ

كَمْ وَقَعَةٍ لِي فِي الْهَوَى مَشْهُورَةٍ مَا كُنْتُ فِيهَا الْحَارِثَ بْنَ عَبَّادِ⁽¹⁾.

(1) أبو تمام ، الديوان 2 / 264.

(2) نفسه 2 / 264.

(3) قيس بن زهير هو أمير عيس وداهيتها الذي قاد قومه في حروب داحس والغبراء ، ثم زهد آخر

عمره ، ثم رحل عن ديار قومه إلى عمان. ينظر البغدادي ، خزنة الأدب 3 / 536.

(4) الحارث بن مضا : من قبيلة جرهم كان يتولى رعاية البيت الحرام، ثم خرج من بلاده حتى ضربت الأمثال باغترابه. ينظر المسعودي ، مروج الذهب 2 / 50 وأبو تمام ، الديوان 2 / 309 - 310.

(5) أبو تمام ، الديوان 2 / 309 - 310.

(6) الحارث بن عبّاد بن قيس بن ثعلبة البكري من العراق (? - 74 ق.هـ) ، أحد فحول شعراء الطبقة الثانية، وأحد سادات العرب وحكمائها وشجعانها، انتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب وفي أيامه كانت حرب البسوس فاعتزل القتال مع قبائل من بكر. ثم إن المهلهل قتل ولدا له اسمه بجير ظلماً، حين أرسله في الصلح وبلغ من حلمه وحكمته أن يكون دمه سبباً للصلح ، ولكن المهلهل ازداد في تجبره ، وعد دم بجير كفاء شسع نعل أخيه كليب ، فثار الحارث ونادى بالحرب ، ونصرت به بكر على تغلب وأسر المهلهل. ينظر ، الأصفهاني ، الأغاني 5 / 31.

ذكر الحارث في مقدمة غزليّة مخاطباً صاحباً له عدله في هواه , فبيّن أبو تمام له أنه لن يتراجع عن موقفه من الحبّ, ويفقد صبره كما فعل الحارث في موقفه حينما تراجع عن موقفه من الحرب .

ويتواصل مع الحارث بن عبّاد مرّة أخرى في تحذيره لبني مالك التغلبيين من مغبة التمرد

على ممدوحه أبي سعيد الثغري , فيقول :

أَتَاكُمْ سَكِيلُ الْغَابِ فِي صَدْرِ سَيْفِهِ سَنَّا لِدُجَى الْإِظْلَامِ وَالظُّلْمِ هَاتِكُ
أَلْحَ وَمَا حَكْتُمْ وَلِلْقَدْرِ التَّقَى غَرِيْمَانِ فِي الْهَيْجَا مُلْحٌ وَمَا حَكُ
هُوَ الْحَارِثُ النَّاعِي بَجِيرًا وَإِنْ يُدِنَ لَهُ فَهُوَ إِشْفَاقًا زُهَيْرٌ وَمَالِكُ (2).

فبيّن أبو تمام لبني مالك أنّ الممدوح سيكون لهم كالأب الحاني إن أطاعوه , فسيكون لهم بمثابة آبائهم زهير بن جذيمة العبسي ومالك بن زهير فيشفق عليهم ويحسن إليهم , ولكن إذا استمروا في تمردهم وغيبهم , فسيكون لهم كالحارث بن عبّاد في غضبته حينما قتل بجير , فاستيحائه لموقف الحارث كان تهديداً لهم بشكل غير مباشر .

ومن زعماء قريش يتواصل مع قصي بن كلاب الملقّب بالمجمع (3) في قصيدة يرثي فيها

إدريس بن بدر الشاميّ القرشيّ :

وَمَاتَتْ نَفُوسُ الْغَالِبِيِّنَ كُلِّهِمْ وَإِلَّا فَصَبْرُ الْغَالِبِيِّنَ أَجْمَعُ
غَدَوْا فِي زَوَايَا نَعْشِهِ وَكَأَنَّمَا قُرَيْشٌ قُرَيْشٌ يَوْمَ مَاتَ الْمُجْمَعُ (4)

(1) أبو تمام , الديوان 126 / 2 .

(2) نفسه 460 / 2 - 461 .

(3) لقب بالمجمع لأنه جمع قريشا حوله حينما أخرج خزاعة من مكة المكرمة, وأحل قريشا محلهم في رعاية البيت , وتولى هو نفسه قيادة ذلك ينظر ابن سعد , الطبقات الكبرى 1 / 71 وأبو تمام , الديوان 95/4 .

(4) أبو تمام , الديوان 95/ 4 .

فيشير أبو تمام إلى مكانة المرثي بالنسبة إلى قومه وأهميته ، حيث كان بمثابة قصي بن كلاب لقريش ، كما يصورّ وقع موته في نفوسهم ، إذ وجدوا عليه حتى نفذ صبرهم ، ممّا ذكره بحزن قريش على قصي بن كلاب يوم وفاته ، فربط بين هذين الموقفين .

وحيثما يمدح الفضل بن صالح الهاشمي⁽¹⁾، فإنه يتواصل بشكل غير مباشر مع جده هاشم

ابن عبد مناف والهاشميين من بعده :

ذو تَدْرٍ وَإِبَاءٍ فِي الْأُمُورِ وَهَلْ جَوَاهِرُ الطَّيْرِ إِلَّا فِي جَوَارِحِهَا

هَشْمًا لِأَنْفِ الْمُسَامِي حَيْثُ فَسَمَا نِهَاشِمٍ فَضَلُّهَا فِيهَا ابْنُ صَالِحِهَا⁽²⁾

فيحذرّ أبو تمام حاسد ممدوحه الذي سعى بوشاية به إلى الخليفة ، ويبين له أن هذا الممدوح حدّ يدفع به العدو والخصم ، فمن أراد أن يحين موعد حينه وهلاكه ، فليرتفع لمبارزة هاشم ، وفيها ممدوحه الفضل ذو العزة والمنعة والقوة.

ويتواصل في مدح محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي⁽³⁾ مع كلّ من عبد المطلب

ابن هاشم وابنه العباس وذلك في قوله :

مَنْ ذَا كَعْبَاسِهِ إِذَا اصْطَكَّتِ الْـ أ حَسَابُ أَمْ مَنْ كَعَبِدِ مُطَّلِبِهِ⁽⁴⁾

فيشيد أبو تمام بشرف نسب ممدوحه وعراقته ، فهو يتفوق على من حوله بهذا النسب المتصل بالنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أشرف الخلق والمرسلين .

(1) الفضل بن صالح الهاشمي وهو والي دمشق ، وهو الذي عمل الأبواب للمسجد والقبة التي في الصحن وتعرف بقبة المال. ينظر ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق 318 / 48 .

(2) أبو تمام ، الديوان 351 / 1 .

(3) محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، شاعر وأديب كان ينزل قنسرين ، وله مع المأمون خبر ، بقي إلى أيام المتوكل ، وجرت بينه وبين أبي تمام مخاطبات . ينظر الصفدي ، الوافي بالوفيات 35 / 4 .

(4) أبو تمام ، الديوان 273 / 1 .

أما زيد الخيل فارس طيء في جاهليتها وإسلامها (1)، فقد تواصل معه أبو تمام في

قصيدة رثى بها قحبة بن حميد الطائي :

اليوم أدرج زيد الخيل في كفنٍ وأنحلَّ معقود دمع الأعين الهتن (2)

يعدّ أبو تمام المرثي بمتابة زيد الخيل ، فساد الحزن والبكاء ، وذلك لأنّ المرثي يحتل مكانة في

قومه تساوي مكانة زيد الخيل ، ممّا جعل أبا تمام ينطق باسم زيد الخيل عندما نعه .

كما تواصل أيضاً مع زيد الخيل في الهجاء ، فيقول :

فأشهد ما جسرت عليّ إلا وزيد الخيل عبدك في الشجاعه (3)

فهو يسخر من جرأة شاعر هجاه ، حيث فاقت جرأته جرأة زيد الخيل نفسه .

وفي ديوانه مواقف يفخر فيها بقومه ، فيذكر كلاً من زيد الخيل ، والطائيين ، وعمر

ابن الغوث القلمس أي الكثير العطاء وجاء ذكرهم ، حينما غادر مصر خائب الرجاء ، يعزّي نفسه،

فيقول :

رأيت لهم بشراً على أوجه لهم أبا بأسهم ألا يكون لها بشر

بخيل لزيد الخيل فيها فوارس إذا نطقوا في مشهد خرس الدهر

وهل خاب من جذمائه في ضنء طيئ عديّ العديين القلمس أو عمرو (4)

ويكثر من التّواصل مع من اشتهروا بالجدود في شعره وبخاصّة حاتم الطائي ، و من ذلك

قوله :

(1) زيد الخيل الطائي (? - 9 هـ) مزيد بن مهلهل من طيء، من أبطال الجاهلية. لقب زيد الخيل لكثرة خيله أو لكثرة طرادته بها. وكان شاعراً محسناً، وخطيباً لسناً، موصوفاً بالكرم. أدرك الإسلام ووفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - سنة 9 هـ في وفد طيء فأسلم وسر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسماه (زيد الخير). ابن سعد ، الطبقات الكبرى 1 / 221 وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب / 403 .

(2) أبو تمام ، الديوان 4 / 139 .

(3) نفسه 4 / 387 .

(4) نفسه 4 / 571 - 576 .

جَرَى حَاتِمٌ فِي حَلْبَةِ مِنْهُ لَوْ جَرَى بِهَا الْقَطْرُ شَأَوًا قِيلَ أَيُّهُمَا الْقَطْرُ (1)

فيعزّي أبو تَمَام نفسه بعد خروجه من مصر خائباً بفخره بنفسه وبقومه , فهم قوم لا يهمهم المال , وهم أول من شهر بالجود , إذ كان لحاتم بن عبد الله حلبة السبق في هذا الميدان .

وفي خاتمة قصيدة مدح فيها أبا سعبد الثغري الطائي , يربط بين كرمه وكرم جدّه حاتم الطائي , فيجعله خليفة حاتم في الجود , فيقول :

أَسَاءَتِ يَدَاهُ عِشْرَةَ الْمَالِ بِالنَّدَى وَأَحْسَنَتَا فِينَا خِلَافَةَ حَاتِمِ (2)

أما كعب بن مامة الإيادي , فقد وظّفه أبو تَمَام في معرض التّهمك والسّخرية من بخل الشّاعر محمد بن يزيد الأمويّ (3), وذلك من خلال مقارنته بين بخله , وجود كعب بن مامة الإيادي :

بِخٍ بَخٍ لَمْ يُدَانَ جُودَكَ يَا أَزْ هَرُ كَعْبٌ وَلَا مُبَارِي الرِّيَّاحِ (4)

أمّا الموضع الآخر فقد كان في هجاء عبد الله بن يزيد المباركيّ , إذ يصفه بالبخل ويدعوه إلى تركه , فيقول :

يَا كَعْبُ بَدَلًا لِلْعَطَايَا وَيَا أَصْفَقَ وَجْهًا مِنْ أَبِي شَاسِ (5)

ويتواصل مرّة أخرى مع كعب بن مامة الذي اشتهر بالإيثار , ويضيف إليه هرم بن سنان الذي اشتهر بالكرم في مدح سليل بن المسيّب الكلابيّ , حيث يجعل ممدوحه يفوقهما إيثاراً وكرماً وجوداً , وذلك في قوله :

(1) أبو تمام , الديوان 4 / 574 .

(2) نفسه 3 / 221 .

(3) محمد بن يزيد الأموي المسلمي الحصني أبو الأصبع من ولد مسلمة بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم شاعر محسن ينظر ابن عساكر , تاريخ مدينة دمشق 56 / 283 .

(4) أبو تمام , الديوان 4 / 335 .

(5) نفسه 4 / 379 .

ما جَادَ جُودَكَ إِذْ تُعْطِي بِلَا عِدَةٍ ما يُرْتَجَى مِنْكَ لَا كَعْبٌ وَلَا هَرَمٌ (1)

ويتواصل مع هرم بن سنان أيضا في مدح اسحق بن إبراهيم المصعبي ، في قوله :

مَوَاهِبٌ لَوْ تَوَلَّى عَدَهَا هَرَمٌ لَمْ يُحْصِهَا هَرَمٌ حَتَّى يُرَى هَرَمَا (2)

فأبو تمام تواصل مع هرم بن سنان بمدوح زهير الذي اشتهر بكرمه ، ليبين أن ممدوحه قد فاق هرم بن سنان في الجود .

ويوظف أبو تمام أسماء مشاهير من أعلام طيء ليفخر بهم :

سَمَا بِيَّ أَوْسٌ فِي السَّمَاءِ وَحَاتِمٌ وَزَيْدُ الْقَنَا وَالْأَثْرَمَانِ وَرَافِعٌ

وَكَانَ إِيَّاسٌ مَا إِيَّاسٌ وَعَارِقٌ وَحَارِثَةُ أَوْفَى الْوَرَى وَالْأَصَامِعُ (3)

فأبو تمام ازداد رفعة بما ورثه عن آبائه ، والعظماء من قبيلة طيء وهم : أوس بن حارثة بن لام ، وهو أوس بن سعدى الذي اشتهر بالجود (4) ، وحاتم الطائي ، وزيد الخيل والأثرمان وهما رجلان من طيء ، ورافع بن عميرة وكان أبذل العرب ، وإياس بن قبيصة الطائي الذي ولّاه كسرى الحيرة بعد النعمان بن المنذر ، وعارق وهو قيس بن جروة الطائي وحارثة بن مرّ ، وكان امرؤ القيس قد نزل به ، والأصامع أيضا من طيء نزل بهم امرؤ القيس (5) . فهو هنا يتغنى بمجدهم المتألق وقوتهم وكرمهم واندفاعهم ، فكان المكرّمات عندهم سنن لها مبادؤها القائمة .

ويمدح أبو تمام قاضي الدولة العباسية أحمد بن أبي دؤاد ، فيبين فضل الممدوح وفضل

قومه إباد ، و يقرن ذلك بمدح طيء قبيلة أبي تمام ، فيجعل طيئاً وإياداً متساويتين في المحامد ،

فيقول :

(1) أبو تمام ، الديوان 286/3 .

(2) نفسه 3 / 174 .

(3) نفسه 4 / 585 .

(4) نفسه 4 / 585 .

(5) نفسه 1 / 351 .

وَشَرِكْتُمُوهُمْ دُونَنا فَلَأَنْتُمْ شُرَكَائُنَا مِنْ دُونِهِمْ فِي الْجُودِ
كَعَبِّ وَحَاتَمِ اللَّذَانِ تَقَسَّما خَطَطَ الْعُلَى مِنْ طَارِفٍ وَتَلِيدٍ (1)

ويجمع أبو تمام بين عدد من أسماء سراة الناس في مدحه حفص بن عمرو الأزدي ممثلاً له

بهم , فيقول :

وَكُنْتَ هُنَاكَ الْأَحْنَفَ الطِّبَّ فِي بَنِي تَمِيمٍ جَمِيعاً وَالْمُهَلَّبَ فِي الْأَزْدِ
وَكُنْتَ أبا عَسَانَ مَالِكٍ وَاثِلٍ عَشِيَّةً دَانِي حَلْفَهُ الْحَنْفُ بِالْعَقْدِ (2)

إنَّ الممدوح كالأحنف بن قيس في قومه الذي يضرب به المثل في الحلم , و ساد تميماً في البصرة, وأجمعوا عليه في حرب مسعود بن عمرو العتكي , وهو أيضاً كالمهلب بن أبي صفرة أحد الولاة الشجعان والأجواد , إذ لم يكن في الأزدي كالمهلب بن أبي صفرة, وكمالك بن مسمع البكري رئيس ربيعة بالبصرة الذي حالف بينهم وبين الأزدي (3).

ويتواصل أيضاً مع كل من خالد بن الوليد وهرثمة بن أعين (4), حيث يقول :

أَحْيَيْتَ لِلإِسْلَامِ نَجْدَةَ خَالِدٍ وَفَسَحْتَ فِيهِ لِمَتِهِمْ وَلِمُنْجِدِ
لَوْ أَنَّ هَرِثَمَةَ بَنَ أَعِينَ فِي الْوَرَى حَيٌّ وَعَايِنَ فَضْلُهُ لَمْ يَجْعَدْ (5)

إنَّ الممدوح كخالد بن الوليد في نجدته للنبي _ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ , وشجاعته يوم فتح مكة وإيقاعه بأهل الغميصاء , فلو أنَّ هَرِثَمَةَ بَنَ أَعِينَ الَّذِي اشتهر بشجاعته وبلائه في الثغور وفضله رآه , لأعجب بشجاعته ولم ينتقص منها .

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 392 .

(2) نفسه 2 / 123 .

(3) ينظر ابن خلكان, وفيات الأعيان 2 / 305, 350/ 5 وابن حجر , الإصابة 3 / 509 و 3 / 462 و أبو تمام , الديوان 2 / 122 - 123 .

(4) هَرِثَمَةَ بَنَ أَعِينَ الأمير ولي مملكة خراسان للرشيد وكان من رجال الدهر ورؤوس الدولة , له بلاء حسن في الثغور(ت 201 هـ) ينظر الذهبي , تاريخ الإسلام 14 / 420 والطبري , تاريخ الطبري - تاريخ الأمم والملوك 8 / 543 .

(5) أبو تمام , الديوان 2 / 139 .

ويقرن في قصيدة له بين المأمون وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - ويفضله عليهما , حيث يقول :

يا وارثَ المُلْكِ إِنَّ المُلْكَ مُحْتَبَسٌ وَقَفَّ عَلَيْكَ إِلَى أَنْ تُنْشَرَ الصُّورُ
ما ضَرَّ مَنْ أَصْبَحَ المَأْمُونُ سَائِسَهُ أَنْ لَمْ يَسْسُهُ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ⁽¹⁾

فالمأمون يغني عن كل من أبي بكر وعمر , بل إنه سليلهما , ويقوم مقامهما بكفاءة , وهذا تأييد من أبي تمام مبطن بالخلافة .

ويستحضر من التاريخ الراشدي شخصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه في مدح محمد ابن عبد الملك الزييات⁽²⁾ :

أَمَّا وَحَوْضُكَ مَمْلُوءٌ فَلَا سُقَيْتُ خَوَامِسيَ إِنَّ كَفَى أَرْسَالَهَا الغَرْبُ
لَوْ أَنَّ دِجْلَةَ لَمْ تُحَوِّجْ وَصَاحِبِهَا أَرْضَ العِرَاقِينِ لَمْ تُحْفَرْ بِهَا القُلبُ
لَمْ يَنْتَدِبْ عُمَرُ لِالإِبْلِ يَجْعَلُ مِنْ جُلُودِهَا النِّقْدَ حَتَّى عَزَّهُ الذَّهَبُ⁽³⁾

فهو في هذه الأبيات يستثمر أحداثاً تاريخية من الناحية الإدارية عند تشكيل الدولة الإسلامية , وهي محاولة عمر - رضي الله عنه - صنع دراهم من جلود الجمال , لانتشار غش الدراهم المعدنية , فنهبه بعض الناس إلى أن ذلك قد يفني الإبل , فعدل عنه .⁽⁴⁾ ووظف هذه الحادثة , ليبرر لممدوحة مدحه غيره من أوساط الناس , فالإنسان قد يضطر أحياناً إلى فعل الشيء , فيفعله , وهو عالم أن غيره أفضل منه , فلولا حاجته لما اضطر إلى مدح الأوساط وتقريظهم , لكن الفقر هو الذي أجبره على ذلك , فعطاء الممدوح على كثرته لا يكفيه , كما أن أهل العراق لو كفاهم

(1) أبو تمام , الديوان 2 / 221 .

(2) هو محمد بن عبد الملك بن الزييات (173 - 233 هـ) وزير المعتصم والواثق , عالم باللغة والأدب ينظر ابن خلكان , وفيات الأعيان 2 / 54 .

(3) أبو تمام , الديوان 1 / 254 - 255 .

(4) ينظر نفسه 1 / 255 , والبلاذري , فتوح البلدان / 659 .

دجلة والفرات على فيضهما لما حفروا الآبار، وكذلك عمر بن الخطاب لو كفته النقود على كثرتها، لما حاول صنع نقود أخرى .

ويوظف أبو تمام شخصية عمرو بن معدي كرب الزبيديّ، فيقول :

شِعْبِي وَشِعْبُ عُبَيْدِ اللَّهِ مُلْتَمِّمٌ وَكَيْفَ يَخْتَلِفَانِ السَّاقُ وَالْقَدَمُ
صَمَّامَتِي أَتَهْمُونِي فِي صِيَانَتِهَا هَلْ كَانَ عَمْرُو عَلَى الصَّمَّامِ يُتَهَمُ⁽¹⁾

ويعاتب أبو تمام في هذه القصيدة أحد أبناء عمومته، بعد سعاية سعي بها ضده، ويبيّن له أنه يصونه لأنه يعدّه بمثابة السيّف الذي يدافع به عن نفسه، فهو له بمثابة الصّمّامة لعمرو بن معدي كرب الذي كان يدافع به عن نفسه فلا يفارقه .

ويتواصل مرّة أخرى مع عمرو بن معدي كرب في قوله يستتجز عبد الله بن طاهر⁽²⁾

وعداً له، ثم تأخر في تنفيذه :

لَوْلَا الْأَمِيرُ وَأَنَّ حَاكِمَ رَأْيِهِ فِي الشَّعْرِ أَصْبَحَ أَعْدَلَ الْحُكَّامِ
لَتَكَلَّتْ أَمَالِي لَدَيْهِ بِأَسْرِهَا أَوْ كَانَ إِتْشَادِي خَفِيرَ كَلَامِي⁽³⁾

فيوظف أبو تمام حكاية الصّمّامة حينما بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو أن يبعث بصمّامته إليه فلمّا جرّبّه، لم يجده كما سمع عنه، فكتب إلى عمرو في ذلك، فردّ عليه عمرو: إنّما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيّف، ولم أبعث إليه بالسّاعد الذي يضرب به. وأراد أبو تمام من توظيف هذا الموقف أن يبيّن أنه لولا معرفة الأمير بالشّعْر لذهبت أماله كلّها سدى، فضرب بعمرو وصمّامته مثلاً لنفسه وشعره عندما بعث به إلى عبد الله ولم ينشده بنفسه .

وجاء ذكر عمرو بن معدي كرب مقرونا بذكر بطل جاهليّ آخر، وهو مسهر بن يزيد بن

(1) أبو تمام، الديوان 4 / 492 .

(2) عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي (182 - 230 هـ) أمير اعتمد عليه المأمون في قمع ثورة الخرمية، له مؤلفات وشعر ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان 3 / 83 - 89 .

(3) أبو تمام، الديوان 3 / 282 .

عبد يغوث الحارثي الذي فقأ عين عامر بن الطفيل يوم فيف الرياح (1) , وبطلين من الفرس هما اسفندياذ ورستم (2) :

لَهُ وَقَعَةٌ كَانَتْ سَدَى فَأَنْرَتْهَا بِأُخْرَى وَخَيْرُ النَّصْرِ مَا كَانَ مُلْحَمًا
لَقَدْ أَذْكَرْنَا بِأَسِّ عَمْرٍو وَمُسْهَرٍ وَمَا كَانَ مِنْ إِسْفَنْدِيَاذٍ وَرُسْتَمَا (3)

خاض محمد بن يوسف ممدوح أبي تمام معركتين انتصر فيهما نصرًا مؤزرًا , فأصبحتا علامة في الدهر , مما ذكره ببطولة كل من عمرو بن معدي كرب , ومسهر بن عمرو , واسفندياذ, ورستم .
ووظف بعض أمراء الدولة الأموية وقادتها حينما مدح أحمد بن أبي دؤاد , واعتذر إليه مستشفعاً بخالد بن يزيد , فيقول :

هَذَا الْوَلِيدُ رَأَى التَّنْبُتَ بَعْدَمَا قَالُوا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ مَوْدٍ
فَتَزَحَّزَحَ الزَّوْرُ الْمَوْسَسُ عِنْدَهُ وَبِنَاءُ هَذَا الْإِفْكِ غَيْرُ مَشِيدٍ
وَتَمَكَّنَ ابْنُ أَبِي سَعِيدٍ مِنْ حِجَا مَلِكٍ بِشُكْرِ بَنِي الْمُلُوكِ سَعِيدٍ
مَا خَالِدٌ لِي دُونَ أَيُّوبٍ وَلَا عَبْدُ الْعَزِيزِ وَلَسْتُ دُونَ وَكَيْدٍ (4)

فيؤكد أبو تمام أنه لم يأت إلى الممدوح معتذراً إليه رهبة منه بل خجلاً مما اتهم به , وإن مثله في الاعتذار إليه مثل يزيد بن المهلب الذي استجار من الوليد بأبيوب بن سليمان بن عبد الملك وبعبد العزيز بن الوليد فشفعا له . وما خالد الذي يشفع لأبي تمام بأقل منهما , وما ممدوحه بأقل من يزيد ابن المهلب .

ويوظف موقفاً لخالد بن يزيد بن معاوية في هجائه عيَّاش بن لهيعة , فيقول :

وَأَشْهَرَنَّ عَلَيْكَ شُنْعَ أَوَابِدٍ يُحْسِبَنَّ أَسِيْفًا وَهَنَّ قَصَائِدٍ

(1) ابن حزم , جمهرة أنساب العرب / 416.

(2) أبو تمام , الديوان / 3 / 241.

(3) نفسه / 3 / 240-241.

(4) نفسه / 1 / 394 - 395.

فِيهَا لِأَعْنَاقِ اللَّئَامِ جَوَامِعُ تَبْقَى وَأَعْنَاقِ الْكِرَامِ قَلَانِدُ
يَلْزَمْنَ عَرْضَ قَفَاكَ وَسَمَّ خَزَائِيَةٍ لَمْ يُخْزِهَا بِأَبِي عَيْنِيَةَ خَالِدُ (1)

لقد أخزي عيَّاش لأنه لم يقبل مديحه كما قبل خالد مديح أبي عينية, وهو شاعر من أهل الشام كان قد قصد خالدًا , فلقى خيراً⁽²⁾.

ويتواصل مرّة أخرى مع المهلب في وصيته, حيث يقول :

فَأَنْتَ الْعَلِيمُ الطَّبُّ أَيُّ وَصِيَّةٍ بِهَا كَانَ أَوْصَى فِي الثِّيَابِ الْمُهَلَّبُ (3)

فهو يخاطب عليّ بن مرّ ويستهديه فرواً , وهو هنا يريد قول المهلب لبنيه : "ما رأيت أحداً قطّ بين يدي إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه , فاعلموا يا بني أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم " (4)
ويستذكر عدداً من الخلفاء العباسيين السابقين والمعاصرين له في مدحه الواصل , إذ يقول :

نورٌ مِنَ الْمَاضِي عَلَيْكَ كَأَنَّهُ نورٌ عَلَيْهِ مِنَ النَّبِيِّ مُبِينُ

يَسْمُو بِكَ السَّفَاحُ وَالْمَنْصُورُ وَالـ مَهْدِيٌّ وَالْمَعْصُومُ وَالْمَأْمُونُ (5)

فالواصل فخر لهؤلاء الأجداد ذوي المكانة العالية الذين يتصل نسبهم بالنبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فهو يستمدّ نوره وهدايته وتاريخه منهم .

ويتواصل مع قطريّ بن الفجاءة وشبيب , إذ يقول :

لَوْ تَقَصَّوْا أَمْرَ الْأَزَارِقِ خَالُوا قَطْرِيًّا سَمَا لَهُمْ أَوْ شَبِيْبَا (6)

(1) أبو تمام , الديوان 4 / 348.

(2) نفسه 4 / 348.

(3) نفسه 1 / 281.

(4) نفسه 1 / 281.

(5) ينظر نفسه 3 / 327.

(6) نفسه 1 / 169.

فمدوح أبي تمام في شدته ونجدته كقطري بن الفجاءة التميمي الذي تفاقم أمره أيام الحجاج
وبني مروان حتى سيرت إليه البعوث العظيمة , وكشبيب بن نعيم رئيس الخوارج أيضاً , فهو مثلهم
يطلب الموت في قتاله, ويرى فيه مصيراً أفضل من الحياة لأن ماله إلى الجنة.

ومن المغنين يتواصل مع معبد في مدحه لمحمد بن يوسف الطائي , بقوله :

وَقَائِعُ أَصْلِ النَّصْرِ فِيهَا وَقَرَعُهُ إِذَا عُدَّ الإِحْسَانُ أَوْ لَمْ يُعَدَّ
مَحَاسِنُ أَصْنَافِ الْمُغَنِّينَ جَمَّةً وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إِلَّا لِمَعْبَدٍ (1)

إن ممدوحه هو السابق إلى هذا النصر, كما أن معبداً هو السابق في مجال الغناء.

يلاحظ أن أبا تمام قد وظف كثيراً من الشخصيات التاريخية في شعره , فذكر بعضها دون
تعليقات أو ربطها بأحداث معينة , ووقف عند بعضها الآخر متأنياً متأملاً يأخذ من سيرته ما يلائم
موقفه .

الوقائع والمعارك

ويتخير أبو تمام الوقائع والمعارك المشهورة في التاريخ فيوظفها في مدائحه , لا سيما
حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها في الجاهلية والإسلام , وقد كان يعرف كيف
يحول التاريخ شعراً , على شاكلة قوله في إحدى قصائده مادحاً ابا دلف العجلي (2) مبيناً
انتصار قومه في يوم ذي قار وفتكهم بالفرس , فسجلوا بذلك مجداً حقيقياً عبر التاريخ:

إِذَا افْتَحَرَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ بِقَوْسِهَا وَرَادَتْ عَلَى مَا وَطَّدَتْ مِنْ مَنَابِ
فَأَنْتُمْ بَدِي قَارٍ أَمَّالَتْ سَيُوفُكُمْ عُرُوشَ الَّذِينَ اسْتَرَهَتُوا قَوْسَ حَاجِبٍ (3)

(1) أبو تمام , الديوان 2 / 29.

(2) أبو دلف العجلي :القاسم بن عيسى بن إدريس , ولي دمشق في أيام المعتصم وكان من الأجواد
الممدوحين ينظر , ابن عساكر , تاريخ مدينة دمشق 49 / 130.

(3) أبو تمام , الديوان 1 / 207 - 208.

وكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جذب شديد، فابتغت الرعي في أرض العراق، فكتب والي الحيرة كسرى أن يأذن لهم بالرعي، فاشترط أن يقدموا رهائن منهم، ولما بلغ ذلك رئيسهم حاجب ابن زرارة قال: ليس معي إلا قوسي فاسترهنوها منه، ووفى لهم بما وافقهم عليه، فصار ذلك معدوداً في مناقب تميم، وإلى ذلك أشار أبو تمام في هذه القصيدة. (1) فإن كانت قبيلة تميم تفتخر بما فعله حاجب بن زرارة، فإن ربيعة هزمت في ذي قار من رهن القوس عندهم، وفي هذا المعنى الدقيق الذي نفذ إليه أبو تمام، علاوة على المديح الجديد، نزعة عربية في زمن كاد العرب يفقدون سلطانهم (2).

ويوظف يوم ذي قار مرة أخرى في مدحه خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني، فيقول:

لَهُمْ يَوْمُ ذِي قَارٍ مَضَى وَهُوَ مُفْرَدٌ وَحَيْدٌ مِنَ الْأَشْبَاهِ لَيْسَ لَهُ صَحْبٌ

بِهِ عِلِمَتْ صُهْبُ الْأَعَاجِمِ أَنَّه بِهِ أَعْرَبَتْ عَنِ ذَاتِ أَنْفُسِهَا الْعُرْبُ

هُوَ الْمَشْهُدُ الْفَصْلُ الَّذِي مَا نَجَا بِهِ لِكِسْرَى بْنِ كِسْرَى لَا سَنَامٌ وَلَا صُلبٌ (3)

فيوم ذي قار يوم مفرد لا شبيه له، استردت فيه العرب كرامتها، فهو اليوم الذي انتصرت فيه بنو شيبان على جيوش كسرى، وانكسرت شأفتهم في تلك الحرب التي كانت آخر الحروب التي شهدتها العصر الجاهلي، وفيها سجل العرب أول انتصار لهم على الفرس.

ويستوقف أبو تمام من تاريخ العرب يوم الكلاب ذكراً من شارك فيه، في شكره محمد بن

الهيثم بن شبانة، إذ لو استطاع أن يستعين بكل البشر لشكر هذا الممدوح لفعل ذلك، فيقول:

وَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ لَقَامَ عَنِّي بِشُكْرِكَ مَنْ مَشَى فَوْقَ التُّرَابِ

وَجَنَّتْكَ فِي قُضَاعَةٍ قَدْ أَطَافَتْ بِرُكْنِي عَامِرٍ وَبَنِي جَنَابِ

(1) أبو تمام، الديوان 208/ 1 وينظر ابن عبد ربه، العقد الفريد 2/ 20.

(2) ينظر زراقت، عبد المجيد، دراسات في الشعر العباسي وأعلامه 326.

(3) أبو تمام، الديوان 1 / 187 - 188.

وَلَا سْتَجِدْتُ حَنْظَلَةَ وَعَمْرًا وَلَمْ أَعْدِلْ بِسَعْدِ وَالرِّبَابِ
وَلَا سْتَرَفَدْتُ مِنْ قَيْسٍ ذُرَاهَا بَنِي بَدْرِ وَصَيْدَ بَنِي كِلَابِ
وَلَا حَتَفَلْتُ رَبِيعَةَ لِي جَمِيعًا بِأَيَّامِ كَأَيَّامِ الْكِلَابِ
فَأَشْفِي مِنْ صَمِيمِ الشُّكْرِ نَفْسِي وَتَرَكَ الشُّكْرَ أَثْقَلَ لِلرِّقَابِ (1)

فهو هنا يقف من هذا اليوم موقف المؤرِّخ والمبدع ، إذ لا يكتفي بمجرد الإشارة إلى موقف وتنتهي القضية ، بل يرصد أطراف هذا اليوم فيعرض في بيان عسكري طبيعة القوات المتحاربة مذكراً بذلك الماضي ، وتفصيل وقائعه ، وكأنه كان شاهد عيان على أحداث ذلك اليوم . مما يبيِّن قدرته على تطويع المادة التاريخية لخدمة غرضه .

ويذكر يوم الذنائب والتحلاق في معرض تحذير أعداء ممدوحه مالك بن طوق من مغبة البغي ، فيعظهم ويخوفهم في معرض النصيحة ، حيث يقول :

لَا تَجْعَلُوا الْبَغِيَّ ظَهْرًا إِنَّهُ جَمَلٌ مِنْ الْقَطِيعَةِ يَرعى واديَ النَّقَمِ
أَرْدَى كَلْبِيًّا وَهَمَامًا وَهَاجَ بِهِ يَوْمَ الذَّنَائِبِ وَالتَّحْلَاقِ لِلِمَمِ
سَقَى شَرْحِبِيلَ مِنْ سَمِّ الدُّعَافِ عَلَى أَيْدِيكُمْ غَيْرَ رَعِيدٍ وَلَا بَرِمِ
بِرِّ التَّحِيَّةِ مِنْ لَحْمِ فَلَا مَلِكُ مُتَوَجِّحٍ فِي عَمَامَاتٍ وَلَا عَمَمِ (2)

ويحذر أبو تمام الأرقام التغلبيين من مغبة البغي وبخاصة أن الممدوح أسلف لهم الخير ، ولا يرغب أن يلوغ في دمائهم ، وأنه ليس شرهاً إلى التهام لحومهم ، وأنهم هم الذين استثاروه بنار الحقد والتعدي ، ويمضي في تفريعهم ، وحضهم على الامتناع عن البغي ، مبيناً لهم عواقبه ، مدعماً رأيه بشواهد من التاريخ ، فالبغي قد أفنى كلاً من كليب بن ربيعة وهمام يوم الذنائب ، ويوم التحلاق الذي قتل فيه بنو تغلب شرحبيل بن ذهل بن شيبان من بني مرة في حرب البسوس وهو غلام

(1) أبو تمام الديوان 1 / 287 - 288 .
(2) نفسه 3 / 191 - 193 .

مراهق , فذكره أبو تمام للممدوح, ليجعل قتله من مفاخر بني تغلب . ومن نتائج هذا البغي أيضاً أنه أزال ملك لخم الذين منهم بنو المنذر, فلم يبق لهم جماعات ولا عمم , أي شرف بالملك⁽¹⁾ .

وقال يمدح أبا سعيد محمد بن أبي دؤاد⁽²⁾ :

تَثَبْتُ إِنَّ قَوْلًا كَانَ زُورًا أَتَى النُّعْمَانَ قَبْلَكَ عَنْ زِيَادٍ
وَأَرَّتْ بَيْنَ حَيِّ بَنِي جُلَاحٍ حَرْبٍ وَحَيِّ بَنِي مَصَادٍ
وَعَادَرَ فِي صُرُوفِ الدَّهْرِ قَتْلِي بَنِي بَدْرِ عَلَى ذَاتِ الإِصَادِ⁽³⁾

وفي معرض النصيحة , يطلب أبوتمام إلى ممدوحه ألا يستمع إلى كلام الوشاة الذين يصطنعون قول الزور للإيقاع به عنده مذكراً إياه بما فعله قول الزور من حرب بين بني الجلاح وحَيِّ بني مصاد , وبنو بدر , حيث نجم عنهما كثير من القتل⁽⁴⁾ .

فأبو تمام يربط بين معارك جرت في عصره , وأخرى جرت في الزمن الماضي , فيقلل من شأن المعارك الماضية على شدتها , ومن ذلك إشارته إلى يوم قضة , وهو يوم التحالق وذلك في مدح محمد بن سعيد الثغري الذي أوقع بالروم في عدة معارك :

يَوْمُ بَكْرِ بْنِ وائِلٍ بِقِصَاتٍ دُونَ يَوْمِ الْمُحَمَّرِ الزَّنْدِيقِ

1 (يوم الذنائب ويوم تحالق اللمم من أيام حرب البسوس بين بكر وتغلب, وكليب وهمام وشرحبيل من قتلها ينظر أبو تمام , الديوان 3 / 192 - 193 والمولى , محمد أحمد جاد , أيام العرب في الجاهلية 146 - 165 .

2 (محمد ابن أبي دؤاد (ت 296هـ) الكاتب , كان عالماً بأيام الناس وأخبارهم ينظر الصفدي , الوافي بالوفيات 3 / 61 .

3 (أبو تمام , الديوان 1 / 378 .

4 (بنو جلاح وبنو مصاد هم أحياء من العرب , وذات الإصا د ماء كان الغاية في رهان داحس والغبراء , الذي وقعت به حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان , وبنو بدر هم حذيفة وأخوه حمل قتلوا على جفر الهبابة بعد قصة السباق في ذات الإصا د ينظر المولى , محمد أحمد جاد , أيام العرب في الجاهلية / 264 .

يَوْمَ حَلَقِ اللَّمَاتِ ذَاكَ وَهَذَا الـ يَوْمُ فِي الرَّومِ يَوْمُ حَلَقِ الْحُلُوقِ (1)

ففي هذا اليوم حلقت فيه بكر بن وائل شعورها , وأما يوم الممدوح , فقد حلقت فيه الرقاب

ويوظف في مدحه مالك بن طوق عدّة وقائع :

رَفْدُوكَ فِي يَوْمِ الْكِلَابِ وَشَقَّوْا فِيهِ الْمَزَادَ بِجَحْفَلِ غَلَابِ

وَهُمْ بَعِينِ أَبَاغِ رَاشُوا لِلْوَعَى سَهْمِيكَ عِنْدَ الْحَارِثِ الْحَرَابِ

وَلِيَالِيِ الْحَشَاكِ وَالثَّرَثَارِ قَدْ جَلَبُوا الْجِيَادَ لَوَاحِقِ الْأَقْرَابِ (2)

فهو يستعطف هذا الممدوح على هؤلاء القوم " الأرقام التغلبيين " الذين شقوا عليه عصا الطاعة , فيذكره بتأييدهم لقومه فيما مضى , وتعاونهما على قيس في هذه الوقعات التي كانت بينهما وترافدهما , وأن كل واحد منهما إنما ناهض الأعداء بالآخر , فيوم الكلاب , حيث كانت في ذلك اليوم بنو تغلب مع سلمة , وكانت تميم مع شرحبيل , وهذا الكلاب الأول , أما الثاني فكان بين تميم والرباب , وبين بني الحارث بن كلب , حيث أراقوا ما كان معهم من الماء , وقالوا لا نشرب إلا من الكلاب وإلا متنا عطشا , وعين أباغ موقع كانت به وقائع في الدهر الأول , والحارث الحرّاب من ملوك العرب , وربما وصفوا كل ملك يقال له الحارث بالحرّاب , ويقال إنه أول من وصف بذلك من ملوك كندة , ثم قيل للحارث الغساني . وكانت بنو تغلب مع النعمان يوم جاء الحارث ابن أبي شمر إلى عين أباغ لمحاربة النعمان , فهزموا الحارث الغساني , والحشاك والثرثار موضعان كانت بهما وقعتان لبني تغلب مع قيس عيلان , وكان بين قيس وتغلب عند الثرثار وقعتان في

(1) أبو تمام , الديوان 440/2 - 441 .

(2) نفسه 1 / 81 - 83 .

يومين , الأول منهما كان لتغلب , فأكثرُوا القتلى من قيس , وأدركوا دماءهم يوم الخابور وزادوا على ذلك أيضاً , واما يوم الحشاك , فإن تغلب تسميه يوم الدائرة (1).

وقد يضيف أحياناً إلى الوقائع بعض الأحداث والشخصيات والأماكن , وذلك في مدحه

إسحق بن إبراهيم المصعبي حين أوقع بالمحمرة أصحاب بابك :

وَقَائِعَ أَشْرَقَتْ مِنْهُنَّ جَمْعٌ
إِلَى خَيْفِي مَنِىَ فَالْمَوْقِفَيْنِ
مَحَوْتَ بِهَا وَقَائِعَ مِنْ مَلُوكِ
وَكُنَّ وَقَدْ مَلَأَتِ الْخَافِقَيْنِ
صَبِيحَةَ خَازِرٍ أَنْسَتْ وَمَهْوَى
عُبَيْدِ اللَّهِ فِيهَا وَالْحُصَيْنِ
وَفَيْفَ الرِّيحِ إِذْ دَلَفَتْ مَعَدُّ
بِأَجْمَعِهَا وَأُسْرَةَ ذِي رُعَيْنِ
وَأَيَّامَ الذَّنَابِ زَعَزَعَتْهَا
وَيَوْمَ مَهْلِهِ وَالشَّعْتَمَيْنِ
وَأَيَّامَ الْكَلَابِ غَدَاةَ هَزَّتْ
مُرَارِيَيْنِ فِيهَا مُتْرَفَيْنِ
أَخٌ تَرَكَتْ أَسْنَتَهُ أَخَاهُ
تَلِيلاً لِلجَبِينِ وَاللَّيْدَيْنِ
وَمِنْ سَاتِيْدِمَا بَرَوَازَ فَلَّتْ
شَبَا فخرٍ فَسِيحِ الطَّائِفَيْنِ
بَلَا فِيهَا إِبَاسٌ كُلُّ لَدْنِ
وَكُلُّ مُصَمِّمٍ فِي الْعَظْمِ لَيْنِ
وَحَجْرًا وَامْرَأَ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ
لِيَالِي كَاهِلِ وَبَنِي مُعَيْنِ
وَيَوْمَ الْبِشْرِ أَنْسَتْهُ وَهَدَّتْ
وَقَائِعَ رَاهِطٍ وَبَنَاتِ قَيْنِ

(1) ينظر والحموي , معجم البلدان 2 / 263 والمولى , محمد أحمد جاد , أيام العرب في الجاهلية 51/

وَيَوْمَ الْمَصَدِّقَةِ حِينَ سَامُوا
 أَنْوَشَرَوَانَ خَطْبًا غَيْرَ هَيْنِ
 فَأَضْحَوْا بَعْدَ عَزٍّ وَإِخْتِيَالٍ
 وَهُمْ عِبْرٌ لِأَهْلِ الْمَشْرِقَيْنِ
 رَدَدَتِ الدِّينَ وَهُوَ قَرِيرٌ عَيْنٌ
 بِهَا وَالْكَفْرَ وَهُوَ سَخِينٌ عَيْنٌ (1)

فهذه المعركة فاقت معارك من كانت قبله, وأنست حروبهم التي مضت وبخاصة يوم خازر(2),
 وفيه الريح (3) , والذئائب من أيام من حرب البسوس التي كانت بين بكر وتغلب ,
 والشعثمان : هما شعثم وشعيث ابنا معاوية بن عمر, وأيام الكلاب حيث هزمت فيه ربيعة تميمًا
 ووقعة إياس بن قبيصة الطائي بقيصر وأصحابه بساتيدما , وقتل بني أسد حجرًا, وقتله بني
 كاهل (4) ويوم البشر(5), ومرج راهط , (6) ويوم المصدقية (7) . فأبو تمام يمتلك
 ثقافة تاريخية عظيمة , يسخرها في خدمة شعره وتصوير ممدوحيه ومعاركهم .

ويوظف أيضاً أيام العرب عند انصرافه من مصر , فيواسي نفسه بفخره بقومه :

- (1) أبو تمام , الديوان 3 / 299 - 307 .
 (2) وقعة خازر وهي وقعة إبراهيم بن الأشتر قائد المختارين عبيد الله الثقفي الثائر الذي ادعى أنه يأخذ
 بدم الحسين, وعبيد الله بن زياد قائد جيش الأمويين , وكانت الغلبة فيه لابن الأشتر, والحصين هو
 الحصين بن نمير السكوني كان على ميمنة ابن زياد , حيث قتل عبيد الله والحصين ينظر المبرد , الكامل
 في اللغة والأدب 2 / 47 .
 (3) وفيه الريح موقع بأعلى نجد كانت فيه وقعة بين بني عامر وعلى رأسهم عامر بن الطفيل وبني
 الحارث بن كعب ومعهم "مذحج" وهم من القحطانية ورمز لهم بأسرة "ذي رعين" ينظر ابن رشيق ,
 العمدة 2 / 225 والمولى , محمد أحمد جاد , أيام العرب في الجاهلية 132/ .
 (4) ينظر الحموي , معجم البلدان 3 / 168 والمولى , محمد أحمد جاد , أيام العرب في الجاهلية
 46/ .
 (5) ويوم البشر: جبل في بادية الشام فيه ماء لتغلب وفي هذا اليوم أوقع الجحاف بن حكيم السلمي
 ببني تغلب في هذا الموضع, فيقر بطون نساتهم وقتل أطفالهم , فعل ذلك غضباً حين استناره الشاعر
 الأخطل أمام عبد الملك بن مروان , وضرب فيه المثل فقيل : " أفنك من الضحاك ينظر ابن رشيق ,
 العمدة 2 / 225 والميداني , مجمع الأمثال 2 / 88 .
 (6) ومرج راهط قرب دمشق حدث فيه وقعة بين الضحاك بن قيس الفهري , ومروان بن الحكم سنة
 64هـ ينظر القلقشندي , صبح الأعشى 1 / 450 .
 (7) يوم المصدقية : ويقصد بها المزدكية وهو يوم قتل أنو شروان مزدك وصلبه ينظر القلقشندي ,
 صبح الأعشى 13 / 298 والنويري , نهاية الأرب 15 / 148 .

أَسْوَدَ نَضَاحَ الْمَقَدِّ جَعْدَا وَنَحْنُ كُنَّا لِلنَّبِيِّ جُنْدَا

يَوْمَ بُرَاخَاتٍ وَرَدْنَ وَرِدَا وَعَدَّ لِي بَدْرًا وَعَدُّ أَحْدَا (1)

فهو هنا يفخر بيوم بزاعات وهو يوم معروف كان للمسلمين في خلافة أبي بكر الصديق ، فهذا اليوم كان لهم بمثابة غزوة بدر وأحد في نصرتهم للإسلام والمسلمين (2) .

ويوظف أحداثاً من معركة صفين في قوله :

وَلَّى مُعَاوِيَةَ عَنْهُمْ وَقَدْ حَكَمَتْ فِيهِ الْقَتَا فَأَبَى الْمِقْدَارُ وَالْأَمَدُ

نَجَاكَ فِي الرَّوْعِ مَا نَجَى سَمِيكَ فِي صَفِينِ وَالْخَيْلُ بِالْفَرَسَانِ تَجَرَّدُ (3)

إن قائد الأعداء نجا من الموت ، لأنَّ أجله لم يكن قد انتهى بعد ، كمعاوية بن أبي سفيان الذي نجا يوم صفين رغم هزيمته .

و قوله :

أَتَصَبِرُ لِلْبَلْوَى عَزَاءً وَحَسِبَةً فَتُوجِرَ أَمْ تَسْلُو سُؤْلَ الْبَهَائِمِ

وَلِلطَّرْفَاتِ يَوْمَ صَفِينٍ لَمْ يَمِتْ خَفَاتًا وَلَا حُزْنًا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمِ (4)

فعدى بن حاتم كان مع عليّ - رضي الله عنه - في معركة صفين ، حيث قتل ثلاثة من ولده هم : طريف وطرفة ومطرف الذين يسمون الطَّرْفَاتِ (5) ، فأبو تمام ذكر نكبة عدي بن حاتم بمقتل أبنائه، في معرض تعزية مالك بن طوق ومواساته في أخيه قاسم ، فمصاب عدي بن حاتم كان أفدح من مصابه ، ولكنه صبر .

(1) أبو تمام ، الديوان 4 / 565- 566.

(2) يوم بزاعات : هو من أيام العرب في الإسلام ، كان في حروب الردة و وفيه نجح عدى بن حاتم الطائي في سحب 500 من طيء كانوا مع طليحة الأسدي، فحابوا مع المسلمين ، وكانوا من أسباب النصر، وعد ذلك من مفاخر طيء . ينظر الطبري ، تاريخ الطبري 2 / 256 - 265 وإبراهيم ، محمد أبو الفضل ، أيام العرب في الإسلام / 151.

(3) أبو تمام ، الديوان 2 / 14 - 15.

(4) نفسه 3 / 259.

(5) نفسه 3 / 259.

قبائل وأنساب

كان أبو تمام على اطلاع واسع بأنساب القبائل , من حيث أسماؤها وأخبارها وعاداتها وصفاتها , ومعرفة أبي تمام بالأنساب تظهر بوضوح في شعره , فهو إضافة إلى ذكره أسماء القبائل , يتطرق إلى الحديث عن قبيلة ممدوحه , فيستعرض أسماء أجداده ومحاسنهم , مما ينم عن معرفة عميقة بهذا الموضوع .

ويوظف أبو تمام بعض عادات القبائل , ومن الأمثلة على ذلك :

كَانَ الزَّمَانُ بِكُمْ كَلْبًا فَغَادِرَكُمْ بِالسَّيْفِ وَالذَّهْرِ فَيُكْمُ أَشْهُرُ الْحَرَمِ (1)

فقبيلة كلب لم تكن تحرم الأشهر الحرم في الجاهلية . فاستثمر أبو تمام هذه المعرفة حينما مدح مالك بن طوق , ليبين أنه استطاع أن يخضع خصومه ومناوئيه , فأقام العدل والصلاح مكان الفساد .

وفي موضع آخر , يشيد بنسب ممدوحه مالك بن طوق , فيقول:

مَا مِنْكُمْ إِلَّا مُرْدَى بِالْحِجَا أَوْ مُبَشَّرٌ بِالأَحْوَدِيَّةِ مُؤَدَمٌ

عَمْرَوِ بْنِ كَلْثُومِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَتَا تَابِ بْنِ سَعْدِ سَهْمُكُمْ لَا يُسْهَمُ

خُلِقَتْ رَبِيعَةٌ مُدًّا لَدُنْ خُلِقَتْ يَدَا جُشَمُ بْنُ بَكْرٍ كَفُّهَا وَالْمِعْصَمُ (2)

فالممدوح موصوف بالكمال , فنسبه عريق ويتسم بالفروسيّة والشجاعة كجده الأعلى عمرو بن كلثوم بن عتاب من وجوه تغلب الذين يرجعون بنسبهم إلى جشم بن بكر , فتغلب ببطونها المختلفة المنتمية إلى جشم دريئة لقبائل ربيعة , إذ تدافع عنها وتصد عنها المخاطر .

كما يوظف لقب لقريش عرف لها في الجاهلية , فيقول :

(1) أبو تمام , الديوان 3 / 190 .

(2) نفسه 3 / 198 .

حَفَّتْ بِالْبَيْتِ ذِي الْمَلْبِينِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْحَلِّ قَبْلُ وَالْحُمْسِ

أَنَّ ابْنَ طَوْقِ بْنِ مَالِكِ مَلِكٌ مَالِكُ أَمْرِ الْمَكَارِمِ الشُّمُسِ (1)

فالحمس لقب لقريش في الجاهلية, وأصله من الحماسة وهي الشدة (2) فأبو تمام أشار إلى هذا اللقب في مدح مالك بن طوق, وذلك من خلال قسمه به, ليؤكد مكارم هذا الممدوح التي بلغت ذروتها.

ويستوحي عدة قبائل و شخصيات, حيث يقول:

مَنْ بَنُو عَامِرٍ مَنِ ابْنُ الْحَبَابِ مَنْ بَنُو تَغْلِبٍ غَدَاةَ الْكَلَابِ

مَنْ طُفَيْلٌ مَنِ عَامِرٌ وَمَنْ الْحَا رِثُ أُمِّ مَنِ عُنَيْبَةُ بْنُ شِهَابِ

إِنَّمَا الصِّيغَةُ الْهَصُورُ أَبُو الْأَشْتِ بَالِ مَنَاعِ كُلِّ خَيْسٍ وَغَابِ

مَنْ غَدَتُ خَيْلُهُ عَلَى سَرَحِ شِعْرِي وَهُوَ لِلْحَيْنِ رَاتِعٌ فِي كِتَابِي (3)

فقد تواصل أبو تمام مع بني عامر, وبني تغلب أيام حرب الكلاب, وفرسان من العرب وشجعانهم وهم: طفيل بن عامر, والحارث بن عبّاد, وعنيبة بن شهاب, وعمير بن الحباب السلمي, في هجاء شاعر سرق شعراً له, وسار به إلى الممدوح وادّعاه, فهو بهذا الفعل كان أشدّ غارة وشجاعة من القبائل والفرسان الذين ذكرهم.

وفي مدحه محمد بن الهيثم بن شبانة يعدّد قبائل عدنانية وأخرى قحطانية, فيقول:

وَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ لِقَامَ عَنِّي بِشُكْرِكَ مَنْ مَشَى فَوْقَ التُّرَابِ

إِذَا شُكْرَتِكَ مَذْحُجٌ حَيْثُ كَانَتْ بَنُو دِيَّانِهَا وَبَنُو الضَّبَابِ

وَجَنَّتِكَ فِي قُضَاعَةٍ قَدْ أَطَافَتْ بِرُكْنِي عَامِرٍ وَبَنِي جَنَابِ

(1) أبو تمام, الديوان 2 / 240.

(2) نفسه 1 / 240.

(3) نفسه 4 / 308.

وَلَا سْتَجِدْتُ حَنْظَلَةَ وَعَمْرًا وَلَمْ أَعْدِلِ بِسَعْدِ وَالرَّبَابِ
وَلَا سْتَرَفَدْتُ مِنْ قَيْسٍ ذُرَاهَا بَنِي بَدْرِ وَصَيْدِ بَنِي كِلَابِ
وَلَا حَتَفَلْتُ رَبِيعَةَ لِي جَمِيعًا بِأَيَّامِ كَأَيَّامِ الْكِلَابِ
فَأَشْفِي مِنْ صَمِيمِ الشُّكْرِ نَفْسِي وَتَرَكَ الشُّكْرَ أَثْقَلَ لِلرَّقَابِ (1)

فهو يريد أن يطري على ممدوحه الذي كان يهب له العطايا قبل أن يطلبها منه، فلكثرة عطايها له، لو استطاع أن يأتي بكل أهل الأرض بما فيهم مذحج وبنو الضباب وقضاعة وبنو جناب وغيرهم ممن ذكرهم (2)، ليوافيه حق شكره، لفعل ذلك.

ويقول في هجاء عيَّاش بن لهيعة:

كَلَا أَبُوَيْكَ مِنْ يَمَنِ وَلَكِنْ كَلَا أَبُوِي نَوَالِكَ مِنْ سَلُولِ (3)

فالمهجو يمني الأصل، فلا يهجو به هذا النسب، بل يركّز في هجائه على شخصه، فيتهمه بالبخل من خلال نسبة كرمه إلى سلول المنعوتة بالهوان، وهم فخذ من قيس نسبوا إلى أمهم سلول (4).

وفي مدحه لخالد بن يزيد بن يزيد الشيباني يعدّد آباءه "سلسلة نسبه"، وهذا لا يتأتى

معرفته إلا لعالم بالأنساب:

مَصُونُ الْمَعَالِي لَا يَزِيدُ أَدَالَهُ وَلَا مَزِيدٌ وَلَا شَرِيكَ وَلَا الصُّبُّ
وَلَا مُرَّتًا ذَهْلٌ وَلَا الْحِصْنَ غَالَهُ وَلَا كَفَّ شَأْوِيهِ عَلِيٌّ وَلَا صَعْبُ (5)

(1) أبو تمام، الديوان 1 / 287 - 288.

(2) مذحج لقب امرأة و اسمها مدلة وقيل دلة و طيء من ولدها إلا أنهم لا ينسبون إليها، ونسب إليها إخوتهم فذكرها الطائي وذكر معها قضاعة لما تدّعيه من القرى إليهم وذكر غيرهم من العرب لأن الإصهار في القبائل وتزوج بعضهم إلى بعض، صير بينهم أسبابا من الخوالة والقرابة. أما سعد: فيعني سعد بن عبد مناة من تميم، والرباب من بني عبد مناة بن أد بن طابخة، سموا بذلك لأنهم تحالفوا على رب، وقيل إنما سموا بذلك لأنهم ضروب شتى فشبّهوا بالربة وهي ضروب نبت.

ينظر نفسه 1 / 288.

(3) نفسه 4 / 418.

(4) ينظر ابن حزم، جمهرة أنساب العرب / 271.

(5) أبو تمام، الديوان 1 / 182 - 183.

وفعل مثل ذلك في مدحة أخرى له في خالد بن يزيد ، حيث يشيد بنسب هذا الممدوح ،

فينسبه إلى عدة قبائل ، وذلك في معرض طلبه لنواله :

بَكْرِيَّهَا عَلَوِيَّهَا صَعْبِيَّهَا — حِصْنِي شَيْبَانِيَّهَا الصَّنْدِيدَا
ذَهْلِيَّهَا مُرِّيَّهَا مَطْرِيَّهَا يُمْنِي يَدِيَّهَا خَالِدَ بْنَ يَزِيدَا
نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَوْرًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودَا
عُرْيَانُ لَا يَكْبُو دَلِيلٌ مِنْ عَمِي فِيهِ وَلَا يَبْغِي عَلَيْهِ شُهُودَا (1)

يقول التبريزي : " نسب الممدوح إلى هذه القبائل وهي على ما ثبت لأن هذا الممدوح من

بني مطر ، ومطر أدنى هؤلاء الأباء إليه" (2) ، فأبأوه مشهورون كالنجم الذي لا يستره غيم .

وكثيراً ما يفتخر أبو تمام بنسبته إلى طيء ، ويعتز بنسبه إليها ، فيكثر من ذكر ذوي المجد من

أجداده ، فعدد بعضهم كعدي وعمرو وزيد وأدد كما يذكر بطنين منهما وهما الغوث وجديلة ،

فيقول :

وَهَلْ خَابَ مَنْ جِذْمَاهُ فِي ضَنْءِ طِيٍّ عَدِيُّ الْعَدِيِّينَ الْقَلَمَسُ أَوْ عَمْرُو
لَنَا غُرٌّ زَيْدِيَّةٌ أَدْيِيَّةٌ إِذَا نَجَمَتْ ذَلَّتْ لَهَا الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ
لَنَا جَوْهَرٌ لَوْ خَالَطَ الْأَرْضَ أَصْبَحَتْ وَبُطْنَانُهَا مِنْهُ وَظَهْرَانُهَا تَبْرُ
جَدِيلَةٌ وَالْغَوْتُ اللَّذِينَ إِلَيْهِمَا صَغَتْ أُذُنٌ لِلْمَجْدِ لَيْسَ بِهَا وَقْرٌ (3)

ويوظف في قصيدة أخرى له في مجال الفخر أسماء رجال عرفوا بصفات يشهد لهم

التاريخ بها كقوله :

سَمَا بِي أَوْسٌ فِي السَّمَاءِ وَحَاتِمٌ وَزَيْدُ الْقَنَا وَالْأَثْرَمَانِ وَرَافِعُ

(1) أبو تمام ، الديوان ، 1 / 412 - 413 .

(2) نفسه ، 1 / 412 .

(3) نفسه ، 4 / 571 - 572 .

وكان إياسٌ ما إياسٌ وعارقٌ وحارثةٌ أوفى الورى والأصامعُ (1)

فقد ازداد أبو تمام رفعة بما ورثه عن آباءه ، والعظماء من قبيلة طيء وهم : أوس بن حارثة بن لام ، وهو أوس بن سعدى الذي اشتهر بالجود (2) ، وحاتم الطائي ، وزيد الخيل والأثرمان وهما رجلان من طيء ، ورافع بن عميرة وكان أبذل العرب ، وإياس بن قبيصة الطائي الذي ولّاه كسرى الحيرة بعد النعمان بن المنذر ، وعارق وهو قيس بن جروة الطائي وحارثة بن مرّ ، وكان امرؤ القيس قد نزل به ، والأصامع أيضاً من طيء نزل بهم امرؤ القيس (3). فهو هنا يتغنّى بمجدهم المتألق وقوتهم وكرمهم واندفاعهم ، فكأن المكرمات عندهم سنن لها مبادؤها القائمة . وهكذا فإنّ أبا تمام يطوّع الحدث التاريخي لشعره حتى يزيده بروزاً وتصويراً، فلا نكاد ندري هل جعل الشعر في خدمة التاريخ ، أم اتخذ التاريخ أداة لخدمة فنّه (4). فالأحداث والقصص التاريخية في شعر أبي تمام وردت بشكل مدروس يؤدّي خدمة معنويّة في النصّ ، وهو في تواصله مع الموروث التاريخي لم يكن اعتباطياً، ولم ترد تلك الشخصيات والأحداث دون قصد ، وإنّما تضافرت مجتمعة لتشكل الدلالة العامّة في النصّ، بما يشبه العلامات الرمزية التي تشكل الرسالة، وهذا هو التوظيف الذي يتجاوز مجرد الاستشهاد أو الاقتباس أو غيرهما، وينفصل عمّا يمكن أن يسمّى بالأقنعة والمرايا.

(1) أبو تمام ، الديوان 4 / 585.

(2) نفسه 4 / 585.

(3) نفسه 4 / 585.

(4) ينظر التطاوي ، عبد الله ، ثقافة أبي تمام من شعره / 89.

التراث التاريخي في شعر المتنبي

توظيف أحداث ومواقف تاريخية

وظّف المتنبي أحداثاً تاريخية في شعره , ومن الأمثلة على ذلك تواصله مع أحداث

من وقعة صفين في قوله :

كُلُّ يُرِيدُ رِجَالَهُ لِحَيَاتِهِ يَا مَنْ يُرِيدُ حَيَاتَهُ لِرِجَالِهِ (1)

فهو يشيد بشجاعة سيف الدولة لخطه له مع الإخشيد , أراد من خلالها أن يحقن دماء المسلمين , حيث طلب سيف الدولة إلى الإخشيد أن يتبارزا , ومن يقتل صاحبه منهما , ملك البلاد , فامتنع الإخشيد , وتوجه إليه بقوله , ما رأيت أعجب منك , أجمع مثل هذا الجيش العظيم لأقي به نفسي ثم أبارزك , والله لا فعلت ذلك أبدا . فأعجب المتنبي بهذا الموقف فعبر عنه بقوله لسيف الدولة : كلّ الملوك يريدون رجالهم ليدافعوا عن أنفسهم من أعدائهم ويحموها , ليبقوا ويسلموا , ولكنك تدافع عن جيشك وتحميمهم , وهذا غاية الكرم والشجاعة . وهو هنا يستوحي ما روي عن عليّ - عليه السلام - : أنه بعث إلى معاوية , وهما بصفين : قد فني الناس بيني وبينك , فابرز إليّ , فأينا قتل صاحبه ملك الناس , فقال عمرو لمعاوية : قد قال لك حقاً وأتاك بالإنصاف . فقال معاوية لعمرو : أعلمت أنّ علياً برز إليه أحد , فرجع سالماً ؟ والله لا برز إليه سواك , فحمله حتى برز إلى عليّ , فلما تقاربا كشف عن سواته , فتركه عليّ ورجع إلى أصحابه بغير قتال (2) . فهدفه من استيحائه هذه الحادثة الإشادة بموقف سيف الدولة المشرف , والتعريض بموقف الإخشيد .

1 (المتنبي , الديوان 3 / 64 .

2 (ينظر نفسه 3 / 64 وابن الأثير , البداية والنهاية 7 / 293 .

وبخاصّة أنّ صورة سيف الدّولة مع الإخشيد تشبه صورة عليّ مع معاوية , فهذا النّصّ مناسب للمقام الذي طرح فيه .

ويتابع توصله مع أحداث التّاريخ في مقدّمة غزليّة , فيقول :

تَأَلَّم دَرَزُهُ وَالدَّرَزُ لَيْنٌ كَمَا تَتَأَلَّمُ الْعَضْبُ الصَّيْعَا (1)

ويصف المتنبّي نعومة بدن محبوبته , حيث إنّها تتوجع إذا أصاب بدنها موضع الخياطة من ثوبها مع لينه كما يُتوجّع من السّيف , وهو هنا يستلهم هذا الوصف لمحبوبته من قصة محاصرة سابور لصاحب الحصن , ولم يقدر عليه , واتفق أن بنت ملكه وهي النضرة بنت الضيزن رأت سابور , وكان جميل الصورة , فعشقتة . فأرسلت إليه تقول : إن ملكتك الحصن فما تجعل لي ؟ قال : حكمتك . قالت : تتزوج بي . فأجابها إلى ذلك , ودخل سابور الحصن وقتل ملكه وأصحابه واصطفى ابنته لنفسه فلما كانت ليلة دخولها عليه , لم تنزل متململة قلقة طول ليلتها , فالتمس سابور ما الذي قلقت من أجله , فإذا ورقة أس قد لصقت بعكنة من عكنها , فقال لها ما كان أبوك يغديك ؟ فقالت : الزبد والمخ وشهد أبكار النحل والخمر , فقال لها : أنا أحق منك بئار أبيك , ثم أمر رجلا أن يركب فرسا جموحا وأن يربط غدائرها في ذنبه ويركض به ففعل ذلك , فتقطعت . (2) . فهو هنا استلهم هذا الحدث التاريخي ليرسم صورة المحبوبة المثاليّة الرقيقة الناعمة , ليجعلها معادلاً لممدوحه عليّ بن إبراهيم التتوخي في تعامله مع أوليائه , رغم قوّته وبأسه وهيئته مع أعدائه .

ويوظف المتنبّي أكثر من حادثة تاريخيّة في قوله :

(1) المتنبّي , الديوان / 251

(2) ينظر النويري , نهاية الأرب في فنون الأدب / 1 - 352 - 353

أَشْمَتَ الْخُلْفُ بِالشَّرَاةِ (1) عِدَاها وَشَفَى رَبَّ فَارِسٍ (2) مِنْ إِيادٍ (3)

وَتَوَلَّى بَنِي الْبَرِيدِيِّ بِالْبَصْرِ رَةَ حَتَّى تَمَزَّقُوا فِي الْبِلَادِ (4)

فيعرض المنتبّي بالمؤامرة التي حاكها بعض الأشخاص للإيقاع بين كافور وابن الإخشيد ، فاستدعى عدّة حوادث تاريخية ، ليبين أثر الخلاف والشقاق بين الجماعات قديماً ، حيث أدى إلى شماتة أعدائهم بهم ، إذ سبّب التنازع تمكّن أعدائهم منهم ، ومزق صفوفهم وضيع سطوتهم وهيبتهم . كما كان من الخوارج الذين لم يظفر بهم المهلب بن أبي صفرة إلا بعد أن نزع الشيطان بينهم ، فقد قاتلهم المهلب نحواً من ثلاثين شهراً ، فلم يقدر عليهم ، ثم وقع الخلف بينهم واقتتلوا ، فوهنت شوكتهم ، وتمكن المهلب منهم ، فلم ينج منهم إلا القليل . أما إياد فقد كانت يداً واحدة ، ثم تفرقت كلمتهم ، وتشتتوا بأرض الجزيرة فنهد إليهم سابور ذو الأكتاف ، وأفنى منهم خلقاً كثيراً ، ففترقوا في البلاد .

واختلف بنو البريديّ (5) ، فقتل أكبرهم أوسطهم ، فما كان إلا أن خوى نجمهم ، وذهب ملكهم وهلكوا جميعاً . ويلاحظ أن المنتبّي استغلّ هذه الحادثة بالذات ليبين أن وجود كافور حاكماً على مصر فيه ظلم لابن الإخشيد صاحب الحقّ الشرعي بدلاً من كافور الذي كان في نظر المنتبّي لا يستحق شيئاً إلا الأزدراء والتحقير ، فضرب هذه الحادثة مثلاً على وصول بعض الناس بالحيلة والدّهاء إلى مناصب ليسوا أهلاً لها .

1 (الشراة : هم فرقة من الخوارج سموا بذلك لأنهم شروا أنفسهم بالقتال في سبيل الدين ، والشراة من أعمال دمشق ينظر ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق 299/ 37 والمنتبّي ، الديوان 34 / 2 .

2 (رب فارس : سابور ذو الأكتاف بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور . الطبري ، تاريخ الطبري - 399 / 1 .

3 (وإياد : حي من معد ينظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب 10 / 1 .

4 (المنتبّي ، الديوان 34 / 2 .

5 (بنو البريديّ : كتاب ، وثبوا بالبصرة واستولوا عليها في خلافة المنصور ، واخرجوا ابن رائق فعظم شأنهم ، كانوا إخوة ثلاثة : أبو عبد الله ، وأبو سيف ، وأبو الحسين . ينظر الذهبي ، العبر 23 / 2 - 51 .

توظيف شخصيات تاريخية

وظف المتنبي شخصيات تميزت في مجال معين، ومن الأمثلة على ذلك تواصله مع

أعلام اشتهروا في مجال الطب عند اليونان، ومن ذلك قوله :

لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا (1)

فهو يوظف جالينوس في مقدمة قصيدة له، ليبين أن دواءه هو وصال محبوبته، وليس

في وصفات جالينوس الطبيب.

ويتواصل مع جالينوس مرة أخرى في قوله :

يَمُوتُ رَاعِي الضَّانِ فِي جَهْلِهِ مَوْتَةً جَالِينُوسَ فِي طِبِّهِ (2)

ليؤكد أن الموت نتيجة حتمية، فلا ينجو منه إنسان، سواء أكان شريفاً أم وضيعاً، عاقلاً

أم جاهلاً، فيموت الراعي الجاهل كما يموت جالينوس رغم علمه وحذقه في الطب.

ويتواصل مع بقراط مرة أخرى ليدلل على ذكاء كلب وصفه في قوله :

كَأَنَّهَا مِنْ سِعَةٍ فِي هَوَجَلٍ كَأَنَّهُ مِنْ عِلْمِهِ بِالْمَقْتَلِ

عَلَّمَ بُقْرَاطَ فِصَادَ الْأَكْحَلِ (3)

فيصف المتنبي كلباً بقوله: كأن أنيابه من سعة فمه في صحراء، وكأنه من تميزه وعلمه

بمقاتل الصيد من غيرها، قد علم بقراط علم التشريح، فأصبح يعلم المواضع التي يجوز

فصدها كعرق الأكل.

ويستدعي المتنبي كليب بن ربيعة حينما مدح سيف الدولة، حيث يقول :

وَالْمَدْحُ لِابْنِ أَبِي الْهَيْجَاءِ تُنْجِدُهُ بِالْجَاهِلِيَّةِ عَيْنُ الْغِيِّ وَالْخَطْلِ

1 (المتنبي ، الديوان 2 / 196 .

2 (نفسه 1 / 213 .

3 (نفسه 3 / 208 .

لَيْتَ الْمَدَائِحَ تَسْتَوْفِي مَنَاقِبَهُ فَمَا كَلَيْبٌ وَأَهْلُ الْأَعْصُرِ الْأَوَّلِ

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحْلِ (1)

ويعرّض المتنبي في هذه الأبيات بأبي العباس النامي حينما مدح سيف الدولة في قصيدة ذكر فيها آباءه الذين كانوا في الجاهلية ، مبيناً له أن ذكره لهم عين الغي ، فيطلب إليه أن يمدح سيف الدولة بما يشاهده منه ، ويترك ما يسمعه عنه ، فإن الشمس تغنيه عن زحل ، كما يغني ذكر حاضر سيف الدولة عن ماضيه ، فلا حاجة لذكر كليب وأهل الدهور السابقة .

ويتواصل المتنبي مع حاتم الطائي في مدحه عبيد الله بن خراسان ، حيث يقول :

تَمَثَّلُوا حَاتِمًا وَلَوْ عَقَلُوا لَكُنْتَ فِي الْجُودِ غَايَةَ الْمَثَلِ (2)

حيث يصف كرم ممدوحه وجوده ، فهو أكرم من حاتم الطائي ، فلو نظر الناس بعين العقل ، لضربوا المثل بكرم ممدوحه وجوده بدلاً من حاتم الذي يضرب به المثل في الجود والكرم ، حيث يقال " أجود من حاتم " (3).

ويستثمر المتنبي أقوال الحكماء التي تصدر عن تجارب إنسانية ، ومن الأمثلة على ذلك تواصله مع لقمان - عليه السلام - كشخصية تاريخية في قوله: من دافع بالذل قبل الفقر ، فقد تعجل الفقر (4) ، فيقول :

وَمَنْ يَنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ (5)

1 (المتنبي ، الديوان 3 / 80 - 81 .

2 (نفسه 3 / 172 .

3 (الميداني ، مجمع الأمثال 1 / 282 .

4 (المتنبي ، الديوان 2 / 151 .

5 (نفسه 2 / 150 .

فيؤكد أنّ الإنسان الذي يجمع المال خوفاً من الفقر ، فإنّه يعيش الفقر بعينه ، لأن من كان همّه جمع المال فقط بأيّة وسيلة كانت لا ينفقه ، وبذلك فإنّه يتعرض للذلّ والحرمان . فقد وظّف المتنبي قول لقمان في قوله ليرسم صورة الإنسان السوي الزاهد في الحياة ، والمسلم بقضاء الله وقدره .

ويستلهم المتنبي قول أبي بكر - رضي الله عنه - في وصيته لخالد بن الوليد بالتزام الثبات والشجاعة والإقدام : " احرص على الموت توهب لك الحياة " حين بعثه إلى أهل الردة . (1) ، فيقول :

فَحَبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أوردَهُ التُّقَى وَحَبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أوردَهُ الحَرَبَا (2)

ويرى المتنبي أنّ الجبان يتقي الحرب ويتجنب القتال ، حباً لنفسه وخوفاً عليها ، والشجاع يخوض الحرب دفاعاً عن نفسه ، فهو يرد الحرب إما لبلاء حسن يمجّد ذكره في حياته ، وإما لقتل يبقي له ذكراً يقوم مقام حياته ، ويصبح حياً عند الله - عزّ وجلّ - حسبما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (3) ، فالمتنبي استلهم قول أبي بكر - رضي الله عنه - ليحثّ ممدوحه سيف الدولة على الثبات والتضحية ، ليكون مهيب الجانب ، ويحيا حياة كريمة ، وذلك من خلال رسمه لصورة الإنسان المثال الذي يقتدى به .

1 (النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب 6 / 3 .

2 (المتنبي ، الديوان 65 / 1 .

3 (آل عمران 169 .

ويستوحى قول علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - " كنا إذا اشتدّ البأس
واحمرتّ الحدق اتقينا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان أقربنا إلى
العدو " (1)، فيقول :

الْفَارِسُ الْمُتَّقِي السَّلَاحُ بِهِ الـ مُتُّي عَلَيْهِ الْوَعْيُ وَخَيْلَاهَا (2)

فيستوحى المنتبّي قول علي - رضي الله عنه - في محمّد - صلى الله عليه وسلم -
ليرسم صورة عضد الدولة التي تدلّ على شجاعته وإقدامه وتضحّيته التي لا يستطيع أن
ينكرها العدو في المعارك ، فهو يتقدم جيشه ويقيه بنفسه اقتداءً بالنبيّ - عليه الصلّاة
والسّلام - .

ويستلهم المنتبّي قول خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في تصوير قيم الشجاعة
وذم الجبن : " لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها ، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة
أو طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ،
وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله وأنا متترّس بها " (3) ، إذ يقول :

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدُّ فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانًا (4)

ليبيّن أنّ الموت لابدّ منه ، ولا ينجو منه شجاع ، ولا جبان ، فإنّ الجبن إذن من ضعف
الهمّة وعجزها .

ويتواصل المنتبّي مع معاوية في قوله :

وَإِذَا صَحَّ فَالزَّمانُ صَحيحٌ وَإِذَا اعْتَلَّ فَالزَّمانُ عَليلٌ (5)

(1) النويري ، نهاية الأرب 18 / 170 .

(2) المنتبّي ، الديوان 4 / 278 .

(3) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة 2 / 100 .

(4) نفسه 4 / 241 .

(5) نفسه 3 / 156 .

فيمدح المنتبّي سيف الدولة , ويربط بين سلامة صحة الأمير والزّمان , فإن صحّ الأمير , فإن الزّمان وأهله في صحّة وسلامة , فإذا ما اعتلّ , فإن الزّمان وأهله معتلان ومضطربان , وهو هنا يستوحي قول معاوية : " نحن الزّمان , فمن رفعناه ارتفع , ومن وضعناه اتّضع . ويروى أنّه سمع رجلاً يذمّ الزّمان , فقال : لو يعلم ما يقول لضربت عنقه , إنّ الزّمان هو السّلطان "(1) ليرسم صورة الممدوح المثل التي تتمثّل بالقوة وعلو المنزلة . فالنّصان متفقان على أنّ السّلطان هو الزّمان , والزّمان هو من يرفع من كان سليماً , ويضع من كان عليلاً .

ويتواصل المنتبّي مع عمر بن عبد العزيز في قوله :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَى فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ (2)

حيث يعزّي المنتبّي عضد الدولة في عمته قائلاً نحن أبناء الموتى , لأنّ آباءنا كلّهم ماتوا , فلا بد لنا من أن نرد الموت كما وردوه , فما بالنا نكره ما لا بد منه , وهو يستوحي هذا المعنى من قول عمر بن عبد العزيز عندما كتب إلى أحد أصحابه يعزّيه في أبيه : " أمّا بعد , فإنّنا أناس من أهل الآخرة سكنا في الدّنيا , أمواتاً , آباء أموات , أبناء أموات , فالعجب لميّت , يكتب إلى ميّت , يعزّيه عن ميّت " . (3) ليعبّر عن حقيقة الموت , وضرورة أخذ العبرة من هذه المصيبة والاستعداد له .

ويتواصل المنتبّي مع المأمون في قوله :

لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْعِمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

1 (المبرد , الكامل في اللغة والأدب 1 / 70 .

2 (المنتبّي , الديوان 1 / 211 .

3 (ابن عساكر , تاريخ مدينة دمشق 47 / 71 .

وَلَمَّا تَفَاضَلَتِ النُّفُوسُ وَدَبَّرَتِ أَيْدِي الكُفَمَا عَوَالِي المُرَانِ (1)

ويرى المتنبّي أنّ النّاس يتفاضلون في العقل , وكذلك سيف الدّولة , فلولا عقله ما كان السّلاح يعني شيئاً , فاستخدام السّلاح بالحرب إنّما يكون بالعقل , فلولا العقل ما عرف الإنسان كيفيّة صنع السّلاح , ولا كيفيّة استخدامه , وهو يستوحى هذا المعنى من قول المأمون : " الأجساد أفضاع ولحوم , وإنّما تتفاضل بالعقول فإنّه لا لحم أطيب من لحم " (2) , ليبيّن رجاحة عقل سيف الدّولة وحنكته في الحرب وحكمته وحسن تدبيره .

توظيف الأنساب في شعر المتنبّي

وقد وظّف المتنبّي في شعره تاريخ الأنساب , من خلال ذكر سلسلة النّسب لدى القبائل المختلفة أو الإشارة إلى بعض الأعلام في سلسلة النّسب العربيّ ممّا يدلّ على اطلاعه على هذا العلم .

وكان من الطّبيعي أن يلمّ المتنبّي بشيء من الأنساب لما عرف عن العربيّ اعتزازه بنسبه , كما أنّه وجد في ذكر النّسب مادّة يرضي ذكرها بمدوحيه , وبخاصّة أنّه عاش في أجواء أحييت في نفسه الرّوح القبليّة , سواء في البادية حيث تقتضي الحياة فيها تنافس القبائل في الاستقلال , واجتماع كلّ قبيلة ببطونها وأفخاذها يداً واحدة ضدّ القبائل الأخرى , أو في الكوفة التي كانت صورة مجسّمة للروح القبليّة في تخطيطها والحياة فيها . ومن ذلك تواصله مع أبناء نوح - عليه السّلام - في مدحه كافور :

وَمِنْ قَوْلِ سامٍ لَوْ رَأَى لِنَسْلِهِ فِدَى ابْنِ أَخِي نَسْلِي وَنَفْسِي وَمَالِي (3)

1 (المتنبّي , الديوان 4 / 174 - 175 .

2 (نفسه 4 / 174 - 175 .

3 (انفسه 4 / 293 .

لو رأى سام أبو البيض من أبناء نوح كافوراً لفضله على نسله لنجابهته , وجعل نفسه وإياهم فدى له , ورغم أن هذا البيت من قصيدة مدح إلا أنه قد تضمن معنى الهجاء لكافور , إذ إن انتماءه إلى حام بن نوح تعريضاً بسواده الذي كان يكره أن يذكره به أحد. وقد كان تواصل المتنبي مع الأنساب ضرباً من السخرية في مدحه كافور يتعمد بتذكيره من خلاله أن لا نسب له , وذلك في قوله :

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ
وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّ قَدْرَهُ مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرَبُ (1)

ويؤكد المتنبي هنا أنه ليس من يستحق أن ينسب إليه كافور لأنه فوق كل أحد , فهو في غنى عن الأنساب التي يذكرها النسابون لغيره , لأن المكارم تنتهي إليه , وهو أصل لها وهذا شرف يغنيه عن النسب , وقد جمع المتنبي في بيته العرب جميعاً بذكر معد بن عدنان الذي يرجع إليه عقب عدنان كله (2) . ويعرب الذي مثل قبائل قحطان (3) . ويتابع المتنبي تواصله بالأنساب في مدح كافور , حيث يقول :

عِنْدَ الْهُمَامِ أَبِي الْمِسْكِ الَّذِي غَرِقَتْ فِي جُودِهِ مُضِرُّ الْحَمْرَاءِ وَالْيَمَنِ (4)

فيجعل جود كافور يشمل العرب جميعاً , وذلك من خلال توظيفه لمضر الحمراء واليمن , وذلك لما يقال من وراثتها للذهب عند اقتسام ملك نزار , أو إلى ما عرف عنهم من اتخاذهم الرايات والعمائم شعاراً لهم في الحرب (5).

كما يتواصل مع مضر في قوله :

(1) المتنبي , الديوان 1 / 186 .

(2) كحاله , عمر رضا , معجم قبائل العرب 3 / 1121 .

(3) نفسه 3 / 1266 .

(4) المتنبي , الديوان 4 / 238 .

(5) ابن منظور , لسان العرب , مادة مضر .

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْمَجْدَ مِنْ مُضَرَ حَتَّى تَبَحْتَرَ فَهُوَ الْيَوْمَ مِنْ أَدَدٍ (1)

فهو يمدح رجلاً من بني بحتز - أحد بطون طيء وينتهي نسبه إلى أدد بن قحطان (2). فيصفه بالجود مما يدل على أن قبيلته ورثت مجد مضر بن نزار التي ينتسب إليها محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ويتواصل بالأنساب عندما ذكر خروج شبيب (3) ومخالفته كافور , فيقول :

بِرَعْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السِّيفُ كَفَّهُ وَكَانَا عَلَى الْعَلَاتِ يَصْطَحِبَانِ
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ رَفِيقَكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِي
فَإِنْ يَكُ إِنْسَانًا مَضَى لِسَبِيلِهِ فَإِنَّ الْمَنَايَا غَايَةُ الْحَيَوَانِ (4)

فقد كان المنتبّي معجباً بشبيب حريصاً على إظهار بطولته , فجعله يهلك بحد سيفه الذي لم يفارقه طيلة حياته , ولكن سيفه فارقه عندما علم أنه مخالف له في الأصل , فشبيب قيسيّ , وسيفه يمنيّ , والسيف الجيدة عادة تنسب إلى اليمن .

ويمجد المنتبّي قيساً حين يمدح عليّ بن أحمد المرّيّ الخرسانيّ الذي يرجع نسبه

إلى مرّة بن عوف بطن من غطفان من قيس بن عيلان (5) , حيث يقول :

كُتِبَتْ فِي صَحَائِفِ الْمَجْدِ بِسْمِ ثُمَّ قَيْسٌ وَبَعْدَ قَيْسِ السَّلَامِ
إِنَّمَا مَرَّةٌ بِنُ عَوْفِ بْنِ سَعْدٍ جَمَرَاتٌ لَا تَشْتَهِيهَا النَّعَامُ (6)

1 (المنتبّي , الديوان 1 / 352 .

2 (كحالة , عمر رضا , معجم قبائل العرب 1 / 66 .

3 (شبيب بن جرير العقيلي من قوم كانوا من القرامطة , وكانوا مع سيف الدولة , وولي شبيب معرى النعمان دهرأ طويلاً , واجتمع إليه جماعة من العرب فوق عشرة آلاف , وأراد أن يخرج على كافور , وقصد دمشق وحاصرها , فانهزم وقتل . ينظر الهمداني , تكملة تاريخ الطبري 1 / 176 .

4 (المنتبّي , الديوان 4 / 243 .

5 (كحالة , عمر رضا , معجم قبائل العرب 3 / 1072 .

6 (المنتبّي , الديوان 4 / 96 - 97 .

يفضّل المتنبّي قيساً على سائر القبائل مبيناً أنّها تفردت بالمجد , بحيث كتب في صحائف
المجد بسم الله - وهو افتتاح الكلام - ثم قيس , وهي قبيلة الممدوح , وهؤلاء يسمّون
جمرات لشوكتهم وشدّتهم .

ويشيد بنسب محمّد بن عبيد الله العلويّ في قوله :

خَيْرُ قُرَيْشٍ أَبًا وَأَمَجْدُهَا أَكْثَرُهَا نَائِلًا وَأَجْوَدُهَا
تَاجُ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ وَبِهِ سَمَا لَهَا فَرَعُهَا وَمَحْتَدُهَا (1)

فيؤكّد المتنبّي أنّ أبا الممدوح أفضل قريش وأجودهم , فهو ينتسب إلى لؤي بن غالب أبي
قريش , وهو لهم بمثابة التاج يتشرفون به ويتزيّتون .

ويشيد بنسب طاهر بن الحسين العلويّ , فيقول :

فَحَيِّتُ خَيْرَ ابْنِ لَخَيْرٍ أَبٍ بِهَا لِأَشْرَفِ بَيْتٍ فِي لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ (2)

ويختّم المتنبّي قصيدته بتحية ممدوحه الذي ينتسب لخير أب وهو محمّد - صلى الله عليه
وسلم - , ولخير بيت في لؤي بن غالب , وهو بيت هاشم بن عبد مناف , إذ إنّ بيته
أشرف ولد لؤي .

ويتواصل المتنبّي مع عدنان حين يمدح سيف الدولة في أكثر من موضع , فيقول :

أَنْسَابُ فَخْرِهِمْ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا أَنْسَابُ أَصْلِهِمْ إِلَى عَدْنَانَ (3)

ويرى المتنبّي أنّ العرب ينتسبون من جهة آبائهم إلى عدنان , ولكنهم في الفخر والشرف
ينتسبون إلى سيف الدولة .

وقوله :

(1) المتنبّي , الديوان 1 / 305 - 306 .

(2) نفسه 1 / 159 .

(3) نفسه 4 / 185 .

تَشْرَفُ عَدْنَانٌ بِهِ لَا رَبِيعَةٌ وَتَفْتَخِرُ الدُّنْيَا بِهِ لَا عَوَاصِمُ (1)

فَيَبِينُ الْمُتَنَبِّيُّ أَنَّ الْعَرَبَ " عَدْنَانٌ " جَمِيعاً تَفْخَرُ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَلَيْسَ رَهْطُهُ " رَبِيعَةٌ بِنِ زَارِ بْنِ مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ " (2) وَحَدَهُمْ مِنْ يَفْخَرُ بِهِ ، وَهُوَ شَرَفٌ لِأَهْلِ الدُّنْيَا جَمِيعاً ، لَا لِبِلَادِهِ فَحَسَبٌ .

وَيَرِثِي الْمُتَنَبِّيُّ مَوْلَى لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ يَدْعَى يَمَاكُ ، فَيَقُولُ :

وَإِنَّ الَّذِي أَمَسَتْ نِزَارٌ عَيْبِدَهُ غَنِيٌّ عَنِ اسْتِعْبَادِهِ لَغَرِيبٍ (3)

يَشِيرُ إِلَى الْمَكَانَةِ الَّتِي تَبَوَّأَهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ ، فَهُوَ قَدْ مَلَكَ الْعَرَبَ جَمِيعاً بِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ فَلَا حَاجَةَ بِهِ مَعَهُمْ إِلَى مَمْلُوكٍ تَرْكِيٍّ وَخَصَّ بِالذِّكْرِ نِزَارَ بْنِ مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ لِمَا يَعْلَمُهُ مِنْ تَمْلِيكِ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرٍو لِنِزَارِ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ (4) .

وَيَسْتَدْعِي نِزَاراً مَرَّةً أُخْرَى فِي قَوْلِهِ :

وَأَخَذُ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي بِضَبْطٍ لَمْ تُعَوِّدْهُ نِزَارُ (5)

لِيَبِينَنَّ أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ يَسِيطِرُ عَلَى الْعَرَبِ جَمِيعاً مِنْ بَدُوٍّ وَحَضَرَ بِسِيَاسَةِ وَضَبْطٍ لَمْ تَتَعَوَّدْهُمَا الْعَرَبُ .

وَيَصَوِّرُ مِرَاعَاةَ الْعَرَبِ لِحُرْمَةِ النَّسَبِ فِي قَوْلِهِ :

فَقَاتَلَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَفَرَّوْا نَدَى كَفَيْكَ وَالنَّسَبُ الْقُرَابُ

وَحَفِظْتُكَ فِيهِمْ سَلَفِي مَعَدٍّ وَأَنَّهُمْ الْعَشَائِرُ وَالصَّحَابُ (6)

1 (المتنبّي ، الديوان 3 / 391 .

2 (كحالة ، عمر رضا ، معجم قبائل العرب 3 / 1178 .

3 (المتنبّي ، الديوان 1 / 53 .

4 (كحالة ، عمر رضا ، معجم قبائل العرب 3 / 1178 .

5 (المتنبّي ، الديوان 2 / 100 .

6 (نفسه 1 / 76 .

فبيّن المنتبّي أنّ سيف الدّولة رعى حرّمات بني كلاب بعد أن أوقع بهم , على الرّغم من ضراوة المعارك التي خاضها ضدهم , فما كان منه إلّا أن أحسن إلى حرّيمهم , وحال دون سبّهم , وقاتل عنهم حفظه فيهم سلفيّ معد , يريد ربيعة ومضر , لأنّ سيف الدّولة ينتهي إلى ربيعة لأنّه من تغلب , وبني كلاب ينتهون إلى مضر لأنّهم من قيس وربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان (1) , فهم عشائر سيف الدّولة وأصحابه .

ويرجع اهتمام المنتبّي بهذا الجانب لما عرف عن العرب باعتزازهم بنسبهم , واعتزازه بعروبته , وبخاصّة أن احترافه للمدح يتطلب ذلك . إضافة إلى أنّه عاش في أجواء قبليّة سواء في البادية حيث تجتمع كلّ قبيلة ببطونها وأفخاذها يداً واحدة ضدّ القبائل الأخرى أم في الكوفة التي تعدّ صورة في تجسيد الرّوح القبليّة في تخطيطها وطبيعتها الحياة فيها .

يلاحظ أنّ المنتبّي أقلّ تأثراً بالتاريخ من أبي تمام , حيث قلت شواهد في هذا المجال بشكل واضح , وقد يكون مرد هذه الظاهرة إلى قلّة حصيلته التّاريخية مقارنة بحصيلة أبي تمام وثقافته التّاريخية , وانصرافه إلى المدح والأمجاد الحاضرة , فاستغنى بذلك عن التّطلع للموروث التّاريخي .

(1) كحالة , عمر رضا , معجم قبائل العرب 3 / 1178.

الأسطورة

إنّ لفظة أسطورة من الألفاظ المعربة. وهي Istoriya "استوريا" في اليونانية، و Historia في اللاتينية، وقد أطلقت عندهم على كتب الأساطير والتاريخ. ويظهر أنّ الجاهليين قد أخذوها من الروم قبل الإسلام، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه، أي: في معنى تأريخ وقصص. (1) وعرفت الشعوب الأسطورة، والتقت عندها، فهي تراث الإنسان حيثما كان وأينما كان، ومنها تسربت ألوان الأدب، وتحرر منها فكر الإنسان ليخلق منها مختلف أشكال الأدب. فالأسطورة في البداية كانت منبع الإلهام الأدبي، وفي النهاية كانت دافعاً إلى علوم حديثة كثيرة كعلوم الإنثروبولوجي والأنثولوجي والسيكولوجي (2).

توظيف الأسطورة في شعر أبي تمام

ويوظف أبو تمام بعض الأساطير في شعره ومن الأمثلة على ذلك قوله:

وَلَى مُعَاوِيَةَ عَنْهُمْ وَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِ الْقَنَا فَأَبَى الْمِقْدَارُ وَالْأَمْدُ
نَجَاكَ فِي الرَّوْعِ مَا نَجَى سَمِيكَ فِي صَفِينِ وَالْخَيْلِ بِالْفُرْسَانِ تَجَرِدُ
إِنْ تَنَقَلْتِ وَأَنْوَفُ الْمَوْتِ رَاغِمَةٌ فَأَذْهَبِ فَأَنْتِ طَلِيقُ الرِّكْضِ يَا لُبْدُ (3)

فهو هنا يوظف أسطورة لبدة، آخر نسور لقمان - عليه السلام - وكان أطولها عمراً، وهو النسور الذي مات عندما رآه لقمان - عليه السلام، وكان هو النسور الرابع، وكان لقمان عليه السلام كلّمه رأى واحداً من نسوره عاش بعده ألف سنة، إلا هذا اللبدة الذي مات عند رؤيته إيّاه (4)، فصار اسمه رمزاً للتشاؤم. ولكنّ أبا تمام هنا انعطف عن دلالاته الأصليّة، فأصبح

(1) علي، جواد، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1 / 318.

(2) ينظر خورشيد، فاروق، أديب الأسطورة عند العرب / 3.

(3) أبو تمام، الديوان 2 / 14 - 15.

(4) نفسه 2 / 15 و ينظر علي، جواد، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1 / 315.

يدلّ على شجاعة ممدوحه ابن يوسف الثغري , ونجاته من الموت أثناء خوضه المعمارك في الثغور , فغدا يدل على طول عمر الممدوح , أي أنه أصبح مصدر تفاؤل لا تشاؤم .

ومن الأساطير التي وظّفها أبو تمام أيضاً أسطورة المطر : فقد عبد بعض الجاهليين السحب , لأنها تجلب لهم المطر والحياة في بيئة صحراوية مقفرة , وهذه العبادة استتبعها طقس معين للإيحاء بامتلاك هذه السحب إلى جانب القدرة على بعث المطر القدرة على التواصل مع البشر , واستيعابها لما يقومون به اتجاهها⁽¹⁾.

ويعتقد بعض الجاهليين أنّ للمرء روحاً على هيئة الصدى أو الضّوع أو الهامة أو البوم - وهي كلمات مترادفة تتردّد في الشعر الجاهليّ - تظلّ بجانب القبر دهوراً , ثم تنتقل إلى الأماكن الخربة والبقاع الخالية البعيدة عن السابلة أو مدارج السالكين أو في قرار من الأرضين في مكان لا ماء فيه ولا شجر . وثمة اعتقاد آخر وهو أنّ الموتى يأكلون ويشربون , ففي الاستسقاء للأموات دلالة على أنّ الجاهليين كانوا يعتقدون بشكل من أشكال الحياة في القبور⁽²⁾ .

أشار أبو تمام إلى أسطورة المطر كغيره من الشعراء السابقين وبخاصّة الجاهليين , فقال في مدح المعتصم :

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى الْعَبَّاسِ وَأَنْبَجَسَتْ
عَلَى ثَرَى حَلَّةِ الْوَكَّافَةِ الْهَظْلُ⁽³⁾

لقد سار أبو تمام على نهج الشعراء في عصره , فامتدح العباسيين بالعباس , باعتباره الأصل الذي تقرعت منه الخلافة العباسية , فهو في هذا الموقف يمدح الخليفة من خلال العباس . فيستمطر المطر الوكاف المنهمر والمنهطل ترحماً عليه . وغزارة المطر هنا تدلّ على عظم الميّت , وعظم

¹ (ينظر , هلال , ريم عبد القادر , حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي / 41 , رسالة دكتوراه , جامعة تشرين , 1998م .

² (ينظر عبد الرحمن نصرت , المطر - مواضع وروده في مواضع الشعر الجاهلي - , مجلة دراسات , 6 ع 1 أيار 1979م , ص 11-112 .

³ (أبو تمام , الديوان 3 / 13 .

الرَّحْمَةُ الَّتِي تَطْلُبُ لَهُ , وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْكَرَمَاءِ وَالشَّجْعَانَ الَّذِينَ أَثْبَتُوا تَفَرَّدَهُمْ فِي قَلْبِ الْحَيَاةِ .

فهذه الأسطورة استعارها أبو تمام من تقاليد الشعر الجاهليّ , وتقع في باب الحياة والموت وما بعد الموت , وهي شعرية صافية وإن كانت غير عقلية , وذلك أن العربيّ في الصحراء ما كان يجد خيراً إلا في المطر , ومن تسقط على أرضيه فإنّ نفسه تتوافق مع الحياة , وترضى عنها وتؤمن بها , وهم يتخذون ذلك ما بعد الموت , بأن يكون الميت مروباً في قبره وبذلك تكون السّماء راضية عنه حياً , فترويه ميتاً⁽¹⁾.

ويوظف أسطورة المطر في الرثاء , حيث يقول :

سَقَى الْغَيْثُ غَيْثًا وَارَتِ الْأَرْضُ شَخْصَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَحَابٌ وَلَا قَطْرُ
وَكَيْفَ احْتِمَالِي لِلْسَّحَابِ صَنِيعَةً بِإِسْقَائِهَا قَبْرًا وَفِي لَحْدِهِ الْبَحْرُ⁽²⁾

فيطلب أبو تمام السّقى لمرثيه لينمو الزّهر على قبره ويحوله من مكان مقفر إلى ممرع , متسائلاً: كيف أطلب من المطر أن يسقي قبراً فيه بحر الجود والعلی . ف " الماء في ذهن الجاهلي والعربيّ عموماً هو باعث الحياة والاحضرار , وإنه يبعث النّمو من الأرض , وإنّ جثة الميت حين يبعث الزّهر عليها تنهض من قبرها عبر الأزهار , وإنّها ترجع إلى نوع من الحياة , وإن كانت نباتية " ⁽³⁾.

و من أساطير التفكير الخياليّ تعليق الحليّ والجلال للديغ , وتعليق التّمائم المبعدة للجن والمخيفة لها للوقاية من الحسد , و كان ممّا يستعينون به كعب الأرنب , هذا الحيوان الذي ينفر

¹ (ينظر أبو الأنوار , محمد , الشعر العباسي / 30 و 180 و الحاوي , إيليا , أبو تمام فنه ونفسيته من خلال شعره / 165- 166 وينظر الخويسكي , زين كامل , الشعر العباسي , دراسات ونصوص 213, 180/

² (أبو تمام , الديوان 4 / 84.

³ (ينظر أبو الأنوار , محمد , الشعر العباسي / 203.

الجنّ لأنه يحيض (1)، وهذا الاعتقاد لم يعد مقتصرًا على المجتمع الجاهليّ، أو المجتمعات القديمة عامّة، إذ إنّه لا يزال حاضرًا في العصر الحديث في كلّ من المجتمعات العربيّة والغربيّة (2)، وورد ذلك في مدح أبي تمام أحمد بن أبي دؤاد:

أَخَذَتْ بِأَعْضَادِ الْعَرِيبِ وَقَدْ خَوَتْ
عُيُونُ كَلِيلَاتٍ وَذَلَّتْ جَمَاجِمُ
فَأَضْحَوْا لَوْ اسْطَاعُوا لِفِرْطٍ مَحَبَّةً
لَقَدْ عَلَّقَتْ خَوْفًا عَلَيْكَ التَّمَائِمُ (3)

يبين أبو تمام شدة حبّ العرب لممدوحه، فهم يخافون عليه من الحسد، فمن شدة حبهم له لو استطاعوا أن يعلّقوا عليه التّمائم، لفعّلوا ذلك.

وقال يمدح خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني:

وَرَثُوا الْأَبُوءَ وَالْحُظُوظَ فَأَصْبَحُوا
جَمَعُوا جُدُودًا فِي الْعُلَى وَجُدُودًا
وَقُرُ النَّفُوسِ إِذَا كَوَاكِبُ قَعَصَبٍ
أَرْدَيْنَ عَفْرِيَتَ الْوَعَى الْمَرِيدَا (4)

ووصف قوم الممدوح بالرزانة وسكون الجأش في الحرب، وبالغ في وصف شجاعتهم، حتّى إنهم قضوا على عفريت الوعى المارد. فالعرب كانت تسمي الجن التي تعترض الصبية أرواحاً، وإذا كان أحدهم من الخبيثاء شديد الأذى فهو الشيطان، وإذا زاد في الأذى فهو مارد، وإذا قوي واشتد أذاه فهو عفريت (5).

ويشير إلى أسطورة الضحّاك في مدحه الأفتشين، وذلك في قوله:

هَيْهَاتَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّكَ لَوْ تَوَى
بِالصَّيْنِ لَمْ تَبْعُدْ عَلَيْكَ الصَّيْنُ

(1) ينظر الحاج حسن، حسين، الأسطورة عند العرب في الجاهلية / 56 - 57 وهلال، هيثم أساطير العالم / 31.

(2) ينظر، هلال، ريم عبد القادر، حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه / 45، جامعة تشرين، 1998م.

(3) أبو تمام، الديوان / 3 / 182.

(4) نفسه / 1 / 415.

(5) ينظر هلال، هيثم، أساطير العالم / 9.

بَلْ كَانَ كَالضَّحَّاكِ فِي سَطَوَاتِهِ بِالْعَالَمِينَ وَأَنْتَ إِفْرِيدُونُ (1)

فأسطورة الضحّاك أخذها أبو تمام من سير الفرس ، فالضحّاك من ولد عدنان أمه من الجن وقيل إنّه ملك في مؤخر رأسه حيتان، وأنهما كانتا لا تفران حتى تطعما دماغيّ إنسانين، فكان كلّ يوم يقتل رجلين ويأكل دماغيهما ، وكان أفريدون رجلاً صالحاً في ذلك الزمان أو نبياً ، فأشار على المسؤول عن هذا الأمر أن يجعل مكان دماغيّ الإنسانين دماغيّ شاتين ، ففعل فأغنيا غناء الرّجلين ولم يجرؤوا إعلام الملك بذلك ، فكانوا يجيؤون كلّ يوم برجلين ، فيأمر بقتلهما ، فيبعثون بهما إلى بعض الأماكن القاصية ، ويقيمون العوض من الضّأن، فاجتمع في ذلك المكان خلق كثير، وكان بعض من حصل فيه أفريدون ، فلما كثر عددهم خرج بهم إلى الضحّاك ، فقتله (2).

فاستثمر أبو تمام هذه الأسطورة ليشبّهه بابك الذي قتله الأفسين بالضحّاك ، ويشبّه الأفسين بأفريدون الذي أنقذ الشعب من شرّ الضحّاك .

ووظّف أيضاً أسطورة الخضر - عليه السّلام - في قوله :

ما اليومُ أوّلُ توديعٍ ولا الثّاني البينُ أكثرُ من شوقي وأحزاني

خليفةُ الخضرِ من يربّع على وطنٍ في بلدةٍ فظهورُ العيسِ أوطاني

بالشّامِ أهلي وببغدادِ الهوى وأنا بالرفقتين وبالفسطاطِ إخواني (3)

ومفاد هذه الأسطورة أنّ الخضر لم يموت ، وأنّه يظلّ دائماً يطوف البلاد ، وذلك لأنّه شرب من ماء الحياة (4) ، وأراد من توظيف هذه الأسطورة أن يشير إلى سفره الدائم ، وكأنّه خليفة الخضر ، فبينه ظهور العيس ، فهو يعاني من التّرحال وعدم الاستقرار بشكل مستمرّ . فالخضر هنا تخلى عن دلالاته الأصلية ، فأصبح رمزاً إلى السّفر المتجدّد والرّحلة الدائمة المرتبطة بالشّاعر ، ممّا وسع

(1) أبو تمام ، الديوان 3 / 321.

(2) ينظر المسعودي ، مروج الذهب 1 / 223 وابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي 1 / 35.

(3) أبو تمام ، الديوان 3 / 308 - 309.

(4) ينظر الطبري ، تاريخ الطبري 1 / 220.

فضاء النص وعمق دلالاته , فأبو تمام أخذ ما يوائم تجربته وموقفه من ملامح شخصية الخضر , وبخاصة أنه مولع بالأسفار , فجاءت الأسطورة منسجمة مع بنية النص وذائبة فيه .

وخيم على قصيدة فتح عمورية ظل أسطوري ظاهر , ويتضح ذلك في قول أبي تمام:

لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ
حَتَّى كَأَنَّ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ عَنْ لَوْنِهَا وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبْ
ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ وَالظُّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحَى شَحْبِ
فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَقَلَّتْ وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبْ (1)

فالمغيبات والخوارق تقوم بدور هام , فترى أشياء الطبيعة تتغير من مناخ إلى مناخ ومن إقليم إلى إقليم , وكأن الشاعر لديه القدرة على تبديل نظام الموجودات حسب رغبته وذوقه مالكا المعطيات والمؤهلات... فكأن إله النار كان له الدور الفعال في رسم هذا المشهد الذي كان له الدور الفعال في الإلياذة حيث وقف إلى جانب آخيل الإسبرطي إكراما لعيني أمه ثايتس (2) .

توظيف الأسطورة في شعر المتنبي

تواصل المتنبي مع الأساطير , ومن الأمثلة على ذلك تواصله مع أسطورة زرقاء

اليمامة في قوله :

وَأَبْصَرَ مِنْ زَرْقَاءِ جَوْ لَأَنِّي إِذَا نَظَرْتُ عَيْنَايَ شَاءَهُمَا عِلْمِي (3)

فيوظف المتنبي أسطورة زرقاء اليمامة ليفضل نفسه في الرؤية عليها , فإذا ما نظرت عيناه فإنهما لاتسبقان علمه , فإذا ما رأى الشيء ببصره علمه بقلبه لأنه عالم بالأمور .

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 53 - 54 .

(2) حسن , حسين الحاج , أعلام في الشعر العباسي / 132 .

(3) المتنبي , الديوان 3 / 51 .

كما يتواصل المتنبّي مع أسطورة الخضر , فالخضر اكتسب على يد الخيال الشعبي العربيّ صفات مغايرة ليصبح خضراً آخر لا علاقة له بذلك الخضر القرآنيّ. ومن تلك الصفات النبوة التي أسبغت عليه , والخلود النسبي الذي تم اقتباسه من صفات الملائكة التي من صفاتها أنها لا تتناسل ولا تموت إلا عند نفخة الصور يوم القيامة , والعلم بالمستقبل , وتأويل الأحلام , وهي صفة اشتهر بها النبيّ يوسف وتمّ إصاقها بالخضر , والقدم الموغل في الزّمن حيث تم نسبه إلى آدم - عليه السّلام - ليعيش من بدء الخليقة حتّى نهاية الزّمان , والتّرحال , ويصبح مرشداً لكل الصّالحين ورفيقاً لهم على مرّ الزّمان , ويحضر في حال ذكرهم له (1), فيقول :

إِذَا مَا ذَكَرْنَا جُودَهُ كَانَ حَاضِرًا نَأَى أَوْ دَنَا يَسْعَى عَلَى قَدَمِ الْخَضِرِ (2)

ويوظّف من هذه الأسطورة حضوره في حال ذكر الصّالحين له واحتياجهم إليه وذلك في وصف جود أبي الحسين بن إبراهيم , فكما أنّ الخضر لا يذكر في موضع أو احتياج إليه إلاّ وقد حضر , وكذلك فإنّ جود ممدوحه يدرك حيث كان , فلا يكاد يذكر جوده إلاّ كان حاضراً كالخضر .

ويوظّف أسطورة العنقاء أو الفينيق : وهي طائر خيالي ورد ذكره في قصص مغامرات السّندباد , وألف ليلة وليلة , وكذلك في الأساطير القديمة , ويمتاز بالقوّة والجمال , وفي معظم القصص أنّه عندما يموت يحترق , ويصبح رماداً , ويخرج من الرّماد طائر عنقاء آخر . (3) ممّا يدلّ على التجدّد والانبعاث , فيقول :

(1) - [Cachedwww.amwague.com/amwague/17/derasat.asp](http://www.amwague.com/amwague/17/derasat.asp)

(2) المتنبّي , الديوان 2 / 137.

(3) [Cached - 50k - ar.wikipedia.org/wiki/عنقاء](http://ar.wikipedia.org/wiki/عنقاء)

أَحِنُّ إِلَى أَهْلِي وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ وَأَيْنَ مِنَ الْمُشْتَاكِ عِنْقَاءُ مُغْرَبٍ (1)

يبين المتنبي مدى اشتياقه وحنينه إلى أهله بسبب بعده عنهم , مستوحياً أسطورة العنقاء ,
ليدلل على انقطاع رجائه وأمله في اللقاء بهم.

ويستوحي الأسطورة نفسها في قوله :

وَأَغْرَبُ مِنْ عِنْقَاءِ فِي الطَّيْرِ شَكْلُهُ وَأَعْوَزُ مِنْ مُسْتَرْفِدٍ مِنْهُ يُحْرَمُ (2).

ليبين أن ممدوحه لا نظير له في الناس , فمثله في الناس أغرب من العنقاء في الطير ,
فهو كريم جواد , لا يحرم مسترفد من رفته .

ويتواصل مع أسطورة التمام في وصف قتلى الروم في قوله :

وَكَانَ بِهَا مِثْلَ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جُنْثِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمٌ (3)

جعل اضطراب الفتنة جنوناً ذلك أن الروم كانوا يقصدون القلعة ويحاربون أهلها , فما
تزال الفتنة قائمة, فلما قتل سيف الدولة الروم أذهبت ما بها من جنون , وعلق القتلى على
حيطانها سكنت الفتنة وسلم أهلها, فجعل جنث القتلى كالتمام عليها , حيث أذهبت ما بها
من جنون بإسكات الفتنة .

ويتواصل المتنبي أيضاً مع أسطورة المطر, فيقول في رثاء جدته :

فَأَصْبَحَتْ أَسْتَسْقِي الْغَمَامَ لِقَبْرِهَا وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الْوَعَى وَالْقَنَا الصُّمًا (4)

بعد أن كان المتنبي يستسقي الحرب والرماح دماء الأعداء , صار يستسقي السحاب على عادة
العرب في الدعاء للقبور بالسقيا طلباً للرحمة .

(1) المتنبي , الديوان 1 / 183 .

(2) نفسه 4 / 86 .

(3) نفسه 3 / 381 .

(4) نفسه 4 / 105 .

إن توظيف الأساطير في شعر أبي تمام والمنتبي أثرى نصوصهما الشعريّة , وساعدهما في تعميق المعنى . ورغم اشتراك الشاعرين في توظيف بعض الأساطير مثل أسطورة المطر والتّمام والخضر إلا أن كل واحد منهما استثمرها حسب رؤيته الخاصّة به , وموقفه الذي استدعاها . فالمنتبي مثلا وظف أسطورة المطر بما يتسق وشخصيته الثّائرة التي تمجّد القوّة , فاستعان بألفاظ الحرب وكأنّه يستنكر ما حدث لجده . أمّا أبو تمام فقد كان يستجدي عناصر الطبيعة في طلب السّقيا لمرثيّه . وهذا ما يؤكّد قدرتهما على تطويع المادّة التّراثيّة بما يخدم رؤاهما في النصّ الشعري .

الفصل الرابع

أثر التواصل بالتراث في التشكيل الفني للقصيدة عند أبي تمام

والمتنبي

أثر التراث في بناء القصيدة عند أبي تمام

تعدُّ مقدّمة القصيدة تقليداً فنياً صاحب القصيدة العربيّة منذ العصر الجاهليّ ، وقد نظر النقاد القدماء إليها من خلال القصيدة الجاهليّة، واستمدّوا منها قواعدهم وأصولهم، ووجدوا أشكالاً متعدّدة لها ، فهناك المقدّمة الطلّية، والمقدّمة الغزليّة ، ومقدّمة وصف الرحلة ، تليها مقدّمة بكاء الشباب ، ومقدّمة وصف الطيف ، ومقدّمة الفروسيّة. (1)

وقد اهتمّ أبو تمام بمقدّمة قصيدته لأنّ المدح هو الغرض السائد في شعره ، فهو يسعى وراء الكسب الماديّ ، وينافسه في ذلك كثير من الشعراء ، فلا بدّ له أن يتّخذ كلّ وسيلة متاحة لتطويره ، فتتوّعت وسائله وكثرت ، وذلك للتأثير في نفس الممدوح والمستمعين ، وإسكات الشعراء الطامعين ، لذا اهتمّ بالمقدّمة لتخدم غايته .

وتمسكّ أبو تمام في أغلب أشعاره الجادة وموضوعاته الرّسمية بالمقدّمات الموروثة المألوفة (2)، فبدأ قصائده بالوقوف على الأطلال ، ووصف الطلل وأثار الدّيار ، بيد أنّ هذه المطالع جاءت في صورة جديدة ، صورة محافظة على الشّكل الخارجيّ والهيكل العام للمطلع مع التّعديل والتّحوير والتّجديد في تفاصيلها وأجزائها ، فيغرب في معانيه ويفلسف أفكاره ، ويعمّق معانيها ويلوّن عواطفه فيجلب الطلل أحياناً ، ويرفض البكاء على الطلل أحياناً أخرى ، أو يمزجه بالغزل والنّسيب ، ويحاور النّوى والهجران ، وقد يستعمل أثناء ذلك من يحبّ ، فيتأمّل الجمال أو يذرف الدّموع أو يشكو الهمّ والحزن .

1 (ينظر بكار ، يوسف حسين ، بناء القصيدة 212 - 221 .

2 (ينظر شلبي ، سعد إسماعيل ، مقدّمة القصيدة في شعر أبي تمام والمنتبي / 51 - 100 ومناع ، هاشم صالح ، أبوتمام الطائي - حياته وشعره - / 130 .

ويتواصل أبو تمام في بعض وقفاته الطللية مع الشعراء المتقدمين , فيقدم في

بعض قصائده بالوقوف على الأطلال , ثم يصلها بالغزل والنسيب , ومن ذلك قوله :

صَحْبِي قَفُوا مُلَيْتُكُمْ صَحْبًا فَاقْضُوا لَنَا مِنْ رَبِّعِهَا نَحْبًا
دَارُ كَانَ يَدَ الزَّمَانِ بِأَنْبِ وَاعِ الْبَلَى نَشَرَتْ بِهَا كُتْبًا
أَيْنَ الْأَلَى كَانُوا بِعِقْوَتِهَا وَالْدَّهْرُ يَسْكُبُ مَاءَهُ سَكْبًا (1)

فهو يركّز على صروف الزمان مستوحياً قول امرئ القيس :

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَعِرْفَانِ وَرَسَمِ عَفْتِ آيَاتِهِ مُنْذُ أَرْزَمَانِ
أَتَتْ حُجْجٌ بَعْدِي عَلَيْهَا فَأَصْبَحَتْ كَخَطِّ زَبُورٍ فِي مَصَاحِفِ رُهْبَانِ (2)

ويتابع تواصله مع امرئ القيس في مقدمته الطللية , حين يردّ على من ينكر عليه

حديث الطلل , فهو يرى أنّ الطلل ضرورة نفسية تريحه من كثير مما يعانيه , فيقول :

لَيْسَ الْوُقُوفُ بِكُفْءِ شَوْقِكَ فَانزِلِ تَبَلُّ غَلِيلاً بِالْذُّمُوعِ فَتُبَلِّ
فَلَعَلَّ عِبْرَةَ سَاعَةٍ أَنْزَيْتَهَا تَشْفِيكَ مِنْ إِرْبَابٍ وَجَدِ مُحْوَلِ (3)

فبيّن وظيفة الطلل النفسية , فوقوفه لا يعادل شوقه , غير أنه يجد راحة في تلك العبرة التي يسكبها ,

فهي تشفيه من بعض وجده , متأثراً بقول امرئ القيس :

وَإِنَّ شِفَائِي عِبْرَةَ مُهْرَافَةٍ فَهَلْ عِنْدَ رَسَمِ دَارِسٍ مِنْ مُعْوَلِ (4)

وكانّ أبا تمام يتعمق الموقف ويتمصّ شخصية امرئ القيس , ليعيش التجربة بكلّ أبعادها

النفسية , فالطلل عند أبي تمام طلل نفسي يرمز من خلاله إلى حالته النفسية .

ويقول في مطلع قصيدة له :

(1) أبو تمام , الديوان 4 / 320 .

(2) امرؤ القيس , الديوان 173 / .

(3) أبو تمام , الديوان 3 / 32 .

(4) امرؤ القيس , الديوان 31 / .

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا وَأَصْبَحَ مَعْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا⁽¹⁾

ويبيّن أنّ النّاعي أذهل عن كلّ شيءٍ وحير حتّى أصبح المتلقّي يُخبر بالشيء ولا يفهم ما يقال ، وهذا المطلع عدّه النّقاد من أحسن المطالع ، حيث ضمّنه قول محيّة بنت طلّيق إحدى نساء بني تيم الله بن ثعلبة :

نعي ابني محلّ صوت ناع أصمّني فلا أب محبوراً بريد نعاهما⁽²⁾

ويذكر خمسة من أعلام الجاهليّة في بيت واحد في وقفة طلّية :

أمواقف الفتيان تطوي لم تزر شرفاً ولم تندب لهنّ صعيدا

أذكرتنا الملك المضللّ في الهوى والأعشيين وطرفةً ولبيدا⁽³⁾.

ويؤكد أنّه لا يبكي الطلل بكاء مسعود بن عمر الأزدي - أخي ذي الرمة في قوله :

إن كان مسعود سقى أطلالهم سبل الشؤن فلست من مسعود

ظعنوا فكان بكاي حولا بعدهم ثمّ ارعويت وذاك حكم لبيد⁽⁴⁾

وإضافة إلى هذا النهج في بناء القصيدة ، فإنّه يفيد في مقدمات قصائده من

معطيات التراث الدّيني ، ومن ذلك قوله في إحدى مقدماته الطلّية :

السّالبات امرءاً عريمته بالسحر والنّفاتات في عقده⁽⁵⁾

فهو هنا يستوحي معناه من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفّٰثٰتِ فِي الْعُقَدِ ﴾⁽⁶⁾ ليصور

تأثير محبوبته التي سلّبت عقله بسحرها . ويوظف الآية نفسها في موقف طلّلي آخر ،

حيث يقول :

1) أبو تمام ، الديوان 4 / 99.

2) الأمدى ، الموازنة / 100.

3) أبو تمام ، الديوان 1 / 407 - 408.

4) نفسه 1 / 386.

5) نفسه 1 / 424.

6) الفلق 4.

سَيَافَةُ اللَّحْظَاتِ يَغْدُو طَرْفُهَا بِالسَّحْرِ فِي عُقَدِ النَّهْيِ نَفَاثًا (1)

ويتواصل مع معاني القرآن الكريم أيضاً في قوله :

كَوَاعِبُ أَتْرَابٍ لَغِيْدَاءٍ أَصْبَحَتْ وَلَيْسَ لَهَا فِي الْحُسْنِ شِكْلٌ وَلَا تَرِبُ (2)

فهو هنا يستوحي قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ

أَتْرَابًا﴾ (3) ؛ ليدلّل على أنّ صاحبتَه مثاليّة الجمال .

ويوظّف بعض ألفاظ القرآن الكريم ، فيقول :

رَدُّ الْجَمُوحِ الصَّعْبِ أَسْهَلُ مَطْلَبًا مِنْ رَدِّ دَمْعٍ قَدْ أَصَابَ مَسِيلاً

ذَكَرْتَكُمْ الْأَنْوَاءَ ذِكْرِي بَعْضَكُمْ فَبَكَتْ عَلَيْكُمْ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (4)

فهو يوظّف ألفاظاً من قوله تعالى : ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (5) في وقفة طليّة حيث

يشخص المطر إنساناً يبكي على فقدان تلك المحبوبة . وهذا التشخيص كلّ حدوده حسية

بارزة (الأنواء - البكاء) .

ويتواصل في إحدى مقدماته الطليّة مع قصّة من قصص أهل الكتاب ، حيث يقول :

فَرَدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخَدْرِ تَطْلُعُ

نَضًا ضَوْءُهَا صَبِغَ الدُّجْنَةَ فَاِنطَوَى لِبَهْجَتِهَا ثَوْبُ السَّمَاءِ الْمُجَرَّعُ

فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَلْحَلَامُ نَائِمٌ أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرَّكْبِ يَوْشَعُ (6)

فهو في هذه الأبيات يتواصل مع قصّة يوشع بن نون حينما ردت إليه الشمس ، لينتهي من قتال

الجبارين قبل حلول السبت ، ليصور نور محبوبته وبهجتها حينما خرجت من خدرها ، حيث

(1) أبو تمام ، الديوان 1 / 313 .

(2) نفسه 1 / 179 .

(3) النبأ 33 .

(4) أبو تمام ، الديوان 3 / 66 - 67 .

(5) نفسه 1 / 179 .

(6) نفسه 2 / 320 .

أضاعت ظلمة الليل . فهو هنا يستخدم أسلوب الإيماء بالتشبيه , فيومئ إلى المشابهة بين وضع حاضر وآخر غائب , فالوضع الحاضر طلعة محبوبته حين هلت من بين ستائر خدرها , والوضع القديم ارتداد الشمس ليوشع .

ووظف أكثر من موروث في مقدماته , ومن الأمثلة على ذلك قوله في مقدمته

الطَّلِيَّة :

فَكَأَنَّ طَسْمًا قَبْلُ كَانُوا جِيرَةً بَكَ وَالْعَمَالِيقَ الْأَى وَجَدِيسَا
وَأَرَى رُبُوعَكَ مَوْحِشَاتٍ بَعْدَهَا قَدْ كُنْتَ مَأْلُوفَ الْمَحَلِّ أَنْيسَا
وَبِلَاقِعًا حَتَّى كَأَنَّ قَطِينَهَا حَلَفُوا يَمِينًا أَخْلَقْتِكَ غَمُوسَا
رُودٌ أَصَابَتْهَا النَّوَى فِي خُرْدٍ كَانَتْ بُدُورَ دُجْنَةٍ وَشُمُوسَا
بِيضٌ تَدُورُ عُيُونُهُنَّ إِلَى الصَّبَا فَكَأَنَّهُنَّ بِهَا يُدِرْنَ كُوسَا
وَكَأَنَّمَا أَهْدَى شَقَائِقَهُ إِلَى وَجَنَاتِهِنَّ بِهَا أَبُو قَابُوسَا
قَدْ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَجَّةً وَدَدًا وَحُسْنًا فِي الصَّبَا مَعْمُوسَا
لَوْلَا حَدَاتُهَا وَأَنَّى لَا أَرَى عَرْشًا لَهَا لَطَنَّتْهَا بَلْقِيسَا⁽¹⁾

فهو في هذه المقدمة يستوحي من القصص القرآني قصص الأمم البائدة كطسم والعماليق وجديس ليصور آثار ديار محبوبته الدارسة , ويستوحي أيضاً في هذه المقدمة الحديث النبوي الشريف : " اليمين الغموس تدع الديار بلاقع " (2) ليدل على أن ديار محبوبته أصبحت موحشة وخالية من أهلها , وكأن قاطنيتها كانوا يكثر من الأيمان الكاذبة فابتلوا . ويتواصل أيضاً مع النعمان أحد الشخصيات التاريخية حينما يتغزل ليشبهه بشقائقه حمرة خدود الفتيات الجميلات , فكأنها مهداة منها لجمالها , ويوظف أيضاً قصة بلقيس

(1) أبو تمام , الديوان 2 / 263 .

(2) البهقي , السنن الصغرى 2 / 574 .

التراثية حسبما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (1) , وذلك عندما يتذكر ديار محبوبته الرعدة قبل اندثارها , حيث يستوحي هذا المشهد من خيرات سبأ ونعيمها حسبما ورد في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ (2).

ويوظف في مطلع قصيدته المثل القائل : "ويل الشجي من الخلي" (3) حيث يقول :

أَيَا وَيْلَ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ وَبَالِي الرَّبِيعِ مِنْ إِحْدَى بَلِيٍّ (4)

جاء توظيفه لهذا المثل في وقفة طللية , ليبين اللوم والتعنيف اللذين يتعرض لهما بسبب حزنه على فراق محبوبته وشوقه إليها , وأن هؤلاء اللوام لا يشعرون بحاله , فمن لا يعاني لا يشعر بحال من يعاني .

ويستكمل أبو تمام مقدماته بالحديث عن الرحلة على منهج القدماء , فيضمّمها أيضاً من

القرآن الكريم , ومن الأمثلة على ذلك قوله :

مِنَ الْفَلَاصِ اللَّوَاتِي فِي حَقَائِبِهَا بِضَاعَةٌ غَيْرُ مُزْجَاةٍ مِنَ الْكَلِمِ (5)

فهو في وصف الناقة يستوحي قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّا بِيضَاعَةَ مُزْجَاةٍ ﴾ (6) , ليبين ما تحمله الناقة من بضاعة شعره ومديحه غير المزجاة .

ويقول في رحلة له على الفرس :

صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا أَلْبَسْتَهُ مِنْ سُنْدُسٍ بُرْدًا وَمِنْ إِسْتَبْرَقِ (7)

(1) النمل 23.

(2) سبأ 15

(3) الميداني , مجمع الأمثال 3 / 363.

(4) أبو تمام , الديوان 3 / 351.

(5) نفسه 3 / 186.

(6) يوسف 88.

(7) الكهف 31

فهو يستوحي صورة من صور الجنة من قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴿١﴾ , لِيبيِّن شِدَّةَ إِعْجَابِهِ بِصَفَاءِ أَدِيمِ فَرَسِهِ .

وفي مجال حديثه عن الرحلة أيضاً يتواصل مع لقمان الحكيم في قوله :

أَتَيْتُ الْقَادِسِيَّةَ وَهِيَ تَرَنُو إِلَيَّ بِعَيْنِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ
فَمَا بَلَغَتْ بِنَا عُسْفَانَ حَتَّى رَنَتْ بِلِحَاطِ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ (2)

وذلك في وصفه نظرات ناقته , حيث كانت تنظر إليه بحكمة في ذلك الموضع .

وأما عن توظيف التراث في خاتمة القصيدة , فإن أبا تمام كان يختم بعض قصائده ختاماً إسلامياً , ومن ذلك تصويره مكانة آل البيت كما يصورها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (3) في قوله :

كَرْمُ الْعُمُومَةِ وَالْخُوُولَةِ مَجَّةً سَلْفًا فُرَيْشٍ فِيهِ وَالْأَنْصَارِ
هُوَ نَوْءٌ يُمِنُ فِيهِمْ وَسَعَادَةٌ وَسِرَاجٌ لَيْلٍ فِيهِمْ وَنَهَارُ
فَالْأَرْضُ دَارٌ أَقْفَرَتْ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ هَاشِمٍ رَبًّا لَتِلْكَ الدَّارِ
سُورَ الْقُرْآنِ الْغُرْفُ فَيَكُمُ أَنْزَلَتْ وَلَكُمْ تُصَاغُ مَحَاسِنُ الْأَشْعَارِ (4)

ويوظف في الخاتمة قصة ضيف إبراهيم ومن ذلك قوله :

لِلْجُودِ سَهْمٌ فِي الْمَكَارِمِ وَالتَّقَى مَا رَبُّهُ الْمُكْدِي وَلَا الْمَسْهُومُ
بَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ حَبَا وَقَرَى خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ (5)

1 (أبو تمام , الديوان 2 / 320 .

2 (نفسه 4 / 533 .

3 (الأحزاب 33 .

4 (أبو تمام , الديوان 2 / 209 .

5 (نفسه / 291 .

و يتواصل مع مطلع معلقة طرفة في نهاية قصيدته التي يمدح بها أبا سعيد , ليبين أن محاولات أعدائه في الإيقاع بينه وبين الخليفة قد فشلت ودرست صفائح كيدهم , فأصبحت كأطلال محبوبة طرفة ببرقة ثهد :

دَرَسَتْ صَفَائِحُ كَيْدِهِمْ فَكَأَنَّمَا أَدُكَّرْنَ أَطْلَالَ بَيْرُقَةَ تَهْمَدِ (1).

و يتواصل مع جرير والبعيث , للإطراء على شعره والإشادة به .

خُذْهَا فَمَا نَالَهَا بِنَقْصٍ مَوْتُ جَرِيرٍ وَلَا الْبَعِيثِ

وَكُنْ كَرِيمًا تَجِدُ كَرِيمًا فِي مَدْحِهِ يَا أبا الْمُغِيثِ (2)

والأمثلة كثيرة لا يتسع المجال للوقوف عليها , وإنما أكتفي بهذه الأمثلة للتدليل

على أثر التراث في بناء القصيدة عند أبي تمام .

وعلى الرغم من بنيته الداخلية للقصيدة بنسيج لغوي خاص , ومنهج جديد في خلق

الصورة , فإنه يخضع إلى حد كبير لمقاييس القدماء في البنية الخارجية للقصيدة على

مستوى الموضوع والوزن والقافية والبناء الفني وبخاصة في قصيدة المدح (3) .

أثر التراث في بناء القصيدة عند المتنبي

لا شك أن نشأة المتنبي في البادية , وتغلغله في حياتها وعشقه لطريقة العيش

فيها , أثر في إقباله على المطالع التقليدية (4) . وعلى الرغم من فحولته الفنية ,

واعتماده الشديد بشخصيته , فقد حرص على هذا التقليد الفني في معظم قصائده , ولم

يفكر تفكيراً جدياً في التخلص من هذه المقدمة والوقوف عليها أو الخروج عليها , غاية ما

(1) أبو تمام , الديوان 140/2 .

(2) نفسه 328/1 .

(3) ينظر أبو شوارب , محمد مصطفى , شعرية التفاوت - مدخل لقراءة الشعر العباسي /84 .

(4) ينظر عزام , عبد الوهاب , تكرر أبي الطيب بعد ألف عام / 33 .

في الأمر أنه كان يفكر أحياناً في التمرد عليها , لكن سرعان ما يعود إليها⁽¹⁾. فهو يقف على الأطلال كما وقف الأوائل , فيصفه , ويذكر مشاعره تجاهه , وقد يتعرّض لرحلة الحبيب ووصف الطعائن , ويذكر ألمه ولوعته بعد الفراق , وينتقل إلى الغزل والتغني بمحاسن المحبوبة , مع الإبداع والتجديد في إطار القديم , ويصبغه بمبالغاته وتصوّراته الطريفة التي تخلع على القديم سمة الجدة , مع عمق الفكرة , وغالباً لا يكرّر في قصيدته ما ذكره في أخرى⁽²⁾ .

ويصوّر المتنبي تعلقه بالوقفة الطلّية , وتفضيلها عن غيرها من المطالع و وطريقته في بكائها , والتغزل في الحسان , في مقدّمة قصيدته التي مطلعها :

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبِّعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ⁽³⁾

فهو يصف في هذه القصيدة وفاءه للرّبع , ولتقاليد القصيدة العربيّة التي يسير على نهجها , فيضمّن مطلعها ما ورثه من الوقوف على الطلّ الدّارس , والدّعاء له بالسّقيا , ووصف رحلة الطّعائن , ويتغزل بالمحبوبة , إلّا أنّه لا يكتفي بالمعاني القديمة , بل يضيف إليها ما يطبعها بطابعه الخاصّ . فهو في هذه الوقفة يتشابه مع امرئ القيس في معلقته من حيث خطاب الرّقيقين , ومفاجأة الرّبع , وتهالك العاشق , وإشفاق الخليل , ومنعة المحبوبة وجمالها , والحديث عن الخدور والكمائم .

وينعكس موقف المتنبي من الطلّ , فيقول:

مُلَّتِ القَطْرِ أَعْطَشُهَا رُبُوعاً وَإِلَّا فَاسْفَهَا السَّمُّ النَّقِيعَا

¹ (ينظر منير , سامي , ملاح وحدة القصيدة في الشعر العربي بين القديم والحديث / 235 .

² (ينظر شلبي , سعد إسماعيل , مقدّمة القصيدة عند أبي تمام والمنتبي/ 105 - 106 .

³ (المتنبي , الديوان 3 / 325 .

أَسْأَلُهَا عَنِ الْمُتَدَيِّرِ بِهَا فَلَا تَدْرِي وَلَا تُدْرِي دُمُوعاً (1)

ويخاطب المنتبّي السحاب بقوله : يا سحاباً دائم القطر أعطش هذه الربوع , وإن لم تعطشها فاسقها السمّ النقيع في الماء , فهو هنا يدعو عليها بالسمّ , لأنّه لما وقف بها وسألها , لم تجبه , ولم تبك على من رحل عنها . متأثراً بقول جرير :

سُقِيتِ دَمَ الْحَيَاتِ مَا بَالُ زَائِرٍ يُلِمُّ فَيُعْطَى نَائِلاً أَنْ يُكَلِّمًا (2)

فمع أنّ المنتبّي قد خالف ما جرت عليه عادة الشعراء بالدعاء على الديار بالسمّ , إلاّ أنّه انطلق من معنى جرير , ليسترعي الانتباه بهذه المقدّمة , فضلاً عن أنّه يرمز إلى ثورته واضطراب نفسيّته .

ويشرك الطلل في بكائه , فيقول :

أَتَلْتِ فَيَانَا أَيُّهَا الطَّلُّ نَبْكِ وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ

أَوْ لَا فَلَا عَتَبَ عَلَى طَلِّ إِنَّ الطُّلُوبَ لَمِثْلَهَا فَعُلُ

لَوْ كُنْتَ تَنْطِقُ قُلْتَ مُعْتَدِرًا بِي غَيْرُ مَا بَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ

أَبْكَأَكَ أَنْكَ بَعْضُ مَنْ شَغَفُوا لَمْ أَبْكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ قَتَلُوا (3)

فهو في هذه الوقفة يطلب لطله أن يكون ثالثهما في البكاء على فقد الأحبة , يقصد هو والطلل بيكيان , والإبل تحن معهما وتساعدهما بالبكاء على ما غيرته الأيام من بهجته ونضارته , وهو في هذا المطلع يقتدي بقول البحرّي في مطلعته , حيث يقول :

أُطَلِّبُ ثَالِثًا سِوَايَ فَيَانِي رَابِعُ الْعَيْسِ وَالْدُّجَى وَالْبَيْدِ (4)

ولا يخفى هنا ما أضافه المنتبّي من تجديد على هذا المطلع الموروث .

(1) المنتبّي , الديوان 2 / 249 - 250 .

(2) ابن عطية , جرير , الديوان 3 / 979 .

(3) المنتبّي , الديوان 3 / 299 - 300 .

(4) البحرّي , الديوان 2 / 327 .

كما يتواصل المتنبي في مقدماته الطللية إلا مع قصة عروة بن حزام في بكائه على صاحبه عفراء , فيقول :

فَكَانَ كُلَّ سَحَابَةٍ وَكَفَّتْ بِهَا تَبْكِي بَعِيْنِي عُرْوَةَ بِنِ حِزَامِ (1)

ليشبه هطلان السحاب على تلك الدمن ببياء عروة بن حزام على فراق صاحبه, ممّا يدلّ على كثرة ما تجري عليها من السحب من الأمطار , فمحت آثار تلك الديار .
ومن قصص الأنبياء يتواصل مع داود - عليه السلام - من خلال الإشارة إلى صنعه في مقدّمة غزليّة :

نُودِعُهُمْ وَالْبَيْنُ فِينَا كَأَنَّهُ قَنَا ابْنَ أَبِي الْهَيْجَاءِ فِي قَلْبِ فَيْلَقِ

قَوَاضٍ مَوَاضٍ نَسَجُ دَاوُدَ عِنْدَهَا إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ كَنَسَجِ الْخَدْرَنْقِ (2)

فبيّن المتنبي فعل فراق المحبوبة فيه عند وداعه لها , حيث عملت فيه عمل رماح سيف الدولة في أعدائه , فهي مدهشة في صفاتها ومعجزة في أفعالها , ومتميّزة عن غيرها بمضائها وإحكام صنعتها وقيمتها فهي رماح أسطوريّة , حتّى إنّها تخترق درع داود - عليه السلام - المحكمة الصّنع , دون أن تخطئ الهدف . وفي مقدّمة أخرى يتواصل مع سليمان - عليه السلام - حيث يقول :

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْبِدِّ وَاللِّسَانِ

مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ (3)

1 (المتنبي , الديوان 4 / 71 .

2 (نفسه 2 / 309 .

3 (نفسه 4 / 151 - 152 .

فيؤكد أنّ لغة شعب بوان بعيدة عن الأفهام , حتّى إنّ سليمان - عليه السّلام - لو أتى لزيارتهم لاحتاج إلى من يترجم له مع علمه باللّغات ممّا يدلّ على ضياع الوجود العربيّ , وغلبة العنصر الأعجميّ .

كما يتواصل المتنبّي مع بعض الأعلام التّاريخيّة في مقدّمة قصيدته , في قوله :

لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا (1)

ليبيّن أنّ دواءه هو وصال محبوبته , وليس في وصفات جالينوس الطّبيّة.

ويتابع تواصله مع أحداث التّاريخ في مقدّمة غزليّة , فيتواصل مع قصّة فتح سابور

الحصن في قوله :

تَأَلَّمُ دَرَزُهُ وَالْدَرَزُ لَيْنٌ كَمَا تَتَأَلَّمُ الْعَضْبَ الصَّيْعَا (2)

ليرسم صورة المحبوبة المثاليّة الرّقيقة النّاعمة , ويجعلها معادلاً لممدوحه عليّ بن إبراهيم التّتوخيّ في تعامله مع أوليائه , رغم قوّته وبأسه وهيبته مع أعدائه .

ويوظّف المثل في مقدّمة غزليّة , يصوّر فيها اشتياقه لمحبوبته , فيقول :

كَمْ زُورَةٍ لَكَ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَةٍ أَدَهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زُورَةِ الذُّيْبِ (3)

يزور المتنبّي محبوبته دون أن يشعر به أحد , كالذّئب في زيارته الغنم , يقع فيها ويذهب

بما يذهب منها على غفلة من الرّاعي . مستوحياً المثل القائل : "أعدى من الذّئب" (4).

كما أفاد المتنبّي في مقدمات قصائده من التّراث , فإنّه أفاد منه في تخلصه . ومن

ذلك استعانته في التّخلص إلى ذكر الممدوح بالإشارة إلى قصّة خروج آدم - عليه الصّلاة

والسّلام - من الجنّة , فيقول :

1 (المتنبّي , الديوان 2 / 196 .

2 (نفسه 2 / 251 .

3 (نفسه 1 / 161 .

4 (الميداني , مجمع الأمثال 2 / 324 .

أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَّ الْمَعَاصِي وَعَلَّمَكُمْ مَفَارِقَةَ الْجِنَانِ
فَقُلْتُ إِذَا رَأَيْتُ أَبَا شُجَاعٍ سَلَوْتُ عَنِ الْعِبَادِ وَذَا الْمَكَانِ (1)

فبيّن لهفته للقاء عضد الدولة البويهّي، فرغم جمال المكان الذي يعدّ بمثابة الجنة إلا أنه تركه ليلقاه. فكما أنّ معصية آدم - عليه الصلاة والسلام - لله - عزّ وجلّ - كانت السبب في خروجه من الجنة، فإنّ طموح المتنبّي في الوصول إلى عضد الدولة، أخرجه من بوّان التي كانت له بمثابة الجنة.

ويتواصل المتنبّي مع التّراث في خاتمة بعض قصائده، ومن ذلك تواصله مع

الحديث النبويّ الشريف ليشيد بشعره، حيث يقول:

إِنَّ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هُدَاءٌ لَيْسَ شَيْئًا وَبَعْضُهُ أَحْكَامٌ
مِنْهُ مَا يَجْلِبُ الْبِرَاعَةَ وَالْفَضْلَ لُ مِنْهُ مَا يَجْلِبُ الْبِرْسَامُ (2)

فيؤكّد أنّ من الشعر ما يكون عن دراية و فضل ومعرفة " يقصد شعره "، ومنه ما يكون هذيان يجلب العلة والمرض " يقصد شعر غيره مستوحياً الحديث الشريف " إنّ من الشعر لحكمة " (3). وكذلك يفعل في خاتمة قصيدة عاتب فيها سيف الدولة الحمداني حيث يقول:

وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي كُلُّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ مَحَا الذَّنْبَ كُلِّ الْمَحْوِ مَنْ جَاءَ تَائِبًا (4)

فهو يؤكّد لسيف الدولة أنّ ذنبه وإن كان ليس بعده ذنب، فإنّ توبته تمحوه، لأنّ من جاء تائباً استوجب العفو مستنداً إلى الحديث النبويّ: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له" (5).

1 (المتنبّي، الديوان، 4 / 256).

2 (نفسه، 4 / 101).

3 (ابن حنبل، المسند، 3 / 456 و 5 / 125).

4 (المتنبّي، الديوان، 1 / 71).

5 (ابن ماجه، صحيح سنن ابن ماجه، 2 / 418 والصالح، الشذرة في الأحاديث المشتهرة 2 / 220).

ويتواصل المتنبي في خاتمة بعض قصائده مع قصص بعض الأنبياء - عليهم

السّلام - ، فيقول :

أنا في أمة تداركها اللّـه له غريب كصالح في ثمود (1)

ليشيد بفضله وشرفه في خاتمة هذه القصيدة ، من خلال تشبيهه نفسه بصالح - عليه

السّلام - في تميّزه ومعاناته وغربته بين هؤلاء القوم الذين يدعو عليهم بالعذاب والشر .

ويختتم المتنبي بعض قصائده بذكر الأنساب ، حيث يقول :

فحييت خير ابنٍ لخير أبٍ بها لأشرف بيتٍ في لؤي بن غالب (2)

ليشيد بنسب ممدوحه .

وهكذا يتضح أثر التراث الديني والأدبي والتاريخي في بناء قصائد أبي تمام

والمتنبي ، ولكنّ أبا تمام قد عني بتوظيف التراث الديني في بناء قصائده بشكل أكبر من

الموروثات الأخرى ، بينما اهتم المتنبي بالتراث الأدبي . وربما يكون مردّ ذلك إلى

تكوين شخصيّة كل منهما وبيئته . فأبو تمام عاش في عصر يتميّر بالاستقرار السياسي

فانعكس ذلك على نفسيّته وشخصيّته ، بينما المتنبي عاش في عصر كانت السّلطة فيه

للأعاجم ، فتمرّد على واقعه .

التراث وتشكيل اللّغة

إنّ اللّغة إلى جانب كونها ألفاظاً ومعاني فإنّها تتطوي على كثير من الموسيقيّة

والوجدانية والخيالية على ألوان من الرّمز والإيحاء والإيماء ، وإنّنا عن طريق اللّغة نلمس

(1) المتنبي ، الديوان 324/1 .

(2) نفسه 1 / 159 .

ونرى ونشعر لا بحواسنا الظاهرة فحسب بل بعقولنا ومواطن إدراكنا , ففيها ألوان شتى من التعبير , والموسيقا جزء هام من اللغة , وتعبير من جملة تعبيراتها(1) .

وبذلك فإن استلهام التراث في شعر أبي تمام والمنتبّي ظاهرة فنيّة , حيث يستطيع الشاعر من خلال هذا التداخل اللغوي أن يعبر عن رؤيته و مشاعره وأحاسيسه وتجاربه الشعريّة , سواء أكان ذلك بشكل مقصود أم غير مقصود , فيدمجها في علاقات داخلية تظهر خلالها متألفة أو متنافرة , ويصوغها وفقاً لرؤيته الشعريّة والوجدانية , لتؤدي في النهاية صورة تتناغم ومنطق نصوصه , فتشكّل في مجملها أنساقاً نصويّة متجانسة تعبّر من خلال لوحاتها المتعدّدة عن تجربة الشاعر وواقعه وأحاسيسه ومشاعره .

أثر التراث في لغة أبي تمام

وتناول أبو تمام معاني شعره ممّن سبقوه وأخرجها إخراجاً جديداً استعان فيه بدقّة فكره وروعة خياله , مضيفاً إليها كثيراً من دقائق ذهنه وبدائع ملكاته .(2) فأجاد أبو تمام في المعاني التي سبق إليها , فخلع صفات الجود والشجاعة على الممدوحين , وهذه الصّورة تكاد تكون عند أغلب الشعراء , ولكن حين يتناولها أبو تمام يضيف عليها من أفكاره وفنّه كأنّها من ابتكاره , ومن الأمثلة على ذلك قوله :

هُوَ الْيَمُّ مِنْ أَيِّ النَّوْحِي أَتَيْتَهُ فَلَجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
تَعَوَّدَ بَسَطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُهُ (3)

وقد تأثر أبو تمام في قصيدته فتح عموريّة بالمعجم التصويري واللغوي للأخطل في بائيته التي نظمها في مدح عبد الملك بن مروان , وبخاصّة في أبياته التي يقول فيها :

1 (ينظر حسن , عبد الحميد , الأصول الفنية للأدب / 59 .

2 (ينظر ضيف , شوقي , الفن ومذاهبه في الشعر العربي / 223 .

3 (أبو تمام , الديوان / 3 / 29 .

حَيِّ الْمَنَازِلَ بَيْنَ السَّفْحِ وَالرُّحْبِ لَمْ يَبْقَ غَيْرُ وُشُومِ النَّارِ وَالْحَطَبِ
فَهِيَ كَسَحَقِ الْيَمَانِيِّ بَعْدَ جِدَّتِهِ وَ دَارِسِ الْوَحْيِ مِنْ مَرْفُوضَةِ اللَّبِّبِ
وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ كَاذِبَةٍ بِاللَّهِ رَبِّ سُنُورِ الْبَيْتِ ذِي الْحُجْبِ
وَكُلُّ مَوْفٍ بِنَدْرِ كَانَ يَحْمِلُهُ مُضْرَجٍ بِدِمَاءِ الْبُدْنِ مُخْتَضِبِ
إِنَّ الْوَلِيدَ أَمِينُ اللَّهِ أَنْقَذَنِي وَكَانَ حِصْنًا إِلَى مَنَاجَاتِهِ هَرَبِي
يَخْشَيْنَهُ كُلَّمَا ارْتَجَّتْ هَمَاهِمُهُ حَتَّى تَجَشَّمَ رَبُّوًا مُحْمَشَ التَّعْبِ
تَرْمِي مَقَاتِلَ فُرَاغٍ فَتُقْصِدُهُمْ وَمَا تُصَابُ وَقَدْ يَرْمُونَ مِنْ كَتَبِ (1)

فتكررت الألفاظ بين قصيدة فتح عمورية وأبيات الأخطل مثل : الكتب , والنار , والرحب
والحطب , وكتب , والحجب , ومختضب , والهرب , والحصن , والتعب .

ويجمع الأخطل بين الطلل والمدح , و يصف أبو تمام الحرب , غير أن ملامح
الصّور تتشابه , حين يذكر أبو تمام أدوات الحرب ومشاهدها , وحين يضيء الفضيلة
الدينية على ممدوحه , فهو أمين الله وحصن الشاعر , وفي موقف قوي يخشاه الأعداء ,
وممدوح الأخطل لم يصل إلى ما وصل إليه " حَتَّى تَجَشَّمَ رَبُّوًا مُحْمَشَ التَّعْبِ " , كما عبر
المعتصم " على جسر من التعب " . وهو يرمي الأعداء في مقاتلهم على نحو ما صور أبو تمام
بطولة المعتصم .

ويفيد أيضاً من الأخطل حين يصور صفرة وجوه الروم نتيجة هزيمتهم وطبيعتهم ,

حيث يقول:

نَفِينَاهُ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ فَأَصْبَحَتْ وَجُوهُ صُفْيٍ مِنْ عَدَاوَتِنَا صُفْرًا (2)

فالأخطل يصور كيف عاد عدوه مندرحاً مصفر الوجه لشدة الخوف , وأبو تمام هنا يستوحي

(1) الأخطل , الديوان / 29 - 31 .

(2) نفسه / 169 .

المعنى واللفظ معاً ، ولكن بلغة وسياق جديدين .

ويستغلّ أبو تمام في هذه القصيدة عناصر بدويّة قديمة في الرّمز والتعبير عن أفكار حديثة

نحو قوله :

يا يَوْمَ وَقَعَةٍ عَمُورِيَّةٍ انصَرَفَتْ مِنْكَ الْمُنَى حُقُلاً مَعْسُولَةَ الْحَلَبِ (1)

فهو هنا يمزج بين الثقافات وألوان الشعر مزجاً طريفاً ، حيث يعمد إلى عنصر قديم وهو الحلب ، فيحوّره تحويراً جديداً ، بإضافته العسل إليه فيعطيه طعماً طريفاً . وأخذ من صورها مثل : مخض البخيلة ، ووحشة السّاحات التي عرفها الطّل كما عرفتها عموريّة ، والماء والعشب ، والأوتاد والطنّب ، وعدو الظّليم وربع ميّة الذي نسبه إلى صاحبه ذي الرّمة ، حيث كان يكثر من تصويره ، فنقل المشهد الغزليّ كاملاً إلى جمال خراب عموريّة ، حيث يقول :

ما رَبِعُ مِيَّةَ مَعْمُوراً يُطِيفُ بِهِ غَيْلانُ أَبهى رُبىٍّ مِنْ رَبْعِها الخَرَبِ (2)

كما حرص على الإفادة من المعجم الدّيني : " الأوثان والصلّب وعمود الشّرك والمشركين ودار الشّرك " ليضع في موازاتها من المعجم نفسه " أبواب السّماء وسنة الدّين والإسلام وخليفة الله وأمير المؤمنين وجرثومة الدّين والإسلام والحسب " ، ليوضح موقفه ، ويؤكد أهمية ما قام به الخليفة للإسلام .

وانتحى أبو تمام ناحية مسلم بن الوليد في تصنيعه ، إذ كان ذوقه ذوق متحضّرين يغرّم بالتّصنيع والزّينة ، فاعتمد على الطّباق والجناس ، وهذه حلى لفظية مشهورة في الشعر القديم ، ولكن كثافتها برزت في الشعر العباسي لا سيّما عند مسلم بن الوليد (3) فالبديع موجود في

(1) أبو تمام ، الديوان 1 / 46 .

(2) نفسه 1 / 56 .

(3) ينظر العزاوي ، نعمة ، لغة الشعر عند أبي تمام ، المورد م 25 ع2 ، 1997 ص 84

القرآن الكريم واللغة وأحاديث النبي - عليه السلام - وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ،
وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، غير أن أبا تمام اهتم به حتى غلب
عليه ، وتفرغ فيه ، وأكثر منه ، فأحسن في بعض وأساء في بعض (1) ، ومن الأمثلة على
ذلك :

أولاً - الطَّباق: وهو مصدر من مصادر الموسيقى ، وأسلوب لغوي يدل على مقدرة الشاعر على
احتذاء غيره من الشعراء ، ومجاراتهم والصبّ في قولهم اهتم به أبوتمام ، وبرع فيه . ومن
الأمثلة عليه قوله يمدح أبا سعيد الثغري :

لَمَّا أَبَوَا حُجَجَ الْقُرْآنِ وَاضِحَةً كَانَتْ سَيُوفُكَ فِي هَامَاتِهِمْ حُجْجًا
أَقْبَلْتَهُ فَخَمَةً جَاءُوا لَسْتَ تَرَى فِي نَظْمِ فُرْسَانِهَا أُمَّتًا وَلَا عَوْجًا (2).

فيؤكد أبو تمام حسن إدارة ممدوحه في حرب الخرمية ، وذلك من خلال تنظيمه لجيشه ، إذ كان
لاعوج فيه ولا ارتفاع ولا هبوط موظفًا الطَّباق " عوجاً ، أمتاً " من قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ (3)
ولكنه قدم وأخر وجعله أمتاً ولا عوجاً لضرورة القافية .

ويعاتب أبو تمام الحسن بن وهب قائلاً :

لَا يُحْمَدُ السَّجَلُ حَتَّى يُحْكَمَ الْوَدْمُ وَلَا تَرْبُ بِغَيْرِ الْوَاصِلِ النَّعْمُ
وَفِي الْجَوَاهِرِ أَشْبَاهٌ مُشَاكِلَةٌ وَلَيْسَ تَمْتَرِجُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلْمُ (4)

فقد قاطع ممدوح أبي تمام ابن عمه ، فحاول أبو تمام أن يصلح بينهما ، فبين له أن النعم
لا تدوم إلا بصلة الرحم ، ودعا ممدوحه إلى الاتحاد مع ابن عمه كي تيسر الأمور ،

(1) ينظر ابن المعتز ، البديع / 15 - 16 .

(2) أبو تمام ، الديوان / 1 / 333 .

(3) طه 105 - 107 .

(4) أبو تمام ، الديوان / 4 / 488 .

فالجواهر لا تكون جميلة إلا إذا كانت نظائر متساوية بجانب بعضها بعضاً , كما أن الأنوار والظلمات لا يمكن أن تستوي أو يختلط بعضها ببعض , مستثماً الطباق من قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ (1) .

كما استمدَّ الطباق من المعاني الفقهية , إذ يقول :

وَوَاللَّهِ مَا آتَيْكَ إِلَّا فَرِيضَةً وَأَتَى جَمِيعَ النَّاسِ إِلَّا تَنَفُّلاً (2)

فاستخدم لفظتي " الفرض والنفل " لغرض الطباق في سياق يختلف عن دلالتهما الفقهية , وذلك في مدح محمد بن عبد الملك الزيّات, لبيّن له أهميته , وتميّزه عن سائر الناس . وتحول الطباق إلى صورة خالفت ما عرفه القدماء من طرق استخدامه , بما فيه من مبالغة وعمق وتعقيد , وهي تلك الصّورة التي يطلق عليها نوافر الأضداد , فهو لا يستخدم الطباق استخداماً ساذجاً , ولا يجعل التّضاد تضاداً لفظياً فحسب , وإنما يستخدمه استخداماً معقّداً بما يلوّنه به من ألوان عقلية مختلفة تجعل المقابلة المعنوية عنصراً أساسياً في الصّورة (3) .

ويستوحي أبو تمام الطباق من الشعر القديم , ومن الأمثلة على ذلك قوله :

نَظَرْتُ فَالْتَفَتْتُ مِنْهَا إِلَى أَحَدٍ لِي سَوَادٍ رَأَيْتُهُ فِي بَيَاضٍ (4)

نظر أبو تمام إلى محبوبته فأعجبه سواد عينيها في بياض وجهها مستوحياً ألفاظه من قول

كثير :

وَعَنْ نَجْلَاءَ تَدَمَعُ فِي بَيَاضٍ إِذَا دَمَعَتْ وَتَنْظُرُ فِي سَوَادٍ (5)

(1) الرعد 16 .

(2) أبو تمام , الديوان 3 / 103 .

(3) خليف , يوسف , تاريخ الشعر في العصر العباسي / 125- 126 .

(4) أبو تمام , الديوان 2 / 309 .

(5) كثير , الديوان / 219 .

وأراد كثير أن عيني محبوبته تدمع في بياض إذا وقعت , يريد خدها , وتنتظر في سواد , يريد حدقتها . وليس بين المعنيين اتفاق إلا بذكر السواد والبياض , والألفاظ غير محظورة .
 ثانياً - التكرار : وهو من الظواهر اللغوية الشائعة في شعر أبي تمام , وله وقع في الأذن والنفس , لما يضيفي على النفس من موسيقى سواء أكان على مستوى الحروف أم الكلمات ومن الأمثلة على ذلك قوله :

مَوَاهِبٌ لَوْ تَوَلَّى عَدَّهَا هَرَمٌ لَمْ يُحْصِهَا هَرَمٌ حَتَّى يُرَى هَرَمًا⁽¹⁾

إن تكرار أبي تمام لهرم أسهم في تشكيل الإيقاع الداخلي للقصيدة , كما أسهم في تشكيل القافية في النص . وهو هنا كرر " هرم " على سبيل التعظيم للمحكي عنه .
 وقوله :

صَبَّحَتْهُ بِسَلَاةٍ صَبَّحَتْهَا بِسَلَاةٍ الْخُلُطَاءِ وَالنَّدْمَاءِ⁽²⁾

فقد جعل أبو تمام الذين صبح بهم هذه السلافة سلافة من خالط ونام , أي أفضلهم , مستوحياً قول أبي نواس :

فَالرَّاحُ طَيِّبَةٌ وَلَيْسَ تَمَامُهَا إِلَّا بِطِيبِ خَلَاتِقِ الْجَلَّاسِ⁽³⁾

ثالثاً - الجنس : ومن الأمثلة على ذلك قوله :

جَلَا ظُلُمَاتِ الظُّلْمِ عَنْ وَجْهِ أُمَّةٍ أَضَاءَ لَهَا مِنْ كَوَكَبِ الْحَقِّ آفَلُهُ⁽⁴⁾

فأبو تمام يؤيد المعتصم في خلافته , ولتحقيق ذلك عمد إلى بيان فضائله وأعماله الجليلة التي أسداها لأمته مستوحياً الجنس " ظلمات - الظلم " من الحديث النبوي الشريف :

(1) أبو تمام , الديوان 3 / 174 .

(2) نفسه 1 / 26 .

(3) أبو نواس , الديوان / 303 .

(4) أبو تمام , الديوان 3 / 26 .

"الظلم ظلمات يوم القيامة" (1). فالجناس هنا له دور موسيقي، ومعنوي حيث عمد إليه أبو تمام ليؤكد إقامة الخليفة المعتصم العدل وإزالته الظلم وآثاره، وإحقاقه الحق المسلوب، وإنارته الطريق لمن حوله.

أثر التراث في لغة المتنبي

لقد تأثر المتنبي بالتراث الديني والأدبي والتاريخي والأسطوري كما يتضح في الفصول الأول والثاني والثالث من هذا البحث. وإضافة إلى ذلك فإنه يستوحي من المعجم الفقهي ما يساعده في توضيح معناه، نحو قوله:

فَمَا لَكَ تَقَبُّلُ زُورِ الْكَلَامِ وَقَدْرُ الشَّهَادَةِ قَدْرُ الشُّهُودِ

فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ وَلَا تَعْبَأَنَّ بِمَحَكِ الْيَهُودِ (2)

فيبين المتنبي بطلان الحكم عليه بالسجن، لأن من شهد عليه لم تنطبق عليه شروط شاهد العدل، فالشهادة على قدر الشهود، فإن كان الشاهد عدلاً قبلت شهادته وإن كان من السقطة الساقطين ردت شهادته.

ويورد مثل ذلك في خاتمة قصيدة مدح فيها القاضي أبي الفرج أحمد بن الحسين

المالكي، فيقول:

أَقَاضِينَا هَذَا الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ غَلَطْتُ وَلَا التُّلْثَانِ هَذَا وَلَا النَّصْفُ

وَدَنْبِي تَقْصِيرِي وَمَا جِئْتُ مَادِحاً بِدَنْبِي وَكَانَ جِئْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَعْفُو (3)

فيستمد بعض الألفاظ التي تتعلق بأحكام المواريث التي يستخدمها عادة القضاة لبيّن تقصيره في مدح هذا القاضي.

(1) البخاري، صحيح البخاري / 506 و العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري 9 / 194.

والصالح، الشذرة في الأحاديث المشتهرة 1 / 384.

(2) المتنبي، الديوان 1 / 347.

(3) نفسه 2 / 291.

ومن أقواله التي يبدو فيها الأثر الفقهي واضحاً :

وَزَارَكَ بِي دُونَ الْمُلُوكِ تَحْرُجِي إِذَا عَنَّ بَحْرٌ لَمْ يَجْزُ لِي التَّيْمُ (1)

ليبين أنه يؤثر بمدوحه بالزيارة ، ويخصه بها دون الملوك ، فضرب المثل لمدوحه بالبحر ، ولباقي الملوك بالتراب ، فإذا حضر الماء بطل التيمم .

يتمتع المتنبي بشاعرية عظيمة غير أنه بقي أسيراً لمخزونه الثقافي ، وهذا المخزون ظل ينعكس في شعره ، فعكس أسلوباً جديداً في تشكيل شعره ، وهو استخدامه أسلوب التصغير بهدف التعظيم ، وقد استخدمه الشعراء الذين سبقوه للتعبير عما يجول في خاطرهم . وهو من الأساليب اللغوية التي عمد المتنبي لاستخدامها ، وأضفت على شعره طابع الغرابة ، يقول المتنبي :

إِذَا عَذَلُوا فِيهَا أَجَبْتُ بِأَنَّةٍ حُبَيْبَتَا قَلْبًا فُوَادَا هِيَ جُمْلُ (2)

فإذا ما عذلوا المتنبي في هذه المحبوبة لم يلتفت إليهم ، ويجب العذال في هذه المحبوبة : يا حبيبتي ، يا قلباً يا فواداً يا جمل ، فلا يسمع فيها عذلاً . فقد استخدم هنا أسلوب النداء ، فحذف أداة النداء " الياء " ليدل على قرب المحبوبة من نفسه ، ورقته في التعامل معها ، واستخدم أسلوب التصغير " يا حبيبتي " بهدف تعظيم هذه المحبوبة . وقد طرق الشعراء من قبل مثل هذه الأساليب في التعبير عن عواطفهم تجاه من يحبون ، ومنهم لبيد حيث يقول :

وَكُلُّ أَنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَّةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْأَنَامِلُ (3)

فقد عبر لبيد بالدويهيّة عن الموت مستخدماً أسلوب التصغير لتعظيم أمر الموت .

1 (المتنبي ، الديوان 4 / 91 .

2 (نفسه 3 / 182 .

3 (ابن أبي ربيعة ، لبيد ، الديوان / 131 .

كما استخدم أيضاً أسلوب التصغير بهدف التحقير، فيقول :

أولى اللّثام كُوَيْفِيرٌ بِمَعْدِرَةٍ فِي كُلِّ لَوْمٍ وَبِعَضِّ الْعُذْرِ تَقْنِيدٌ⁽¹⁾

فكافور أولى اللّثام في أن يعذر على لؤمه لخبث أصله وخسة قدره وعجزه عن المكارم ، وقد سبقه أبو تمام في هذا الأسلوب في مخاطبة الخصوم ، فيقول مخاطباً موسى الرّافقي :

أَمْوَيْسُ كَيْفَ رَأَيْتَ نَصَبَ حَبَائِلِي أَوْلَيْسَ خَتْلِي فَوْقَ خَتْلِ الْخَاتِلِ⁽²⁾

وقوله :

أَمْوَيْسُ لَا يُغْنِي اعْتِدَارُكَ طَالِباً عَفْوِي فَمَا بَعْدَ الْعِتَابِ عِقَابُ⁽³⁾

لقد أسهم التراث في تشكيل لغة المتنبي الشعريّة ، حيث تحولت لغته التي يخاطب بها ممدوحيه من دلالتها اللفظية القريبة إلى دلالات أعمق وأشمل مبعثها مشاعره ونوازع نفسه ، فاستخدم لغة العشق والحبّ في خطابهم ، ومن الأمثلة على ذلك قوله :

تَرَكْتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنُعْمَاكَ عَسْجَداً

وَقَيْدَتْ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقْيِيدًا⁽⁴⁾

بلغ المتنبي كلّ ما طلب من الآمال والمال ، وأقام عند سيف الدولة حياً له ، وإحسانه هو الذي قيده ، مخاطباً إياه بلغة الحبّ ، متأثراً بقول أبي تمام :

وَتَرَكَ سُرْعَةَ الصِّدْرِ اغْتِبَاطاً يَدُلُّ عَلَى مُوَافَقَةِ الْوُرُودِ⁽⁵⁾

1 (المتنبي ، الديوان 2 / 46 .

2 (أبو تمام ، الديوان 4 / 413 .

3 (نفسه 4 / 311 .

4 (المتنبي ، الديوان 1 / 291 - 292 .

5 (أبو تمام ، الديوان 1 / 256 .

حيث يمدح أبو تمام محمد بن يوسف بلغة الحبّ ، فيبيّن شوقه إليه ، لأنه يجد عنده ما يسدّ به حاجته ويكفيه . فالشاعران هنا متفقان بالموضوع واستخدام قافية الدال . وقد نقل المتنبّي أيضاً ألفاظ الحبّ والعشق إلى وصف السّلاح وعشقه بدلاً من المرأة ، فيقول :

تَبَيّتُ رِمَاحَهُ فَوْقَ الْهُوَادِي وَقَدْ ضَرَبَ الْعِجَاجُ لَهَا رِوَاقَا
تَمِيلُ كَأَنَّ فِي الْأَبْطَالِ خَمْرًا عُلْنٌ بِهَا إِصْطِبَاحًا وَإِغْتِبَاقًا⁽¹⁾

ويستخدم المتنبّي ألفاظ الغزل والنسيب في وصف الحرب⁽²⁾، فيصف الرّماح بلغة الغزل فيبيّن تعلقه وهيامه بها وبأفعالها ، فيرسم لها صورة جميلة ، حيث تبيت هذه الرّماح فوق أعناق خيله في سراه إلى عدوه ، فلا ينزل بالليل أخذاً بالحزم وكأنّها من الغبار الذي تثيره تحت رواق . وتميل كأنّ دم الأبطال خمر علت بها صباحاً وعبوقاً ، فهي لسكرها تميل ، وميلانها إنّما هو للينها . فقد أضحى المتنبّي على رماحه صفات الإنسان من خلال وصفه لها بالبيات ، وجعله العجاج لها رواقاً ، وجعلها تميل كالإنسان الثمل . فالألفاظ : "تبيت ، تميل رواقاً" تتعلق بلغة الحبّ غير أنّ المتنبّي يصف بها الرّماح والطّعان لتعلقه بها . وهو في ذلك متأثر بقول ابن الرّومي :

وإِعْمَالِي إِيَّاكَ بِهِ الْمَطَايَا وَقَدْ ضَرَبَ الظَّلَامُ لَهُ رِوَاقَا⁽³⁾
وقول البحتري :

يَتَعَثَّرْنَ فِي النُّحُورِ وَفِي الْأَوْ جُهُ سُكْرًا لَمَّا شَرِبْنَ الدَّمَاءَ⁽⁴⁾

1 (المتنبّي ، الديوان 2 / 300 – 301 .

2 (الخواجا ، زهدي صبري ، موازنة بين الحكمة في شعر المتنبّي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري / 223 .

3 (ابن الرّومي ، الديوان 2 / 455 .

4 (البحتري ، الديوان 2 / 350 .

فقد استوحى المتنبي نصّ ابن الرومي لفظاً ومعنىً فقله : وقد ضرب لها الظلام رواقاً
مثل قوله : وقد ضرب لها العجاج رواقاً . كما أفاد من قول البحتريّ جعله الرّماح تتمايل
وتتعرّش لشدة لينها وترنّحها سكرًا لكثرة ما شربت من الدّماء حتّى إنّها ثملت بدمائهم
فقله: " يتعرّشون في نحور الأعداء سكرًا" تتسق وقول المتنبي : " تميل كأنّ في الأبطال
خمرا" .

ومن الطّواهر اللّغوية الأخرى في شعر المتنبيّ استخدام المحسنات البديعيّة , ومنها
ألوان البديع التي اقتصر القدماء في استعمالها , فكان وقعها في أشعاره ألطف من وقعها
في أشعار المتقدّمين . ومن الأمثلة على ذلك :

أولاً - الطّباق : أحسن المتنبيّ المقابلة بين الأضداد , كما أحسن في المقابلة بين الألفاظ
التي اختارها ليدلّل على هذه الأضداد , فإذا تمّت له المقابلة بين المعاني المتضادّة , وتمّ له
الاختيار الحسن للألفاظ , وتأتّى له بذلك شيء من الاتّساق البديع فإنّه يلهمي القارئ ويشغله
عما تكلف من الجهد في تحقيق هذا الفن⁽¹⁾ . ومن الأمثلة على هذه الظّاهرة قوله :

نو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعّم⁽²⁾

فيؤكد المتنبيّ أنّ العاقل يشقى وإن كان في نعمة لتفكره في عاقبة الأمور , وعلمه بتحوّل
الأحوال , والجاهل ينعّم وهو في الشقاوة لغفلته , وقلة تفكيره في العواقب . فالطباق في
الألفاظ " العقل , الجهل , النعيم , الشقاوة " يخدم بموسيقاه ظاهرة نحسّ بها ونعايشها
ولكننا لا نستطيع التعبير عنها⁽³⁾ , حيث يعبر عن رفضه لهذا الواقع , وبخاصّة أنّه

1 (ينظر حسين , طه , مع المتنبي / 50 .

2 (المتنبي , الديوان / 4 / 124 .

3 (نافع , عبد الفتاح , لغة الحب في شعر المتنبي / 311 .

يرى في نفسه العبقريّة والعظمة ، وغيره ينعم ويتحكم وهو في أسفل الدّرجات مستوحياً
قول ابن المعتزّ:

وحلاوةُ الدّنيا لِجاهلِها ومِراةُ الدّنيا لِمَن عَقِلا (1)

ثانياً - التّكرار : وهو من الظواهر اللّغويّة الشّائعة في شعر المتنبّي ، وله وقع في الأذن
والنّفس ، لما يضيفي على النّفس من موسيقا سواء أكان على مستوى الحروف أم
الكلمات . ومن الأمثلة على هذه الظّاهرة قول المتنبّي مشيداً بنسب ممدوحه محمّد ابن
عبد الله القاضي الأنطاكيّ في قوله :

أفعاله نَسَبٌ لَوْ لَمْ يَقُلْ مَعَهَا جَدِّي الخَصِيبُ عَرَفْنَا العِرْقَ بِالغُصْنِ

العَارِضُ الهِتْنُ ابْنُ العَارِضِ الهِتْنِ ابْنُ العَارِضِ الهِتْنِ (2)

فبيّن المتنبّي أنّ أفعال ممدوحه الكريمة تدلّ على كرم أصله ، وتقوم مقام النّسب ، فهو
جواد ابن آباء أجواد . فالمتنبّي هنا كرّر لفظه بناء على الحديث النّبوي الشّريف : "
الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم
السّلام " (3) لشرف النّسب .

ومن ذلك قوله:

لَنَا وَلِأَهْلِهِ أَبْدًا قُلُوبٌ تَلَاقِي فِي جُسُومٍ مَا تَلَاقِي

وَمَا عَفَتِ الرِّيحُ لَهُ مَحَلًّا عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمْ وَسَاقَا (4)

(1) المتنبّي ، الديوان 4 / 124 .

(2) نفسه 4 / 216 .

(3) ابن حنبل ، مسند ابن حنبل 2 / 69 .

(4) المتنبّي ، الديوان 2 / 294 .

فالتكرار واضح في النص السابق " تلاقى , ما , تلاقى " , " وما عفت , عفاء " وعرضه نقل دهشة المتنبي وإعجابه العظيم بسيف الدولة , والتأكيد على حبه في قلوب الناس , وهو هنا استثمر قول ابن المعتز في التعبير عن شعوره :

إِن قَالَ هَذَا بَهْرَجَ لَمْ يَنْفَقْ إِنَّا عَلَى الْبُعَادِ وَالتَّفَرُّقِ
نَلْتَقِي بِالذِّكْرِ وَإِنْ لَمْ نَلْتَقِ⁽¹⁾

ثالثاً - الجناس : ومن الأمثلة على ذلك قوله في مقدمة طلبية يبين فيها تجدد ذكرى منازل محبوبته الدارسة :

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَفْقَرْتِ أَنْتِ وَهَنْ مِنْكَ أَوَاهِلُ⁽²⁾

فقد أحدث المتنبي جمالية إنشائية خاصة صاغها من خلال المراوحة بين الجناس والطباق من جهة ؛ وحضور الأسلوبين الإنشائي والخبري من جهة ثانية ؛ وكثافة المد والحروف الخيشومية من جهة , مستوحياً قول أبي تمام :

وَقَفَّتْ وَأَحْشَائِي مَنَازِلُ لِلْأَسَى بِهِ وَهُوَ قَفْرٌ قَدْ تَعَفَّتْ مَنَازِلُهُ⁽³⁾

وقد وظف المتنبي نسب الحمدانيين كمادة للجناس في قوله :

مِنْ تَغْلِبِ الْغَالِبِينَ النَّاسِ مَنَصِبُهُ وَمِنْ عَدِيٍّ أَعَادِي الْجُبْنِ وَالْبَخْلِ⁽⁴⁾

1 (ابن المعتز , الديوان 1 / 502.

2 (المتنبي , الديوان 3 / 249.

3 (أبو تمام , الديوان 3 / 21.

4 (المتنبي , الديوان 3 / 80.

ليؤكد أن أصل سيف الدولة من تغلب التي غلبت الناس نجدة وشجاعة , ومن عديّ الذين هم أعداء الجبن والبخل , إذ إنّ بني حمدان بطن من بني عدي بن أسامة بن غانم بن تغلب (1).

لقد ساهم التراث في تشكيل لغة أبي تمام والمنتبّي, حيث توافقت لغة كلّ منهما مع النصوص الغائبة من حيث الشكل والمضمون والقافية , مما أدّى إلى إثراء نصوصهما الشعريّة , كما أنّها ساهمت في تشكيل النصّ تشكيلاً طبيعياً, فظهرت جميلة بعيدة عن الغرابة والتعقيد .

التراث ونسج الصورة الشعريّة

أثر التراث في الصورة الشعريّة في شعر أبي تمام

يعدّ التراث وبخاصّة الديني أعظم مصدر للصّور النفسيّة , وذلك لأنّه يمسّ أصفى المشاعر وأرقّها وأطهرها وأبسّطها , وتختفي وراءه قوّة عزيزة مهيبة ترتفع فوق كلّ القوى , وهي قوّة الله جلّت قدرته , ولهذا كانت هذه الصّور في شعر أبي تمام أكثر الصّور مؤثّرة بالنفوس , لقد كانت تجمع بين القديم والحديث والدين والدنيا في لحظة نورانيّة واحدة (2).

وقد استعان أبو تمام في تشكيل صورته الشعريّة بالقرآن الكريم والأحاديث النبويّة والفقهاء الإسلاميّ , وكأنّما أراد التسلّح بقيم رويّة في مواجهة التّحديات , وإذا عدنا إلى الينابيع التي استقى منها صورته الشعريّة , سنجدّها من روافد جاهليّة وإسلاميّة ومعاصرة له .

(1) كحالة , عمر رضا , معجم قبائل العرب 1 / 298.

(2) الرباعي , عبد القادر , الصورة الفنيّة في شعر أبي تمام / 192.

وتأثر أبي تمام بالقرآن الكريم كبير جداً كما تدلّ عليه صورته التي استوحاها منه ،
ومن الأمثلة على ذلك قوله :

لَوْ تَطَلَّعْتَ فِي وِدَادِي إِذَا فَا جَاكَ بَيْنَ الْحَشَا وَبَيْنَ التَّرَاقِي (1)

فهو في هذا البيت يمدح إسماعيل بن شهاب ، ويبيّن له أنّ حبه بلغ أوجّه في نفسه
مستخدماً لفظة التّراقي في رسم صورته التي وردت في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ
التَّرَاقِي ﴾ (2) . وتعني أنّ قلوبهم ترتفع عن مقارّها ، فتلتصق بحناجرهم من الرّعب ،
فلا هي تخرج فيموتوا فيستريحوا ، ولا ترجع إلى مقارّها فيتروحووا (3) . فأبو تمام
استعان بهذه اللفظة ليرسم صورة استقرار حبّ هذا الممدوح في نفسه .
وفي قوله :

هُم شَلِيلٌ وَنَثْرَةٌ حِينَ لُفَّتْ فِي غَدَاةِ الْهَيَاجِ سَاقٌ بِسَاقٍ (4)

يستوحي أبو تمام صورته من قوله تعالى : ﴿ وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ (5) وهي في
الآية الكريمة كناية عن الشدّة البالغة والهلع عند الموت (6) ، فهو هنا استخدمها بما يوافق
معنى الآية الكريمة ، ليبين أنّ إخوان الممدوح في الحرب ، وبخاصّة في مواقف الشدّة
والهلع بمثابة الدّروع له ، فينالهم ما يناله .

ويستمدّ في قوله :

لَوْ رَأَوْا كَوْكَبَ الْمَنَايَا نَظَلُّوا نَحْوَهَا مُهْطِعِينَ بِالْأَعْنَاقِ (7)

(1) أبو تمام ، الديوان 2 / 449 .

(2) القيامة 26 .

(3) أبو العباس ، البحر المديد 6 / 45 .

(4) أبو تمام ، الديوان 2 / 451 .

(5) القيامة 29 .

(6) السيوطي ، تفسير وبيان القرآن الكريم / 462 .

(7) أبو تمام ، الديوان 2 / 451 .

صورته من قوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (1) .
 فالآية ترسم صورة هول يوم القيامة , إذ ينادي المنادي بعد النفخة الثانية فيخرج الناس
 من قبورهم مسرعين مادي أعناقهم , يقول الكافر منهم هذا يوم صعب شديد(2) . فأبو تمام
 يستمدّ صورته من هذا المشهد الذي تصوره هذه الآية , ويوظّفه في شعره , ليصوّر نجدة
 إخوان الممدوح له وقت اشتداد الحرب , فهم لو رأوا الموت يقترب منه لمدّوا أعناقهم
 مسرعين لفدائه .

ويمدح أبو تمام مالك بن طوق بقوله :

وَرَأَيْتَ قَوْمَكَ وَالْإِسَاءَةَ مِنْهُمْ جَرَحَى بِظْفَرٍ لِلزَّمَانِ وَنَابِ
 هُمْ صَيَّرُوا تِلْكَ الْبُرُوقَ صَوَاعِقًا فِيهِمْ وَذَاكَ الْعَفْوَ سَوَاطِ عَذَابِ (3)

فقد أخطأ قوم مالك بن طوق بحقه , ممّا أحوجه إلى عقابهم وطردهم , فنتشّع لهم أبو تمام,
 وطلب إليه أن يعفو عنهم , وبيّن له أنّ هذا العفو سيكون بمثابة سوط عذاب لهم , لأنّه
 سيجعلهم يندمون ويتحسّرون عمّا بدر منهم مستوحياً صورته من قوله تعالى : ﴿
 فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَاطِ عَذَابِ ﴾ (4) فهو هنا يستحضر صورة العذاب الذي أحلّه الله بكلّ
 من عاد وثمود وفرعون في وقت واحد من خلال استخدامه عبارة " سوط عذاب " , ليبيّن
 أثر هذا العفو في نفس قوم ممدوحه .

ويمدح محمد بن الهيثم بن شبانة من أهل مرو , فيقول :

وَلَيْسَتْ بِالْعَوَانِ الْعُنْسُ عِنْدِي وَلَا هِيَ مِنْكَ بِالْبَكْرِ الْكَعَابِ (5)

1 (القمر 8 .

2 (السيوطي , تفسير وبيان القرآن / 422 .

3 (أبو تمام , الديوان 80 / 1 .

4 (الفجر 13 .

5 (أبو تمام , الديوان 1 / 286 .

وقد استوحى أبو تمام صورته في تصوير عطاء ممدوحه من قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا
مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ (1) من خلال استخدامه التجسيد والتشخيص , ليبين أن صنيع ممدوحه
ومعروفه له مثل الناقة العوان التي أسنت فكان يجدها له كل حين , ولا هي منه بالبكر
الكعاب أي ليست أول صنائعه له .

ويستدعي بعض صورته من علامات الساعة , ومن ذلك قوله في هجاء بابك

الخرمي :

لَوْ عَايَنَ الدَّجَالَ بَعْضَ فَعَالِهِ لَانْهَلَ دَمْعُ الْأَعْوَرِ الدَّجَالَ (2)

فهذه الصورة تعكس فساد بابك الخرمي وضلاله , فالأعور الدجال لو رأى ما هو عليه
من الفساد والتضليل لهاله ذلك وأبكاه . فصورة الأعور الدجال تعد رمزاً للتضليل
والخداع والكذب , ولكن أبا تمام بدل الصورة , فجعلها رحيمة ضعيفة تبكي حينما ترى
أفعال بابك , وتصاب بالفرع والهلع لبشاعتها وفضاعتها , مما يشد انتباه المتلقي , ويزيد
من تفاعله مع النص , وبخاصة أن الشاعر ركز صورته على حاسة البصر بصفته
مميّزة لشخصية الدجال .

ويستمد أبو تمام بعض صورته من مشاهد الآخرة في قوله:

مَالِي أَرَى الْحُجْرَةَ الْفَيْحَاءَ مُقْفَلَةً عَنِّي وَقَدْ طَالَمَا اسْتَفْتَحْتُ مُقْفَلَهَا

كَأَنَّهَا جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مُعْرِضَةٌ وَلَيْسَ لِي عَمَلٌ زَاكٍ فَأَدْخُلُهَا (3)

فيصور ممدوحه بالجنة التي لا يدخلها إلا كل صاحب عمل زاك .

(1) البقرة 68.

(2) أبو تمام , الديوان 3 / 134.

(3) نفسه 3 / 48.

وقوله :

غَنِيَتْ زَمَانًا جَنَّةً فَكَأَنَّهَا فُتِحَتْ إِلَيْهَا مِنْذُ سَارَ جَهَنَّمَ (1)

يصوّر البلاد بوجود الممدوح جنّة , ولكنّها تتقلب إلى جهنم عندما يغادرها هذا الممدوح .

وقوله :

أَعْطِيَتْ مِنْ نَفَاحَاتِ الْحُسْنِ أَسْنَاهَا وَفُتِحَتْ مِنْ نَفَاحَاتِ الطَّيِّبِ أَذْكَاهَا
فَالْحُسْنُ مُطَّرَحٌ وَالطَّيِّبُ مُفْتَضَحٌ وَالْحَوْرُ أَصْبَحَتْ بَعْدَ اللَّهِ مَوْلَاهَا (2)

يصوّر فتياتة اللواتي يحبّهن حوريات يثرن في خياله صور الحور في الجنّة .

وذكر بالمقابل صور الجحيم وعذابها , فيقول :

بِكُلِّ بَعِيدَةٍ الْأَرْجَاءِ تِيهِ كَأَنَّ أَوَارَهَا وَهَجُ الْجَحِيمِ (3)

فحرّ الصّحراء يذكرّ أبو تمام بحر جهنم .

وصوّر جهنم عامرة بأعداء ممدوحه محمّد بن يوسف الطائي , لأنّهم يصيرون إليها إذا ما

قتلوا :

تَرَكْتَ مِنْهُمْ سَبِيلَ النَّارِ سَابِلَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَيْهَا عُصْبَةٌ تَفْدُ (4)

ويستلهم بعض صوره من أحكام التّشريع مجرداً منها صوراً عقليّة , ومن ذلك

تضمينه لفظة الوقف في تصوير كرم ممدوحه :

أَضَحَّتْ مَعَاظِنُ رَوْضِهِ وَمِيَاهُهُ وَفَقًّا عَلَى الرُّوَادِ وَالرُّوَادِ (5)

1 (أبو تمام , الديوان 3 / 196)

2 (نفسه 4 / 285)

3 (نفسه 4 / 534)

4 (نفسه 2 / 18)

5 (نفسه 2 / 129)

فهو هنا يجرد صورة عقلية ، حيث يعادل بالوقف كرم ممدوحه الذي كان قد شبهه بالروضة والمياه .

وفي مدحة له في أبي سعيد يحثه فيها على برّ ابنه يوسف بن محمد، يذكر الفيء والنفل في رسم صورته ، فيقول :

هُوَ النَّفْلُ الْحَلْوُ الَّذِي إِن شَكَرْتَهُ فَقَدْ ذَابَ فِي أَقْصَى لَهَاتِكَ حُلُّهُ
وَفِيءٌ فَوْقَهُ وَإِنِّي لَوَاتِقٌ بِأَنْ لَا يَرَاكَ اللَّهُ مِمَّنْ يَغْلُهُ (1)

يخاطب أبو تمام ممدوحه ، وكان قد أعرض عن ابنه يوسف لخلاف بينهما ، فاستعطفه عليه بقوله : هو الزيادة التي أعطاكها الله ، وفيء أفاءه عليك يشدّ به أزرك ، فقابله بما يستحق ، ولا تنقص حظك منه ، وإني لواتق بذلك منك لأنك صاحب عقل ، وحسن تمييز

واستوحى أبو تمام كثيراً من صورته من القصص الديني ، فاستمدّ جزءاً منها من خلال ذكره الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كقصة خروج آدم من الجنة ، وقصة موسى في بداية دعوته وعلاقته بكلّ من فرعون والسّامري ، وإبراهيم الذي يقال عنه إنه أول من قرى الضيف ، ونوح في شكره ربّه ، ويوسف في حسنه وفي صراعه مع النفس والغواية ، والخضر في تجواله ، ومحمد - عليه الصلاة والسلام - في أحاديثه وأفعاله وبعض قصصه ، وغير ذلك ممّا مرّ معي ذكرهم . ومن هذه الصّور الصّورة التي يقارن بها بين حال قائد من قوادم المسلمين راودته نفسه على الفرار من المعركة ، فتراعت له صورة الممدوح فجأة فاستحيا وتاب ، وواصل الجهاد ، وحال يوسف - عليه السلام - لما همّ بالمعصية ، ثم رأى برهان ربّه ، فقاوم الخطيئة وتاب وذلك في قوله :

(1) أبو تمام ، الديوان 3 / 147

بِسَافِرٍ حُرٍّ الْوَجْهِ لَوْ رَامَ سَوْعَةً لَكَانَ بِجِلْبَابِ الدُّجَى مُتَلْتَمًا
 مَثَلَتْ لَهُ تَحْتَ الظَّلَامِ بِصُورَةٍ عَلَى الْبُعْدِ أَقْنَتُهُ الْحَيَاءَ فَصَمَّمَا
 كَيُوسِفَ لَمَّا أَنْ رَأَى أَمْرَ رَبِّهِ وَقَدْ هَمَّ أَنْ يَعْرُورِيَ الذَّنْبَ أَحْجَمًا⁽¹⁾

لم يحتج أبو تمام إلى تفصيل قصة يوسف ، فهي شائعة بين الناس ، وحوادثها ماثلة في وجدان كل مسلم ممتزجة بأحاسيسه الدينية ، وهي جاهزة لأن توقظ عند أول منبّه لها مهما كان بسيطاً .

ومثل ذلك أيضاً قصة مريم فإنه يأخذ طرفاً منها في رسم صورته التي وصف فيها رحلته إلى ممدوحه ، حيث يقول :

فَأَجَاءَهَا بَعْدَ الْمَخَاضِ طُلُوقُهَا بِمِرَاهِقِ السِّنِّينِ كَهَلِ أَهْيَفِ⁽²⁾

فهو هنا يستمد صورته من قوله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾⁽³⁾ حيث يشبه نفسه عند خروجه من السفينة بشكل غير مباشر بعيسى - عليه السلام - عند ولادته .

وينقل صوراً من السيرة النبوية ، كصورة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حينما منى بموت ولده القاسم في تعزيتة مالك بن طوق في وفاة أخيه القاسم ، حيث يقول :

أَمَّا لِكُ إِنَّ الْحُزْنَ أَحْلَامُ حَالِمٍ وَمَهْمَا يَدُمُ فَالْوَجْدُ لَيْسَ بِدَائِمٍ
 وَإِنْ تَكُ مَقْجُوعًا بِأَبْيَضَ لَمْ يَكُنْ يَشْدُ عَلَى جِدْوَاهُ عَقْدَ التَّمَائِمِ
 فَمَنْ قَبْلِهِ مَا قَدْ أُصِيبَ نَبِيْنَا أَبُو الْقَاسِمِ النُّورُ الْمُبِينُ بِقَاسِمِ⁽⁴⁾

(1) أبو تمام ، الديوان 3 / 237 - 238

(2) نفسه 2 / 398

(3) مريم 23

(4) أبو تمام ، الديوان 3 / 257 - 258

فهذه صورة جلييلة يجدر ذكرها في مثل هذا الموقف من العزاء , وقد ساعد على تداعيتها عند أبي تمام تشابه اسم المتوفيين .

ويستمدّ مشهداً من قصّة الهجرة النبويّة في قوله :

وَلَقَدْ شَفَى الْأَحْشَاءَ مِنْ بُرْحَائِهَا أَنْ صَارَ بَابُكَ جَارَ مَازِيَارِ
ثَانِيهِ فِي كَبَدِ السَّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ لِاثْنَيْنِ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ (1)

وهو هنا يبني صورته على ازدواج التنافر أي ازدواج الصّورة المتضادّة , فالصّورة الأولى اجتماع بابك ومازيار في كبد السّماء بصرية بينما اجتماع الرّسول -عليه السلام - وأبي بكر في الغار نموذجيّة عليا , وهاتان الصّورتان ليس بينهما تضاد أو تنافر , ولكن التنافر والتضاد هنا في المادة التي تتألف منها كلّ صورة , وذلك لأنّ كلّ مادة اقترنت بإحساس متضاد مع الإحساس الذي اقترنت به المادة الأخرى . (2)

وأحياناً يكتفي باللّمح السّريع , والإشارة الخاطفة في رسم بعض صورته من قصص

القرآن الكريم , ومن الأمثلة على ذلك قوله :

رَأَوْا لَيْثَ الْغَرِيْفَةِ وَهُوَ مُلْقٍ ذِرَاعِيَهُ جَمِيعاً بِالْوَصِيدِ (3)

فهو يستوحي مشهداً من قصّة أهل الكهف , مشهد كلبهم وهو باسط ذراعيه بالوصيد (4) في تصويره بطولة ومدوحه وشجاعته في دفاعه عن وراءه في ساحة القتال , حيث كان في مقدمة الجيش في مواجهته الأعداء يحمي من خلفه . ممّا يوحي للمتلقّي أنّه كان بمثابة الحارس لهم من خلال ربط دوره بدور كلب أهل الكهف الذي كان يحرسهم . فأضفى على صورته البصرية عنصر الحركة ممّا زادها جمالاً وإيحاء .

(1) أبو تمام , الديوان 2 / 207.

(2) الرباعي , عبد القادر , الصورة الفنيّة في شعر أبي تمام / 256.

(3) أبو تمام , الديوان 2 / 39.

(4) الكهف 18.

ومن ذلك أيضاً قوله في وصف كثرة أسفاره :

فَطَحَّطْتُ سَدًّا سَدًّا يَأْجُوجَ دُونَهُ مِنْ الِهَمِّ لَمْ يُفْرَغْ عَلَى زُبْرِهِ قَطْرٌ (1)

فهو يستمد صورة بناء ذي القرنين سدّ يأجوج ومأجوج ، ليصوّر الصعاب التي لاقاها في سفره من مصر كما ورد في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (2) .

ويفيد في رسم صورته من القصص الديني العام ، ومن الأمثلة على ذلك قوله :

وَلَّتْ شَيَاطِينُهُمْ عَنْ حَدِّ مَلْحَمَةٍ كَانَتْ نُجُومُ الْقَنَا فِيهَا لَهُمْ رُجْمًا (3)

يصوّر أبو تمام أعداء ممدوحه إسحق بن إبراهيم في تعرضهم للإسلام بالشياطين التي تسترق السمع ، وصور ممدوحه بالكواكب التي ترحم بها تلك الشياطين مستوحياً صورته من قوله تعالى : ﴿ زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ (4) .

وعندما يتحدث عن عاقبة الظلم ، تقفز إلى ذهنه صور الشر التي حاقت بالأمم

البائدة نتيجة ظلمهم ، فيقول :

لَا تَجْعَلُوا الْبَغْيَ ظَهْرًا إِنَّهُ جَمَلٌ مِنْ الْقَطِيعَةِ يَرعى وَادِي النَّقَمِ

(1) أبو تمام ، الديوان 4 / 569 .

(2) الكهف 93 - 97 .

(3) أبو تمام ، الديوان 3 / 172 .

(4) الملك 5 .

نَظَرْتُ فِي السَّبْرِ الْأُولَى خَلَّتْ فَإِذَا أَيَّامُهُ أَكَلَتْ بَاكُورَةَ الْأُمَمِ

أَفْنَى جَدِيصًا وَطَسْمًا كُلَّهَا وَسَطًا بِأَنْجُمِ الدَّهْرِ مِنْ عَادٍ وَمِنْ إِرَمِ (1)

وفي باب الزهد يبين مصيره الذي سيؤول إليه في نهاية المطاف , مستدلاً بمصير كل من طسم وجرهم وثمود وعاد , ليؤكد أن مصير كل إنسان هو الموت في نهاية المطاف :

أَصَوْتُ بِالدُّنْيَا وَلَيْسَتْ تُجِيبُنِي أَحَاوِلُ أَنْ أَبْقَى وَكَيْفَ بَقَائِيَا

وَمَا تَبْرَحُ الْأَيَّامُ تَحْذِفُ مُدَّتِي بَعْدَ حِسَابٍ لَا كَعَدَّ حِسَابِيَا

لِتَمْحُوَ آثَارِي وَتُخَلِّقَ جِدَّتِي وَتَخْلِيَ مِنْ رَبْعِي بِكُرْهِ مَكَانِيَا

كَمَا فَعَلْتَ قَبْلِي بِطَسْمٍ وَجِرْهِمْ وَآلِ ثَمُودٍ بَعْدَ عَادِ بْنِ عَادِيَا (2)

ويمدح الأفسين , فيقول :

مَا نَالَ مَا قَدْ نَالَ فِرْعَوْنُ وَلَا هَامَانُ فِي الدُّنْيَا وَلَا قَارُونُ (3)

يتواصل مع كل من فرعون وهامان وقارون في رسم صورة سلطة الأفسين ومكانته وجاهه , وأنه لم ينل أحد من الملك ما ناله .

و يمكن القول بأنه في ذلك كله موقفاً بين الصورة والفحوى العام للسياق , فهو مثلاً يتذكر يوسف - عليه السلام - في الغزل بخاصة , ويتذكر موسى - عليه السلام - في مواطن القوة من المدح بخاصة , وحين تقفز إلى ذاكرته صورة لقمان في المديح , فإنه يتذكر حكمته وخطابته , أمّا في الهجاء فيتذكر طائره لبد الذي يعدّ رمزاً للشؤم في أذهان الناس .

(1) أبو تمام , الديوان 3 / 192 .

(2) نفسه 4 / 600 - 601 .

(3) نفسه 3 / 321 .

ويستمد كثيراً من صورته من التاريخ القديم ، ومن ذلك تواصله مع يوم الكلاب ويوم
أباغ وكان يوفق بين نتائج هذه الأيام ونفسية ممدوحه . فمثلاً حينما يمدح مالك بن طوق
أحد التغلبيين فإنه يذكر يوم الحشاك والتراث اللذين كانا بين بني تغلب وقيس عيلان
ويكثر من ذكر أيام البسوس كيوم الذنائب ويوم التحلق . كما أعاد إلى الأذهان عام
الفجار . وتواصل مع بعض أعلام التاريخ الذين اشتهروا بمواقف أو صفات معينة ، فيذكر
الحارث بن عباد في مواقف الإلحاح على الثأر ، وزهير بن جذيمة ومالك بن زهير في
الحث على المحبة والسلام ، حيث يقول :

أَلْحَ وَمَا حَكْتُمْ وَلِلْقَدْرِ التَّقَى غَرِيْمَانِ فِي الْهَيْجَا مُلِحٍّ وَمَا حِكُ
هُوَ الْحَارِثُ النَّاعِي بُجَيْرًا وَإِنْ يُدَنَّ لَهُ فَهُوَ إِشْفَاقًا زُهَيْرٌ وَمَالِكُ (1)

فالحارث قد أصبح بإلحاحه على طلب الثأر لبجير واجتهاده بحرب تغلب نموذجاً للحقد والعداوة
في وجدان الناس وعقولهم . وكذلك زهير ومالك بما كان منهما في حرب داحس والغبراء ،
حيث أصبحا نموذجاً للمحبة والسلام والإشفاق .

واستدعى مواقف المسهر بن عمرو وهرم بن سنان وإياس بن قبيصة والمهلهل وكليب
وهمام والبراض ، ويستدعي صورة من اشتهروا بصفات معينة انطبعت في وجدان الناس متخذاً
إياها موضوعات لصوره كعمرو بن معدي كرب في مواطن القوة ، وحاتم الطائي في الكرم
والنعمان بن المنذر في النعيم والدعة والجمال .

ويستدعي صورة أبي بكر وعمر من الخلفاء الراشدين ، وحروب الردة من خلال ذكره
لمسيلمة الكذاب . ويذكر معاوية من التاريخ الإسلامي ، فيعيد على الأذهان اندحاره في وقعة صفين
في معرض تنديده بمارق يدعى معاوية ، حيث يقول :

(1) أبو تمام ، الديوان 2 / 461 .

وَلَىٰ مُعَاوِيَةَ عَنْهُمْ وَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِ الْقَنَا فَأَبَى الْمِقْدَارُ وَالْأَمْدُ
نَجَاكَ فِي الرَّوْعِ مَا نَجَى سَمِيكَ فِي صَفِينِ وَالْخَيْلُ بِالْفُرْسَانِ تَنْجَرِدُ⁽¹⁾

ومن الأعلام الذين استعان بمواقفهم في رسم صوره عبد الملك بن مروان والأحنف بن قيس
والمهلب بن أبي صفرة والضحاك بن قيس .

ويستعيد من التاريخ العباسي صورة السقاح والمنصور والمهدي والرشيد من الخلفاء ,
وهرثمة بن أعين وخزيمة بن خازم ويزيد بن يزيد الشيباني .

وتواصل أيضاً مع تاريخ الفرس , وذلك من خلال تشبيهه قصيدته بالحلل والحليّ الفارسيّة
, حيث يقول :

تُزَفُ إِلَيْكُمْ يَا بَنَ نَصْرٍ كَأَنَّهَا حَلِيلَةٌ كَسَرَى يَوْمَ آوَاهُ قَيْصَرُ⁽²⁾

ويسترجع أيضاً صور الشعراء السابقين من خلال استعادته لأقوالهم أو مواقفهم في مواقف
تجريبية مماثلة أو مخالفة . ومن الأمثلة على ذلك توظيفه اسم هند التي أكثر من ذكرها الشعراء ,
وبخاصة عمر بن أبي ربيعة في قصيدته المشهورة " ليت هنداً أنجزتنا ما تعد " , حيث يقول :

فَلَا تَحْسَبَا هِنْدًا لَهَا الْغَدْرُ وَحَدَّهَا سَجِيَّةَ نَفْسٍ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ⁽³⁾

ومن ذلك أيضاً توظيفه امرأ القيس والأعشىين وطرفة وليبيد في مطالع قصائده .
كما يستعيد مواقف أخرى للشعراء , كموقف النابغة من النعمان بن المنذر , وزهير من
هرم بن سنان , والمرقش من أسماء , ويوم عبيد بن الأبرص في تشبيهه مواقف له مماثلة مع
مدوحيه أو مع من يحب ويهوى من النساء . ومن الشعراء المخضرمين والأمويين يعيد مواقف
كلاً من الحطيئة وعدي بن الرقاع وكثير والفرزدق والأخطل .

⁽¹⁾ أبو تمام , الديوان 14/ 2 - 15 .

⁽²⁾ نفسه 2 / 217 .

⁽³⁾ نفسه 2 / 81 .

ومن العصر العباسي يستمد منه في صورته ممن اشتهروا بالبلاغة كخالد بن صفوان وابن المقفع والخطباء ويستعين بالأمثال . ومن ذلك قوله يصف الحسن بن وهب :

وَإِذَا رَأَيْتَكَ وَالْكَلامَ لِأَلِيٍّ تَوْمَ فَبَكَرٌ فِي النِّظامِ وَتَيْبٌ
فَكَأَنَّ قَساً فِي عِكاظٍ يَخْطُبُ وَكَأَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ تَنْدُبُ (1)

إنّ التّداعي النفسي هو السّبب في إحضار الصّورتين الأخيرتين , فالحسن بن وهب هو كاتب معروف بالفصاحة والبلاغة . وفي ذهن أبي تمام ونفسه أنّ قساً هو النّمودج الأعلى في الخطابة , وأن ليلى الأخيلية نموذج في البكاء والرّثاء , وهاتان الصّورتان التّراثيومان أصبح لهما مكاناً في عقول النّاس ونفسيّاتهم .

ومثل ذلك الأمثال العربيّة القديمة , وبخاصّة أنّ المثل يقترن بواقعة مشهورة , فقد أدخل أبو تمام المثل في صورته , فلم يبقه على ما هو عليه , ومن الأمثلة على ذلك تصويره عذابه مع من يحب , حيث يقول :

بِعَقْلِي هَذَا صِرْتُ أَحَدَوْتَهُ الرِّكْبِ وَقَدْ كُنْتُ فِي سَلْمٍ فَأَصْبَحْتُ فِي حَرْبِ
لَعَمْرُؤٍ مَعَ الرَّمْضاءِ وَالنَّارُ تَلْتَطِي أَرْقُ وَأَحْفَى مِنْكَ فِي سَاعَةِ الكَرْبِ (2)
فأصل المثل في تركيبه :

المُسْتَجِيرُ بِعَمْرِ عِنْدَ كُرْبَتِهِ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بِالنَّارِ (3)

ولكنّ أبا تمام ركّبه بطريقته حيث صور مدى انفعاله . وهكذا كانت هذه الصّور تأتي من أعماق أبي تمام , فنأتى بطريقة لا شعورية , فيصيغها بطريقته الخاصّة , فتثير في نفس المتلقّي شعوراً خاصّاً بطريقة إيحائية فريدة. وهذه الصّور لم تكن تأتي عن تكلف وتصنع,

(1) أبو تمام , الديوان 1 / 134 .

(2) نفسه 4 / 170 .

(3) الميداني , مجمع الأمثال 3 / 30 .

وإنما يستحضرها خيال أبي تمام نتيجة قوة أفعاله , وبخاصة أنها تمثل مواقف وعلاقات خاصة دخلت الذكرة الشعبية لشهرتها وغرابتها كعلاقة عامر بن الطفيل بعلمة بن علاثة من خلال منافرتها المشهورة , والمرقش بحبيبه أسماء , وزهير بن أبي سلمى بهرم بن سنان , والنابغة الذبياني بالمنذر بن النعمان , والمختار الثقفي بالهاشميين , وكعب الغنوي بأخيه أبي المغوار , وعمرو بن شأس بأخيه عرار... الخ. إضافة إلى الوقائع التاريخية التي دخلت عقول الناس وهزت مشاعرهم واستقرت في ذاكرتهم .

لقد كانت الصورة القريبة المألوفة المتداولة بين الناس بعيدة عن مخيلة أبي تمام المبدعة الخلاقة , وذلك لإيمانه أن الشعر للخاصة لا للعامة , فهو إذا تناول صورة قديمة مألوفة ظل يحور فيها ويعدل حتى تستقيم له صورة نادرة غير مألوفة (1) ومن الأمثلة على ذلك :

يقول النابغة الذبياني في وصف يوم حرب :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَا النُّورُ نُورٌ وَلَا الإِظْلَامُ إِظْلَامٌ (2)

استوحى أبو تمام صورته من هذا البيت في وصفه الحريق حيث ذكر ضوء النهار

وظلمة الدخان في قوله :

ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ وَالظُّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحَى شَحْبٍ

فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفَلَتْ وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبِ (3)

ولكن الفرق واضح في صورة الحرب التي رسمها النابغة والصورة التي شكلها أبو تمام , فهي تبدو عند شاعرنا متكاملة ومتماسكة ومنسوجة بإحكام , فأبو تمام يثبت مبدأ التّضاد

1 (ينظر خليف , يوسف , في الشعر العباسي نحو منهج جديد / 98 .

2 (النابغة , الديوان / 105 .

3 (أبو تمام , الديوان 1 / 54 .

ويجعلهُ مدار حركة المتضادات , ويعتمد على اللون وتدرجاته و كأنه يسعى إلى صبغ الصورة بكل جوانبها بهالة من الغموض المتولد عن تضاد النور والظلمة وما يتبعه من إشراق وشحوب , وأراد من ذلك تحقيق أبعاد فكرية في تصويره لوقعة عمورية من خلال التصوير الحسي .

ويقول في تصويره مناعة عمورية :

وَبَرَزَةُ الْوَجْهِ قَدْ أَعَيْتُ رِيَاضَتُهَا كَسْرَى وَصَدَّتْ صُدُوداً عَنِ أَبِي كَرِبٍ (1)

يصور ماضي عمورية , وكيف تأبّت على كبار الفاتحين في التاريخ , ويكاد يردد من الأسماء ما تردد عند كعب بن مالك الأنصاري وهو يردد على ابن الزبير في يوم الخندق في تصويره لكتيبة المسلمين :

أَعْتَبَ أبا كَرِبٍ وَأَعَيْتُ تَبَعًا وَأَبْتُ بِسَالَتُهَا عَلَى الْأَعْرَابِ (2)

ويستمد أبو تمام في تصويره ألفاظاً وصوراً من البادية , حيث يقول :

تَخْرُصًا وَأَحَادِيثًا مُفَفِّقَةً لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرْبٍ

يَا يَوْمَ وَقَعَةٍ عَمُورِيَّةٍ انصرفت مِنْكَ الْمُنَى حَفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلَبِ

حَتَّى إِذَا مَخَّضَ اللَّهُ السَّنِينَ لَهَا مَخْضَ الْبَخِيلَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ الْحَقَبِ

جَرَى لَهَا الْفَالُ بَرَحًا يَوْمَ أَنْقَرَةَ إِذْ غَوَدِرَتْ وَحْشَةَ السَّاحَاتِ وَالرَّحَبِ

مَا رُبِعَ مِيَّةً مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ غَيْلَانُ أَبْهَى رُبِيٍّ مِنْ رَبْعِهَا الْخَرَبِ (3)

فهو يدخل في نسيج صورهِ المعجم البدوي كالنبع والغرب , ويأخذ صورة المنى حفلاً معسولة الحلب , ومخض البخيلة ووحشة السّاحات التي وصف بها الطلل الجاهلي كما

(1) أبو تمام , الديوان 47 / 1 .

(2) ابن مالك , كعب , الديوان / 28 .

(3) أبو تمام , الديوان / 42 - 56 .

وصفت بها عمورية بعد الحريق . وربع مية والورد والصدر والماء والعشب والأوتاد
والطنب وعدو الظليم .

فهو يجمع بين صور من واقعه وأخرى تراثية . ولا شك أنّ هذا المصدر كان
رافداً من روافد التصوير الشعري وإن كان قد وجد مكانه بصورة أكثر اتساعاً وبروزاً في
شكل القصيدة ونمطها التقليدي الذي لم يكسره أبو تمام أو يخرج عليه إلا في القليل من
شعرة .

فالمعجم البدويّ عند أبي تمام اتخذ بعداً جديداً فأصبح وسيلة للتفرد الإبداعيّ , وسبيلاً
لمواجهة المعوقات التي تقف في وجه الإبداع الشعري المحدث , وأهمها مآخذ النقاد
كالسرقة والإحالة والابتذال .

ومما أخذ على أبي تمام كثرة ورود الاستعارة في شعره , ومن الأمثلة على ذلك

قوله :

فَضْرِبْتَ الشّتَاءَ فِي أَخْذَعِيهِ ضَرْبَةً غَادَرْتَهُ عَوْدًا رَكُوبًا⁽¹⁾

فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده منها , لأنه اتخذها مذهباً فنياً يؤمن به ويحرص عليه
ويدافع عنه , ويبين لمن ينكرون هذا المذهب عليه أنه ليس غريباً على العرب . وقد روي
أنّ بعض الشعراء أرسل إلى أبي تمام قارورةً وقال له : ابعث في هذه شيئاً من ماء
الملام , فأرسل إليه أبو تمام , وقال : إذا بعثت إليّ ريشة من جناح الدّلّ بعثت إليك شيئاً من
ماء الملام⁽²⁾ . وهو هنا يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾⁽³⁾.

وقد وردت الاستعارة في أشعار القدماء ومن الأمثلة على ذلك قول امرئ القيس :

¹ (أبو تمام , الديوان 1 / 166 .

² (ينظر ابن الأثير , المثل السائر 1 / 40 والعاملي , الكشكول 1 / 274 - 276 .

³ (الإسراء 24 .

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُئْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءً بِكَلْكَلٍ⁽¹⁾

نهل أبو تمام من التاريخ الأدبي من مختلف العصور, ولم يعجز عن طرح صور خاصة من إبداعه ظهرت فيها براعة الإبداع , كما ظهر فيه تواصله مع تراثه العميق الذي ثقفه ونهل منه .

أثر التراث في الصورة الشعرية في شعر المتنبي

وقد أفاد المتنبي من القرآن الكريم في رسم بعض صوره , ومن ذلك قوله :

وَمَكْرُمَاتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الْـ
بِرٍّ إِلَى مَنْزِلِي تُرَدِّدُهَا
أَقْرَّ جِلْدِي بِهَا عَلَيَّ فَلَا
أَقْدِرُ حَتَّى الْمَمَاتِ أَجْحَدُهَا⁽²⁾

فقد استعار الفعل أقرَّ للجلد في بيته , كما استعيرت الشهادة للجلود في قوله تعالى :
﴿ وَقَالُوا لَجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾⁽³⁾ , ليبين أن إهداء الممدوح الثياب له نعمة لا يستطيع أن يجدها , لأنَّ جلده أقرَّ بها كما تشهد الجلود على أصحابها يوم القيامة.

ويستعين المتنبي بالحديث النبوي الشريف في رسم صورة ممدوحه علي بن أحمد بن

عامر الأنطاكي في قوله :

وَمَا زِلْتُ حَتَّى قَادَنِي الشُّوقُ نَحْوَهُ
يُسَايِرُنِي فِي كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ⁽⁴⁾

¹ (امرؤ القيس , الديوان / 48 .

² (المتنبي , الديوان / 1 / 312 .

³ (فصلت 21 .

⁴ (المتنبي , الديوان / 2 / 155 .

فكان المنتبّي قبل أن يلتقي بممدوحه يسمع الكثير عنه , ويستعظم ما يسمع حتّى خبره , فوجده أعظم ممّا كان يسمع عنه من الوصف . وهذا من قول الرّسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزيد الخيل الطّائي وقد وفد عليه : " ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني , إلّا رأيتَه دون ما يقال فيه إلّا زيد الخيل , فإنّه لم يبلغ كلّ ما كان فيه " (1) .

ويستلهم بعض صورهِ من الفقه الإسلاميّ , ومن ذلك قوله محاولاً تبرئة نفسه ممّا

نسب إليه , فاستثمر بعض الأحكام المتعلقة بالحدود :

تُعَجَّلُ فِي وُجُوبِ الْحُدُودِ وَحَدِّي قُبَيْلَ وُجُوبِ السُّجُودِ (2)

فقد بيّن أنّه لم يصل إلى سن البلوغ كي يوجب عليه الحدّ , فهو يحاول أن ينفى التّهمة عن نفسه بتصغير سنّه أمام الحاكم .

وقد تكون شخصيّة الممدوح واتصالها ببيئة الفقهاء أو القضاة دافعاً يقود المنتبّي إلى إضفاء مسحة فقهية على صورهِ وألفاظهِ , ومن الأمثلة على ذلك قصيدة يمدح فيها القاضي الأنطاكي , يقول فيها :

ألقى الكرام الأولى بادوا مكارمهم على الخصبيّ عند الفرض والسّنن

فهنّ في الحجر منه كلّما عرضت له اليتامى بدا بالمجد والمنن (3)

ورث هذا القاضي مكارم السّابقين الكرام فهي تحت تصرفه يتكفّل أمرها , شأنها في ذلك شأن من يتولّى أمرهم من اليتامى . لقد قادته شخصيّة القاضي الذي يمدحه إلى جعل المكارم في صورة الأيتام بوضعها تحت الحجر أو الكفالة , وهذه الصّورة استدعت ذكر الفرض والسّنن في البيت الأول تمهيداً لذكر اليتامى في البيت الثّاني .

(1) ابن هشام , السيرة النبوية 4 / 188 .

(2) المنتبّي , الديوان 1 / 346 .

(3) نفسه 4 / 214 .

ويوظّف المتنبّي حكم الإسلام في المرتدين في رسم بعض صورهِ , نحو قوله في

مدح سيف الدولة :

كَأَنَّ سَخَاءَكَ الْإِسْلَامُ تَخْشَى إِذَا مَا حُلَّتْ عَاقِبَةُ ارْتِدَادِ (1)

ليبيّن أنّ سيف الدولة يدين بالسّخاء ويعتقده كاعتقاده بدين الإسلام , ويعدّ تحوّلَهُ عنه كالرّدة , فهو يخاف هذا التّحول كما يخاف الرّدة التي عاقبتها القتل ودخول النّار .

واستوحى كثيراً من صورهِ من القصص الدّيني , فاستمدّ جزءاً منها من خلال توظيفهِ قصص الأنبياء - عليهم الصّلاة والسّلام - كقصّة خروج آدم من الجنّة , وقصّة طوفان نوح , وصالح في دعوتهِ , وقصّة قميص يوسف , و قصص من سيرة موسى في انشقاق البحر له وفي قصّته مع السّامري , وداود في صنعته , وسليمان في تفهّمهِ للغة الطّير وفي اتّساع ملكهِ , وعيسى في معجزاته , وذي القرنين في بنائه السّد , والخضر في تجوالهِ , ومحمّد في بعض معجزاته , وغير ذلك ممّا مرّ معي ذكرهم . ومن الأمثلة على ذلك قوله :

ما مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ (2)

فاستمداد المتنبّي صورة المسيح بين اليهود أعطت للنّص إحياءات متعدّدة , فهو يقدّم صورة الاغتراب الذي أحسّ به بين هؤلاء القوم , أو صورة العذاب المتمثّل بالسّجن في ذلك المكان أو ما لحقه من أذى , وكذلك قوله :

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ (3)

وقد يستعين بلفظة من قصص الأنبياء في تصويرهِ , كقوله في سيف الدولة :

1 (المتنبّي , الديوان 1 / 359 .

2 (نفسه 1 / 319 .

3 (نفسه 1 / 324 .

وَلَوْ رَأَهُ حَوَارِيُّوهُمْ لَبَنُوا عَلَى مَحَبَّتِهِ الشَّرْعَ الَّذِي شَرَعُوا⁽¹⁾

استغلَّ المتنبي لفظة الحواريين لتصوير عدل سيف الدولة في الحرب التي خاضها ضد
الدمستق , فلو أنّ حوارييهم الذين يؤمنون بهم رأوا عدل سيف الدولة لأيدوه وناصروه ,
وبنو حبهم على شريعته .

ويستمدّ في تصويره الخيل صفات البراق :

مَا رَأَاهَا مُكذَّبُ الرُّسُلِ إِلَّا صَدَقَ الْقَوْلَ فِي صِفَاتِ الْبُرَاقِ⁽²⁾

ليشكّل صورة الفرس المثاليّة في السّرعة والنّشاط , هذا إضافة إلى ما توحى به هذه
الصّورة من وصول الممدوح إلى منزلة سامية حتّى خصّ بفرس كالبراق شأنه في ذلك
شأن الرّسل والأنبياء .

ومن الحوادث التاريخيّة يوظّف قصّة الخوارج وبني البريديّ , وخير درع عليّ ,
وأعلام من الطّب , وحاتم الطّائيّ , وبعض أقوال الصّحابة - رضي الله عنهم - ,
والأنساب , وبعض الأساطير كزرقاء اليمامة والعنقاء . وكذلك استخدم الأمثال في
تشكيل بعض صورته , واستوحى كثيراً من صورته من الشعراء السّابقين له , ومن الأمثلة
على ذلك تصوير الشعراء السّابقين له الخوف , ومنهم النّابغة في اعتذاره , حيث يقول:

فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشَنِّي هَرَأَسًا بِهِ يُعَلَى فِرَاشِي وَيُقَشَّبُ⁽³⁾

وقول كعب بن زهير في اعتذاره :

لَقَدْ أَقَوْمٌ مَقَامًا لَوْ يَقَوْمُ بِهِ أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ

لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلُ⁽⁴⁾

1 (المتنبي , الديوان / 1 / 324 .

2 (نفسه / 2 / 365 - 366 .

3 (النابغة , الديوان / 45 .

4 (ابن زهير , كعب , الديوان / 23 .

فقد أخذ المتنبي معنى هذين البيتين ولم بأطراف الصورة فيهما من خلال تقديمه صورة جديدة لرسول ملك الروم أمام سيف الدولة وقد ملأ الخوف قلبه , فيقول :

أَتَاكَ يَكَادُ الرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنُقَهُ وَتَنَقَّدُ تَحْتَ الذُّعْرِ مِنْهُ الْمَفَاصِلُ⁽¹⁾

فيصور المتنبي رسول الروم وقد ساوره الخوف من الإقدام على سيف الدولة , وكأن سيفه واقعاً عليه , حتى يكاد رأسه ينكر عنقه توهماً منه أنه قد انفصل عنه , وتكاد مفاصله يقطعها ذعره هيبية وفرقاً من سيف الدولة . فالمتنبي لا يكتفي بتقديم صورة حسية كسابقه تقف عند حدود وصف الرسول بالخوف والاستسلام , والندم والإقرار بقوة الخصم , وإنما ولد معنى جديداً , فتصوير النفس وما يعتريها من شعور بالخوف أثناء المعركة مما يجيد تصويره المتنبي نتيجة تجاربه الطويلة وخبرته في هذا الميدان⁽²⁾.

وصور الشعراء قديماً الحروب , وبخاصة تحليق الطير فوق الجيوش المحاربة

بحثاً عن دماء القتلى وأجسادهم , ومنهم النابغة الذبياني , حيث قال :

إِذَا مَاغَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ⁽³⁾

وقول أبي نواس :

تَتَأَيَّأُ الطَّيْرُ غُدْوَتَهُ ثِقَةً بِالشَّبَعِ مِنْ جَرِّهِ⁽⁴⁾

وقول مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَتَقَنَّ بِهَا فَهَنْ يَتَّبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلٍ⁽⁵⁾

واستوحى أبو تمام هذه الصور ولم يقنع بتجديد مسلم :

1 (المتنبي , الديوان 3 / 113 .

2 (ينظر نافع , عبد الفتاح , لغة الحب عند المتنبي / 335 .

3 (الديوان / 10 .

4 (الديوان / 311 .

5 (الديوان / 12 .

وَقَدْ ظَلَمْتُ عِقْبَانَ أَعْلَامِهِ ضُحَىً بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ (1)

واستوحى المتنبي هذه الصورة , وجاء بصورة جديدة إذ يقول:

لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ
سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَرْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسَقَتْ سَقَتَهَا صَوَارِمُهُ (2)

فالمُتنبي في تصويره جيش سيف الدولة قد خرج عن المألوف ممّن تقدّمه من الشعراء إلى غير القصد الذي قصدوه فأغرب وأبدع , وحاز الإحسان بجملته , فصار كأنه المبتدع لهذا المعنى دون غيره " (3) . وموطن الغرابة في هذه الصورة هو خروجها عن المألوف حيث جعل الطير والجيش سحابتين . وجعل السحاب الأسفل المتمثل في جيش سيف الدولة يسقي السحاب الأعلى منه " الطير " , والصّوارم هي التي تسقيها بما تريق من دم الأعداء . فالمُتنبي اعتمد في هذه الصورة على خياله الخلاق الذي يهدم الأشياء ويبعثها , ثم يختار ويعيد جمعها وتأليفها وتشكيلها حسبما يريد (4) . فارتفع بهذا المعنى إلى جوهر الشعر , واستطاع أن يروّع سامعيه وقارئيه بالتعبير والتصوير جميعاً (5) . وأضفى على صورته عنصر الحركة ممّا زادها روعة وجمالاً وإيحاء , وأبعدها عن المباشرة والتقريرية من خلال تصويره الجيش بعدده وعديده , والخيل تحمل الفرسان ويدفع بعضها بعضاً , والغبار القاتم يغطي الجيش ممّا يجعل الجيش سحابة كثيفاً , ثم تأتي حركة الرّماح والسيوف , فتبدو في حركتها وكأنّها تسقي السحاب الذي يعلوها من دم الجنود الذي تنهل

(1) الديوان 3 / 82 .

(2) الديوان 4 / 336- 338 .

(3) البديعي , الصبح المنبي عن حيثية المتنبي / 74 .

(4) ينظر الرباعي , عبد القادر , الصورة الفنية في النقد الشعري / 9 .

(5) حسين , طه , مع المتنبي / 74 .

منه (1) . وقد وقف البهيتي عند صورة أبي تمام والمنتبّي اعتماداً على خصائص طريقة المنتبّي وأبي تمام في التعبير والتّصوير, إذ إنّ الخيال قوام الصّورتين لكن خيال أبي تمام يصدر عن الجمال في الحياة , بينما يتبدى الجمال عند أبي الطّيب في معرض القوّة والرّهبة , ولذلك يعول الطّائي على اللون , لتغدو الصّورة لوحة يمتزج فيها نور الضّحي بألوان الرّيايات وحمّر الدّماء , ويوافق ذلك حركة العقبان التي نهلت من الدّماء ثم هدأت فوق الرّوؤس لا تقاثل بينما تموج السّحب والظّلّمات في بيت أبي الطّيب وتتراكب إضافة إلى هتاف الصّوارم , تهنف بها الطّير وتسقيها فتظهر متعاكسة يسقي أسفلها أعلاها , واستدلّ الشّاعر بذلك على الاختلاف النّفسي بين الشّاعرين أيضاً (2), فصورة المنتبّي رغم جدتها وغرابتها إلا أنّ لها جذور تراثيّة , ولكنّ الذي ميّز بناءها حسن سبكها وصياغتها وتحوير لغتها وانحرافها عن المعتاد . ويبدو أنّ شعراء العربيّة الذين سبقوا المنتبّي قد عنوا بهذه الصّورة , فظلّوا يطوّرونها ويضيفون إليها ما يستطيعون من جمال السّبك الفنّي حتّى كان لها الكمال الفنّي على يدي المنتبّي .

ويصوّر المنتبّي جيش سيف الدّولة بقوله :

صَدَمَتَهُمْ بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرْتُهُ وَسَمَهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمٌ (3)

فيصف المنتبّي جيش سيف الدّولة , ويجعل الرّماح في هذا الجيش كالغمم في وجه الإنسان أي ككثرة الشّعر وإسباله على الوجه . وهو هنا يستمدّ صورته ومعناه من قول أبي تمام :

بِمَجَامِعِ الثَّغْرَيْنِ مَا يَنْفَكُ مِنْ جَيْشِ أَرْبٍ وَغَارَةِ شَعْوَاءِ (4)

(1) عبد الفتاح , صالح , لغة الحب / 332.

(2) ينظر أبو تمام الطائي , حياته وحياته شعره / 232 - 233.

(3) المنتبّي , الديوان 4 / 23.

(4) أبو تمام , الديوان 1 / 15.

فأبو تمام في صورته يشبّه الجيش بالرجل الأزب أي الكثير الشعر , ليدلّل على كثرة الرّماح التي دجّج بها الجيش . فالفكرة والصّورة التي دار حولها البيتان واحدة , ولكن المتنبيّ كون من صورة أبي تمام صورة أكثر وضوحاً ونضوجاً من النّاحية الفنّية . وربّما يجتمع إلى المتنبيّ التقليد والتّجديد في الصّورة الواحدة (1). فبينما يصف أعرابية بالصّور القديمة من تشبيه قدّها بالغصن , وريقها بالشّهد مع محاولة التّجديد بإلحاق الظلم بفتاته :

مَظْلُومَةٌ الْقَدِّ فِي تَشْبِيهِهِ غُصْنًا مَظْلُومَةٌ الرَّيْقِ فِي تَشْبِيهِهِ ضَرْبًا (2)

فهي مظلومة القدّ لأنّه شبّها بالغصن وهي أحسن منه , وهي مظلومة الرّيق لأنّه شبّته بالعسل وهو أحلى منه .

ولعل ظاهرة التّشخيص والتّجسيد من الطّواهر التي احتلّت حيّزاً في شعر المتنبيّ , فقد استثمر إichاءات اللّغة , حيث جعل الزّمن يسخو ويبخل كالإنسان , فيقول :

أَعْدَى الزَّمَانِ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ وَكَفَدَ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَخِيلاً (3)

جعل المتنبيّ الزّمان يتعلّم من سخاء الممدوح الذي لولاه لبخل على أهل الدّنيا , مستوحياً صورة أبي تمام :

هِيَ هَاتِ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ (4)

ومن ذلك أيضاً إضفائه الصّفات الإنسانيّة على الحيوان , فقد جعل النّاقة تمدّ فمها تريد تقبيل الحبيبة , فاشتعلت الغيرة في صدره , لأنّ محبوبته تجذب زمام النّاقة نحوها , فيقول :

1 (الهاشم , جوزف , أبو الطيب المتنبي - شاعر الطموح والعنفوان / 83 .

2 (المتنبي , الديوان 1 / 111 .

3 (نفسه 3 / 236 .

4 (أبو تمام , الديوان / 102 .

وَيُعِيرُنِي جَدْبُ الزَّمَامِ لِقَلْبِهَا فَمَهَا إِلَيْكَ كَطَالِبٍ تَقْبِيلًا (1)

فقد استمدّ المنتبّي هذا المعنى والصّورة من قول مسلم بن الوليد :

وَالْعَيْسُ عَاطِفَةٌ الرُّؤُوسِ كَأَنَّمَا يَخْتَلِنُ سِرًّا مُحَدِّثٍ فِي الْأَحْلُسِ (2)

غير أنّ المنتبّي عكس المعنى من طلب المناجاة والحديث إلى طلب التّقبيل في التّعبير عن العلاقة الحميمة بين المحبوبة والناقة .

وبذلك يمكن القول: إنّ الموروث بأشكاله المختلفة وصوره المتعدّدة كان مصدرًا من مصادر الصّورة الشعريّة عند أبي تَمّام والمنتبّي , ولكن الموروث الدّيني والتّاريخي قد ساهم في نسيج الصورة الشعريّة بشكل أكبر عند أبي تَمّام منه عند المنتبّي . وتميّز أبو تَمّام باستدعاء صور الشعراء السّابقين من خلال استعادته لأقوالهم أو مواقفهم في مواقف تجريبية ممانلة أو مخالفة , وانفرد باستمداده صوراً ممن اشتهروا بالبلاغة مثل خالد بن صفوان وابن المقفّع والخطباء مثل قسّ بن ساعدة . ومن هنا بدت ذاتيّة الأداء واضحة في كلّ صورة.

أمّا المنتبّي فقد كان للتّراث الأدبيّ النّصيب الأكبر في تشكيل صورهِ , إذ ركّز على استثمار صور النّصوص الغائبة , وألّم بأطرافها , فجاءت حيناً موافقة لصور القدماء , ومجدّداً أحياناً , حيث إنّه أبدع في بعض الصّور فجاءت جديدة كلّ الجدة .

(1) المنتبّي , الديوان 3 / 234 .

(2) ابن الوليد , مسلم , الديوان / 134 .

الاقتباس والتضمين

الاقتباس: هو أن يُضمّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه (1) ولا ينبّه عليه (2). ويعدّ الاقتباس آلية تكثيفية إيجازية يتمّ من خلالها استحضار نصوص دينية معروفة عن طريق المتلقّي الذي يقرأ جزءاً منها، ويتم استذكارها كاملة، لأنها معروفة، وليس هناك أدنى حاجة لذكرها في النص (3). وهو نوعان الأول ألا يخرج به المقتبس عن المعنى، والثاني أن يغيّر لفظة المقتبس بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال الظاهر من المضمّر... (4).

ويعدّ القرآن الكريم مصدراً مهماً من المصادر التي يعود إليها الشاعر القديم، ويلاحظ أنّ من الشعراء من وظّف آية بكاملها، ومنهم من وظّف كلمة ومنهم من اقتبس معنى لسورة أو جزءاً من سورة (5). ومن الأمثلة على الاقتباس قول أبي تمام في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف:

قَدْ كَانَ وَعَدُّكَ لِي بَحْرًا فَصَيَّرَنِي يَوْمَ الزَّمَامِ إِلَى الضَّحْضَاحِ وَالْوَشَلِ

وَبَيَّنَ اللَّهُ هَذَا مِنْ بَرِيَّتِهِ فِي قَوْلِهِ "خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ" (6)

فهو هنا يقتبس قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا

تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (7) ليبين أنّ عجلته حالت بينه وبين الوصول إلى العطاء الجزيل.

ويقتبس المتنبي بعض أمثال القرآن الكريم نحو قوله:

(1) القزويني، الإيضاح / 312.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى 1 / 237.

(3) ناهم، أحمد، التناص في شعر الرواد / 100.

(4) ابن حجة، خزانة الأدب 2 / 459.

(5) الرباعي، ربا عبد القادر، التضمين في التراث النقدي والبلاغي / 63، رسالة ماجستير، جامعة

اليرموك، إربد - الأردن 1997 م.

(6) أبو تمام، الديوان 3 / 90.

(7) الأنبياء 37.

دَعَوْتُكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَا ءِ وَالْمَوْتُ مِنِّي كَحَبْلِ الْوَرِيدِ (1)

يدعو المنتبّي السلطان أن يخرجّه من السّجن , حينما انقطع الرجاء من غيره , وأصبح الموت أقرب إليه من حبل الوريد , مقتبساً المثل الذي ورد في قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (2).

ويمدح أبو تمام محمّد بن صالح الهاشمي :

رَهْطُ الرَّسُولِ الَّذِي تَقَطَّعَ أَسَدُ بَابُ الْبِرَايَا غَدًا سِوَى سَبَبِهِ (3)

فبيّن أبو تمام أنّ ممدوحه من نسل النبيّ - عليه الصّلاة والسّلام - , وهذا النّسب الشّريف باق إلى يوم الدّين , وهو في هذا المعنى يتواصل مع الحديث الشّريف : "كلّ سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي" (4).

ويقول المنتبّي في عتاب سيف الدّولة الحمدانيّ :

وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي كُلُّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ مَا الذَّنْبُ كُلُّ الْمَحْوِ مِنْ جَاءِ تَائِبًا (5)

فيقول المنتبّي لسيف الدّولة لو كان ذنبي ليس بعده ذنب , فإنّ توبتي تمحوه , ومن جاء تائباً استوجب العفو مستنداً إلى قول الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم - "التائب من الذّنّب كمن لا ذنب له" (6).

وأما التّضمين : فهو أن يضمّن الشّاعر شيئاً من شعر الغير مع التّنبية عليه إن

(1) المنتبّي , الديوان 1 / 346.

(2) ق 16.

(3) أبو تمام , الديوان 1 / 271.

(4) الألباني , محمد ناصر الدين , صحيح الجامع الصغير وزيادته 2 / 832.

(5) المنتبّي , الديوان 1 / 71.

(6) ابن ماجه , صحيح سنن ابن ماجه 2 / 418 والصّالحي , الشّذرة في الأحاديث المشتهرة 2 / 220.

لم يكن مشهوراً عند البلغاء (1). والتّضمين عند المرزبانيّ بيت يبني على كلام يكون معناه في بيت يتلوه من بعده مقتضياً له (2). وقد ذكر ابن حجة الحمويّ أنّ الشّاعر لا يقتبس بل يعقد ويضمّن , أمّا النّائر فهو الذي يقتبس كالمنشئ والخطيب (3).

ومن المصطلحات التي يمكن أن ترتبط بالتّضمين: السّلخ , والاحتذاء , والسّرقات والاصطراف (4) , والاجتلاب , والاستلحاق (5) , والتّفيق , والالتقاط (6) , والاشترار والإغارة (7) , والمواردة (8) , والإلمام , والاتباع , والاهتمام وغير ذلك من المصطلحات النّقديّة التي تداولها النّقاد العرب القدماء (9) .

وقد يتناول التّضمين معنى علمياً أو خبراً تاريخياً أو مثلاً أو إشارة أو تلميحاً لقصة كما قد يتناول ما يتداوله النّاس فينظمه الشّاعر (10).

والتّضمين لا يتّخذ شكلاً واحداً بل يشمل عدّة أشكال منها تضمين النّص الذي يتمثّل بتوظيف لفظة , أو عبارة , أو شطر , أو بيت بأكمله , أو المعنى , أو اللفظ , أو اللفظ

1 (القزويني , الإيضاح / 316 .

2 (الموشح / 23 .

3 (خزنة الأدب / 2 / 456 .

4 (وهو صرف الشّاعر إلى أبياته , أو قصيدته بيتاً أو بيتين أو ثلاثة لغيره , فيضيفها إلى نفسه ويصرفها عن قائلها الحاتمي , حلية المحاضرة 64 .

5 (بيت يأخذه الشّاعر على طريق التمثيل فيدخله في شعره , وقد يجتلب الشّاعر البيت أو البيتين من شعر شاعر أو المعنى والمعنيين ... ينظر الحاتمي , حلية المحاضرة / 86 , 85 .

6 (هما ترقيق الألفاظ وتلفيقها واجتذاب الكلام من أبيات حتى ينتظم بيت . الحاتمي , حلية المحاضرة 90/ .

7 (وهو أن يسمع الشّاعر المفلق والفحل المتقدم الأبيات الرائعة ندرت لشاعر في عصره , وباينت مذهبها في أمثالها من شعره , ويكون بمذهب ذلك الشّاعر المغير ألين وبكلامه أعلق فيغير عليها مصافحة ويستنزل شاعرها عنها قسراً الحاتمي , حلية المحاضرة 39 .

8 (أن يتفق شاعران في المعنى ويتواردان في اللفظ ولم يلق أحد منهما صاحبه , ولا سمع بشعره الحاتمي , حلية المحاضرة 45 .

9 (الرباعي , ربا عبد القادر , التّضمين في التراث النّقدي والبلاغي / 15 - 17 , رسالة ماجستير , جامعة اليرموك , إربد - الأردن 1997م .

10 (نفسه / 62 .

والمعنى معاً (1) .

ويعدّ التّضمين ظاهرة من الظواهر التي سلكها الشّاعر لتكوين رؤيته وتعزيز موقفه ,
إذ اعتمد الشّاعر العربيّ في تضمينه للأبيات الشعريّة عدّة مصادر , فاقتبس من القرآن
الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة , والتاريخية , والأدبيّة من نثر وشعر , والثقافية (2) .
ومن الأمثلة على التّضمين قول أبي تمام في المديح:

فَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيماً بِشِعْرِي وَلَكِنِّي مَدَحْتُ بِكَ الْمَدِيحَا (3)

فبيّن أبو تمام أن مدح إسحاق بن إبراهيم فخراً لشعره . وقد ضمّن أبو تمام قول حسان
بن ثابت في مدحه للنبي - صلى الله عليه وسلم - لفظاً ومعنى لرسم صورة الممدوح
المثال:

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا بِمَقَالَتِي لَكِن مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّدٍ (4)

فالمعنى عند الشاعرين واحد , وهو بيان فخر الشّعر بممدوحيهما , ولكن بسياقين
مختلفين .

كما يستوحي المثل القائل " طارت به عنقاء مغرب " (5) في الرثاء , فيقول :

يَا دَهْرُ أَيَّةَ زَهْرَةٍ لِمَجْدٍ لَمْ تُجْفِفْ وَأَيَّةَ أَيْكَةٍ لَمْ تَخْضُدِ
أَتَرَعْتَ لِلْعَنْقَاءِ فِي أَشْعَافِهَا كَأَسَا تَدْفُقُ بِالذُّعَافِ الْأَسْوَدِ (6)

فهو يريد من استيحائه هذا المثل أن يبيّن لذوي المرثي أن الدنيا زائلة , فلن ينجو من الموت أيّ
كائن حيّ حتّى العنقاء في أعاليها لا بد أن تذوق من هذا الكأس .

(1) الرباعي , ربا عبد القادر, التّضمين في التراث النّقدّي والبلاغي / 82 - 89 , رسالة ماجستير , جامعة اليرموك , إربد - الأردن 1997م .

(2) ينظر النويري, نهاية الأرب 106-104/7 وابن الأثير , المثل السائر 1 / 126 وما بعدها .

(3) الديوان 1 / 343 .

(4) ابن الأثير , المثل السائر 2 / 357 .

(5) الميداني , مجمع الأمثال 2 / 232 .

(6) أبو تمام , الديوان 4 / 60 .

ويوظّف حاتم الطائي في مدحه لابن شبانة أبي الحسين محمد بن الهيثم :

لَقَدَدْتَ مِنْ شِيمٍ كَأَنَّ سَيُورَهَا يُفْدِنَ مِنْ شِيمِ السَّحَابِ الْمُرْزَمِ
لَوْ قُلْتَ حُصِّلَ بَعْضُهَا أَوْ كُلُّهَا فِي حَاتِمٍ لَدُعِيْتُ دَافِعٍ مَغْرَمِ (1)

فلو قلت إن شيم هذا الممدوح حصل كلها أو حتى بعضها في حاتم لكان مثل الذي دفع مغرمًا واجبًا، لأن هذا الممدوح أعظم جوداً من حاتم الطائي .

ويرثي المنتبّي أبا شجاع بقوله :

الْحُزْنَ يُقْلِقُ وَالتَّجْمَلَ يَرْدَعُ وَالدَّمَعَ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعٌ (2)

فالمنتبّي يبيّن أن الحزن يقلقه لعظم المصاب ، غير أن التّجمل يمنعه عن التّهالك والجزع، ولكن دموعه فضحته وكشفت معاناته وألمه . وهو هنا ضمّن بيته قول بشار بن برد لفظاً ومعنى، ونقله من الغزل إلى الرّثاء :

وَدَمْعِي بَيْنَ الْحُزَنِ وَالصَّبْرِ فَاضِحِي وَسْتَرِي عَنِ الْعُدَالِ عَاصٍ وَطَائِعِ (3)

ويعزّي المنتبّي عضد الدولة بعمته ، حيث يقول :

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ مَوْتَةَ جَالِينُوسَ فِي طَبِّهِ (4)

فيؤمّن المنتبّي بحتمية الموت ، فلا ينجو منه إنسان شريفاً كان أم وضيعاً ، عاقلاً أم جاهلاً، فيموت الرّاعي الجاهل كما يموت الطّبيب الحاذق . ويوظّف المنتبّي في هذا البيت المثل القائِل : " أجهل من راعي الضّأن " وهو مثل لعظم جهل راعي الضّأن ، لأن بعد

(1) أبو تمام ، الديوان 3 / 255 .

(2) نفسه 2 / 268 .

(3) ابن برد ، بشار ، الديوان / 558 .

(4) المنتبّي ، الديوان 1 / 213 .

راعي الضأن عن الناس يفوق بعد راعي الإبل (1) , ليؤكد أن الموت حق على كل العباد
دون تمييز .

ويتواصل مع بقراط في قوله :

أذا داء هفا بقراط عنه فلم يعرف لصاحبه ضريب⁽²⁾

ويعد المنتبّي ولوع سيف الدولة بالحرب داء معضل لا شفاء منه , حتّى إنه إذا ما قعد
عنها يوماً ضجر ومرض , وهذا داء معضل لم يهتد إلى دوائه أحد من الأطباء بما فيهم
بقراط الذي يلقب بأبي الطب .

هذا وقد أوردت في الفصول السابقة كثيراً من الأمثلة عن الاقتباس والتضمين في شعر
أبي تمام والمنتبّي , فلا داعي لتكرارها هنا .

التناص

وهو وجود علاقة بين نصين أحدهما سابق والآخر لاحق , وهذه العلاقة قد تكون
على صعيد الشّكل أو المضمون , أو كليهما معاً وتتخذ صوراً عدّة كالإشارة أو الاقتباس
أو التّضمين . " فالتناص ليس عملية شكلية تتأسّس على التّواصل الشكلي بين النّصوص ,
وإنما يعني التناص الفاعل تمازجاً وتشابكاً وتلاحماً بين النّصوص , التي تقيّض للقارىء
فرصة معاينة النّصوص معاينة قائمة على إثارة وعيه وإدراكه , واستنفار معرفته وخبرته
في النّص الوافد , وما طرأ عليه من تحولات في تغيير دلالاته عندما يدخل في نسيج

1 (الميداني , مجمع الأمثال 1 / 291 .

2 (المنتبّي , الديوان 1 / 74 .

النص الجديد ، ويصبح جزءاً لا يتجزأً منه ، فالنص المستقبل ممكن أن يحور ويغير في النص الوافد ، وذلك وفق ما تقتضيه رؤية المبدع " (1).

وبناء على هذا الفهم يمكن القول إن الدراسات التي تناولت شعر أبي تمام والمنتبّي وبخاصة ما يدور منها حول السرقات تعدّ شكلاً من أشكال التناص ، ممّا ينفي عن شاعرين عظيمين مثل هذه التهمة الأخلاقية ، بغض النظر عن بواعث هذه الدراسات.

التناص في شعر أبي تمام

ولنتبع التناص في شعر أبي تمام ، فقد اختارت الدارسة قصيدة "الحق أبلج" لإظهار ما فيها من تناص ، علماً بأنه قد تتوع الموروث فيها ، والدارسة في تحليل هذه القصيدة ، فإنها تهدف إلى رصد التناص أولاً ، ثم بيان الوظيفة التي يؤديها ثانياً ، ثم الكشف عن العلاقات القائمة بين التناصات المختلفة في النص.

وثق المعتصم بالأفشين ، لأنه قام بأعمال تعزز هذه الثقة ، وأهمها القضاء على بابك الخرمي ، وحيكت مؤامرة أوقعت بين الأفشين والمعتصم ، فقبض المعتصم على الأفشين فقتله وأحرقه .

وبهذه المناسبة قال أبو تمام قصيدته " الحق أبلج " (2) يمدح فيها المعتصم ويعزيه بمقتل الأفشين ، مبرزاً بشاعة الغدر وصوره ، وقد تناص في قصيدته مع الدين والتاريخ والأدب بوعي يؤدي خدمة معنوية وفنية للنص .

يقول أبو تمام :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسَّيْفُ عَوَارٍ فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ

(1) ربابعة ، موسى ، التناص في نماذج الشعر الحديث / 7 .
(2) أبو تمام ، الديوان 2 / 198 - 209 .

مَلِكٌ غَدَا جَارَ الْخِلَافَةِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ قَدْ أَوْصَى بِحِفْظِ الْجَارِ

يحذر أبو تمام من غضب الخليفة ، متناصاً في البيت الأول مع المثل القائل : " الحقّ أبلج والباطل لجلج " (1) ، وهذا يعني أنّ الحقّ أصبح واضحاً ومشرقاً ، والباطل ملتبساً (2) ، ليبيّن سطوة الحقّ. وفي البيت الثاني يتناص مع قوله تعالى ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ ﴾ (3) ، ليعطي الشرعية للعمل الذي قام به المعتصم ، وهو جار الخلافة ، والله قد أوصى بحفظ الجار ، فهو هنا يتناص مع هذه الآية لإضفاء القدسيّة والشرعيّة على ما قام به الخليفة ، وهو قتل الأفسنين.

ثمّ يقول :

يَارُبَّ فِتْنَةٍ أُمَّةٍ قَدْ بَزَّهَا جَبَّارُهَا فِي طَاعَةِ الْجَبَّارِ
جَالَتْ بِخَيْدَرٍ جَوْلَةَ الْمَقْدَارِ فَأَحَلَّهُ الطُّغْيَانُ دَارَ بَوَارِ
كَمْ نِعْمَةٍ لِلَّهِ كَانَتْ عِنْدَهُ فَكَأَنَّمَا فِي غُرْبَةٍ وَإِسَارِ
مَكْرًا بَنَى رُكْنِيهِ إِلَّا أَنَّهُ وَطَدَّ الْأَسَاسَ عَلَى شَفِيرِهِارِ

فقضاء الأفسنين على فتنة الخرميّة كانت خدمة للدين ، وطاعة لله - عزّ وجلّ - ولكنها أودت بالأفسنين وكشفت غدره ، وهو هنا يتناصّ مع قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (4) حتّى يصف الأفسنين بالضلال ، فهو هنا وظّف

(1) الميداني ، مجمع الأمثال 1 / 318 .

(2) ينظر نفسه 1 / 318 .

(3) النساء 36 .

(4) التوبة 109 .

الآية في نصّه لفظاً ومعنى وتشرّيها ، ليجعل الأفشين مسلوب الإرادة منقاداً للكفر والطغيان ، وفي ذلك إنقاص من قيمته حتى بكفره ، و إبعاد للتصوير الذي يبيّن كفره . وهذه الآية الكريمة قد سبقت بآيات تتحدّث عن مسجد الضّرار الذي أسسه ثلاثة من المنافقين يريدون من وراء عملهم شقّ وحدة المسلمين ، وتفريق كلمتهم، حتّى نزل الوحي مبلغاً عن الله - عزّوجلّ - ما يخفي المنافقون في أنفسهم من وراء هذا العمل (1)، وبعد تبين النصّ الغائب ، فإنّه يلاحظ معنى التّواصل معه ، إنّه تأكيد لصورة المنافق واستغراق فيها، وإذا ما قورن بين النصّين ، فإنّه يتّضح أنّ أفعال الأفشين التي قام بها في خدمة الدّولة والخليفة كانت بمثابة مسجد الضّرار : عمل حسن أريد به الباطل . ويلاحظ أنّ ردّ الخليفة على عمل الأفشين يقابل ردّ الرّسول - عليه السّلام - على المنافقين، إذ يقول أبو تمّام في ردّ الخليفة على أعمال الأفشين :

حَتَّى إِذَا مَا اللَّهُ شَقَّ ضَمِيرَهُ عَنْ مُسْتَكِنِ الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارِ
وَحَالِ هَذَا الدِّينِ شَفَرْتَهُ اِثْنَى وَالْحَقُّ مِنْهُ قَائِي الْأَظْفَارِ

وهذان البيتان يستمرّان في التّواصل مع قصّة مسجد الضّرار، ونزول الوحي، والكشف عمّا بسريرة الأنفس المتربّصة بالإسلام ووحدة المسلمين . وليعمّق هذا المعنى يقول :

كَمْ نِعْمَةٍ لِّلَّهِ كَانَتْ عِنْدَهُ فَكَأَنَّهُا فِي غُرْبَةٍ وَإِسَارِ
كُسِبَتْ سَبَابٌ لُّومِهِ فَتَضَاعَلَتْ كَتَاوُلِ الْحَسَنَاءِ فِي الْأَطْمَارِ

وهو في هذين البيتين يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (2) ، حيث يبيّن أنّ النّعم التي كانت عند الأفشين غريبة وأسيرة ، لأنّه ينكر وجودها ، ويغفّفها بلؤمّه، فتتضاعل كالفتاة الحسناء التي يخفي حسنّها وجمالها ارتداؤها

(1) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم 4 / 211 .

(2) النحل 83 .

الملابس البالية ، فالهدف من صورة إنكار النعمة التي وردت في الآية الكريمة ، هو بيان مدى إنكار الأفسنين لنعم الله ، ونعم الخليفة عليه. وهذه النعم عند الأفسنين: **مَوْتُورَةٌ طَلَبَ إِلَاهُ بِثَأْرِهَا وَكَفَى بِرَبِّ الثَّأْرِ مُدْرِكِ ثَارِ** فالله - سبحانه وتعالى - في هذا البيت - هو الذي يطلب من المعتصم أن يثأر لهذه النعم التي يجدها الأفسنين، وذلك لإضفاء القدسيّة على قتل المعتصم الأفسنين . ويصوّر أبوتمام نفاق الأفسنين ، فيقول:

صَادِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَزْبِرَجٍ فِي طَيْهِ حُمَةُ الشُّجَاعِ الضَّارِي

يصوّر الأفسنين غيوماً خادعة ملونة ، وفي سريرته أفعى تنربص بالمعتصم ، متأثراً بقوله تعالى: ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (1)، فالصورة التي يرسمها صورة منافق ، والمنافقون في الآية الكريمة "يصدون عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صدوداً" وفي البيت "الأفسنين صادي أمير المؤمنين" ، فصورة المنافق التي رسمها أبو تمام للأفسنين مستوحاة من صورة المنافق في هذه الآية ، فهو يصوّر فعل المعتصم بالأفسنين تصويراً دينياً لإضفاء الشرعية عليه .

ويتناصّ أبو تمام مع قصة أخرى من قصص المنافقين، فيقول:

**هَذَا النَّبِيُّ وَكَانَ صَفْوَةَ رَبِّهِ مِنْ بَيْنِ بَادٍ فِي الْأَنَامِ وَقَارِ
قَدْ خَصَّ مِنْ أَهْلِ النَّفَاقِ عِصَابَةً وَهُمْ أَشَدُّ أَدَى مِنْ الْكِفَّارِ
وَإِخْتَارَ مِنْ سَعْدِ لَعِينِ بَنِي أَبِي سَرَحٍ لَوْحِي اللَّهُ غَيْرَ خِيَارِ**

ويدافع أبو تمام عن موقف المعتصم من الأفسنين عندما صلبه بعد أن تبين له كفره وغدره مبرراً غفلته حينما وثق بالأفسنين ، وذلك من خلال الإشارة إلى حادث مماثل جرى أيام

(1) النساء 61.

النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - وهو خير الخلق , إذ إئتمن عبد الله بن سعد بن أبي سرح ,
أحد كتبة الوحي , فكان يغيّر ما يقوله النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - من آيات الله , ويقول
للناس : لو كان نبياً لعرف ذلك , فأهدر الرسول - صَلَّى الله عليه وسلم - دمه , ثم شفع
فيه عثمان بن عفان - رضي الله عنه - , فتاب وحسن إسلامه , وأبلى بلاء حسناً في
الفتوح الإسلاميّة (1) . وربط أبو تمام بين الحديثين لتشابههما , ويلتمس العذر للمعتصم
في انخداعه بالأفشين . فإذا أضلّ النبيّ - عليه الصلّاة والسّلام الرأى , فلا بدع أن يقع
الخليفة بمثله حينما أمّن الأفشين , ويريد أيضاً من هذا التّوظيف تأكيد صورة المنافق
الملصقة بالأفشين .

قدم الأفشين للمعتصم خدمات جليلة , ومنها القضاء على فتنة الخرميّة , وهذه الخدمات
قد تجعل المعتصم يندم على قتله , أو قد يحدث قتله فتنة , ممّا دفع أبا تمام إلى استثمار قصّة
المختار بن عبيد التّقي , فيقول :

وَالهَاشِمِيُّونَ اسْتَقَلَّتْ عَيْرُهُمْ مِنْ كَرْبَلَاءَ بِأَثْقَلِ الأَوْتَارِ
فَشَفَاهُمُ الْمُخْتَارُ مِنْهُ وَلَمْ يَكُنْ فِي دِينِهِ الْمُخْتَارُ بِالمُخْتَارِ
حَتَّى إِذَا انْكَشَفَتْ سَرَائِرُهُ اغْتَدَوْا مِنْهُ بِرَاءِ السَّمْعِ والأَبْصَارِ

وقد ظهر المختار بالكوفة , وزعم أنه يطالب بدم الحسين بن عليّ - رضي الله عنهما - , فقتل
كثيراً من الناس , حتّى اكتُشف أنه كذاب ومُموّه (2) . فأبو تمام هنا يحاول أن يخفّف عن المعتصم ,
ويستميح له عذراً لانخداعه بالأفشين , فيقول له : إنه ليس بعجيب اختصاصك إياه مع انطوائه على
الكفر , حتّى إذا انكشف لك أطلت به ما كان يستحقه , فالهاشميّون من قبلك قد خدعوا بالمختار , إذ

(1) ابن حجر العسقلاني , الإصابة في تمييز الصحابة 2 / 1057 .

(2) ينظر فريد بك , محمد , تاريخ الدولة العنمانية / 35 .

اختاروه ليثأروا لآل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وأعانوه وشدوا على يديه ، حتى إذا انكشفت لهم سرائره ، برؤوا منه ومما رأوا فيه . وهذا المنافق الكذاب قدم عملاً مهماً للهاشميين ، إذ ثار لهم من قتلة الحسين بن عليّ - رضي الله عنهما - ، وشفا صدورهم ، غير أنه لم يكن يقصد ذلك الأمر الذي قام به ، والهاشميون وإن أفادوا ممّا عمل فهم بريئون ممّا كان في سريرته من كذب وخداع . وهذا يدلّ على أنّ الأعمال الجليلة التي قدّمها الأفيشين ليست مقصودة . وبهذا فإنّ توظيفه هذه الحادثة جاء لتعزية الخليفة وإخراج حسرته من قلبه . فضلاً عن تقديم هذا التناص صورة أخرى من صور المنافق .

ويستدعي حرب الفجار⁽¹⁾ ، فيقول :

مَا كَانَ لَوْلَا فُحْشُ غَدْرَةِ خَيْدِرٍ لِيَكُونَ فِي الْإِسْلَامِ عَامُ فِجَارٍ

فالأفيشين نقض عهده وميثاقه مع المعتصم وحاول الفتك به والقضاء عليه كالبراض حينما غدر بعروة الرحال بفتكه به ، ولو لم يقض المعتصم عليه لكان في الإسلام عام فجار مثل الذي كان في الجاهلية . وتوظيف حرب الفجار يقدم خدمة لغوية ، حيث يجعل الأفيشين فاجراً . ويبين أنّ العمل الذي قام به الأفيشين لم يحدث في التاريخ الإسلامي ، فالأفيشين أوجد في التاريخ الإسلامي بغدره هذا عام فجار جديد .

ويصور أبو تمام حرق الأفيشين ، فيقول :

مَا زَالَ سِرُّ الْكُفْرِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ حَتَّى اصْطَلَى سِرَّ الزَّنَادِ الْوَارِي
مَشْبُوبَةً رَفَعَتْ لِأَعْظَمِ مُشْرِكٍ مَا كَانَ يَرْفَعُ ضَوْعَهَا لِلْسَّارِي
صَلَّى لَهَا حَيًّا وَكَانَ وَقُودَهَا مَيْتًا وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَارِ

(1) الفجار من حروب الجاهلية ، سميت بذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم ، وسببها أن البراض بن قيس الكناني قتل عروة الرحال الكلابي فنكا بغير حرب فاقتلت كنانة وبنو عامر ، وكانت قريش لها فجاران ، الثاني منهما أدركه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر أبو تمام ، الديوان 2 / 202 ، وابن كثير ، البداية والنهاية 1 / 289 .

فَصَلَّنَ مِنْهُ كُلَّ مَجْمَعٍ مَفْصِلٍ وَفَعَلْنَ فَاقِرَةً بِكُلِّ فِقَارٍ
وَكَذَلِكَ أَهْلَ النَّارِ فِي الدُّنْيَا هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُلُّ أَهْلِ النَّارِ

ويصور النار التي أحرق بها الأفشين تصويراً مستوحى من التصوير القرآني للنار ،
وهذه الصورة تتوسطها لوحة نفاق الأفشين وغدره، وكفره ومشروعية حرقه ، وتسويغ
الحرق بالنار من خلال ما يثبتته بحقه، بأنه من عبدة النار في الدنيا ، ومن أهلها في
الآخرة . ويوظف كلمة فاقرة من قوله تعالى : ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (1) ، ليبيّن
صورة فعل النار بجسد الأفشين .

ويبيّن على هذا التصوير بعض التناصتات، فيقول :

يَا مَشْهَدًا صَدَرَتْ بِفَرَحَتِهِ إِلَى أَمْصَارِهَا الْقُصُوى بَنُو الْأَمْصَارِ
رَمَقُوا أَعَالِي جِذْعِهِ فَكَأَنَّمَا وَجَدُوا الْهَلَالَ عَشِيَّةَ الْإِفْطَارِ
وَاسْتَنْشَأُوا مِنْهُ قُتَارًا نَشْرُهُ مِنْ عَنَبَرٍ ذَفِيرٍ وَمِسْكِ دَارِي
وَتَحَدَّثُوا عَنْ هُلْكَهِ كَحَدِيثِ مَنْ بِالْبَدْوِ عَنِ مُتَابِعِ الْأَمْطَارِ
وَتَبَاشَرُوا كَتَبَاشِرِ الْحَرَمَيْنِ فِي قُحَمِ السَّنَيْنِ بِأَرْخَصِ الْأَسْعَارِ

ويظهر أبو تمام الحرق في هذه الأبيات بصورة احتفالية ، فجزع الأفشين المحترق يصبح
هلال العيد، وقتار حرقه مسكاً وعنبراً، وخبر حرقه مثل خير الأمطار عند البدو، وبشرى
رخص الأسعار في السنين القاحلة ، فهو هنا يتناصّ مع الحياة الشعبية ، ليقدم مبرراً
شعبياً لحرق الأفشين ، فالناس ينتظرونه بقليل صبر، حتّى إنهم تباشروا بهذا الحرق،
وفرحوا به فرحهم بثبوت العيد، ومطر البادية، ورخص الأسعار .

(1) القيامة 25.

وإذا كان في التناصت السابقة يبين المبرر الشرعي ، والشعبي لحرق الأفسين ، فإنه في التناصت التالية يبين المبرر الأخلاقي والشخصي لذلك الحرق، ممهداً له بقوله:

كَانَتْ شَمَاتُهُ شَامِتٍ عَارًا فَقَدْ صَارَتْ بِهِ تَنْصُو ثِيَابَ الْعَارِ

فهو يبيح الشماتة في حال الأفسين، فلم تعد عيباً أو عاراً على الشامت، وكأنه استشعر عدم التعاطف الشعبي مع ما يقوله بحق الأفسين، ولكي تكون الشماتة مسوغة فلا بد من اللوحة الآتية التي يبين فيها ما كان للأفسين من مكانة عند المعتصم، فيقول :

قَدْ كَانَ بَوَاهُ الْخَلِيفَةُ جَانِبًا مِنْ قَلْبِهِ حَرَمًا عَلَى الْأَقْدَارِ
فَسَقَاهُ مَاءَ الْخَفِضِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ وَأَنَامَهُ فِي الْأَمْنِ غَيْرَ غَرَارِ
وَرَأَى بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَوْمًا رَأَى عَمْرُو بْنُ شَاسٍ قَبْلَهُ بَعْرَارِ

هذه مكانة الأفسين عند المعتصم، فقد أسكنه قلبه، وحنا عليه، وأشعره بالأمن والطمأنينة حتى إنه رأى به ابناً له سقاه ماء الخفض ، وهو هنا يتناص مع قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾⁽¹⁾، والتناص هنا يقدم خدمة شعريّة من خلال الإزاحة، فالمفروض أن يكون الخافض الابن لا الأب، فالمطلوب من الابن أن يخفض جناح الذل في الآية الكريمة ، لأن الابن يكون في موضع القوّه ، غير أنه قدم الأب - أي الخليفة - خافضاً ، لأنه الأقوى.

ويلخص علاقة المعتصم بالأفسين من خلال التناص مع شخصيّة اشتهرت بحب ابنها ، شخصيّة عمر بن شأس الأسدي⁽²⁾ الذي أحبّ ابنه حباً كبيراً ، وكانت زوجته غير أمّ

(1) الاسراء 24.

(2) عمرو بن شأس الأسدي (20 هـ) ، أبو عرار. شاعر جاهلي مخضرم، أدرك الإسلام وأسلم، عدّه الجمحي في الطبقة العاشرة من فحول الجاهلية والإسلام، وكان ذا قدر وشرف في قومه. شهد القادسية ، وله فيها أشعار. ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 1/ 415 والأصفهاني ، الأغاني 2/ 250 ، 8/ 152 و 11/ 134.

عرار تضطهده ، وتكيد له ، وأبياته في تأكيد حبه لابنه عرار ، وفي نغمته على زوجته
وكرهها إياه مشهورة ، ومنها قوله :

أَرَادَتْ عِرَاراً بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ عِرَاراً لَعَمْرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمَ (1)

فالتناص مع موقف عمرو من ابنه عرار يوحي بأن المعتصم جعل الأفيشين بمنزلة الولد ،
واعتقد فيه أكثر مما اعتقد عمرو في ولده عرار ، إذ كان يفضلّه على غيره ، فموقف
عمرو يشبه موقف المعتصم ، إذ كان من حول المعتصم يكره الأفيشين ، والمعتصم كان
ينقم عليهم ، لكرههم إياه ويدافع عنه تماماً كما كان يفعل عمرو مع ابنه عرار . أما المآل
الذي آلت إليه هذه الرعاية فهو :

فَإِذَا ابْنُ كَافِرَةٍ يَسِرُّ بِكُفْرِهِ وَجَدًا كَوَجَدِ فَرَزْدَقِ بِنَوَارٍ
وَإِذَا تَذَكَّرَهُ بِكَأهِ كَمَا بَكَى كَعْبٌ زَمَانَ رَثَى أَبَا الْمَغْوَارِ

كان الأفيشين يضمرون كفرة في نفسه ، ويجد في هذا الكفر وجداً كوجد الفرزدق على طلاق
زوجته نوار الذي يصوره في قوله :

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا غَدَتُ مِنِّي مُطَلَّقةً نَوَارُ (2)

فالأفيشين لا يمكن له أن يظهر كفرة في حضرة الخليفة ، ولكنه إذا ما تذكر عبادته السرية للنار
بكى لها ، كما بكى كعب بن سعد الغنوي (3) أخاه أبا المغوار في قصيدته المشهورة ، ومطلعها:

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَبْسِيِّ قَدْ شَبِتَ بَعْدَنَا وَكُلُّ امْرِئٍ بَعْدَ الشَّبَابِ يَشِيبُ (4)

(1) ابن سلام ، طبقات الشعراء / 200 .

(2) الفرزدق ، الديوان / 1 / 294 .

(3) هو كعب بن سعد بن عمرو الغنوي ، (؟ - 5 ق. هـ) من بني غني من قيس بن عيلان . شاعر
مخضرم من أهل الطبقة الثانية ، وكان له أخ يدعى أبا المغوار قتل في حرب ذي قار ، رثاه في قصيدة
فصارت من المراثي المعدودة عند العرب واشتهر بها . ينظر الأصمعي ، الأصمعيات / 73 / والبغدادي ،
خزانة الأدب / 3 / 621 .

(4) الغنوي ، كعب بن سعد ، الديوان / 71 .

ويدخل قصة كعب على سبيل الإبعاد في تصوير تلك العلاقة بين الكفر والأفشين، فهو له أخ وحببية، لكنه يظهر غير ما يبطن من تلك العلاقة. وهذا يدل على مدى تعلق الأفشين بكفره، وعظم خيانتة وفداحتها.

وليؤكد على صورة المنافق، فإنه يستثمر الحديث النبوي الشريف، إذ يقول:

دَلَّتْ زَخْرَفُهُ الْخَلِيفَةَ أَنَّهُ مَا كُلُّ عَوْدٍ نَاضِرٍ بِنُضَارٍ

فهو يوظف معنى الحديث الشريف: "إياكم وخضراء الدمن" (1) وهي الحسنة في المنبت السوء، في معرض ذم الأفشين وهجائه، ليبين للمعتصم أنه ليس كل من حسن مظهره حسن مخبره، فالأفشين كان يظهر خلاف ما يبطن.

أما في اللوحة التالية، فإن التناص فيها يوجه توجيهاً تحريضياً، من خلال تحريض المعتصم على استئصال شافة الأفشين من خلال القضاء على قومه، فيبحث في التاريخ عما يمكن أن يسعفه في هذا التحريض، فيوظف قصة السامري، وقصة ثمود، فيقول:

يَا قَابِضًا يَدَ آلِ كَاوُسَ عَادِلًا أَتَبِعَ يَمِينًا مِنْهُمْ بَيْسَارِ
أَلْحِقْ جَبِينًا دَامِيًا مَلْتَهُ بَقْفًا وَصَدْرًا خَائِنًا بِصِدَارِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ إِنَّمَا تُلْقِيهِمْ فِي بَعْضِ مَا حَفَرُوا مِنَ الْآبَارِ
لَوْ لَمْ يَكِدْ لِلْسَامِرِيِّ قَبِيلُهُ مَا خَارَ عَجَلُهُمْ بِغَيْرِ خُورِ
وَتَمُودُ لَوْ لَمْ يُدْهِنُوا فِي رَبِّهِمْ لَمْ تَدَمْ نَاقَتُهُ بِسَيْفِ قُدَارِ

إنَّ أبا تَمَامٍ يَتَنَاصُّ مَعَ قِصَصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بِقِرَاءَةِ جَدِيدَةٍ لِهَذِهِ الْقِصَصِ، فَالْسَامِرِيُّ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَصْنَعَ الْعَجَلَ الَّذِي عَبْدَهُ قَوْمُ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَوْ لَمْ تَكُنْ قَبِيلَتُهُ تَوَافِقُهُ وَتَشْجَعُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَ قُدَارٌ عَاقِرٌ نَاقَةٌ صَالِحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ إِظْهَارِ مَا أَظْهَرَهُ مِنَ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ لَوْلَا

(1) الصالح، الشذرة في الأحاديث المشتهرة 1 / 178

مساعدة قبيلته إياه ومساندتها له ، وبناء على ذلك فإن قوم الأفيشين هم من شجّعه على الغدر، وهم بذلك يستحقون أن يقضي عليهم الخليفة .

ويرجع أبو تمام إلى صورة صلب الأفيشين، ، فيقول:

وَلَقَدْ شَفَى الْأَحْشَاءَ مِنْ بُرْحَائِهَا أَنْ صَارَ بِأَيْكَ جَارَ مَازِيَارِ
ثَانِيهِ فِي كَبَدِ السَّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ لِاثْنَيْنِ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ

فيوظّف من قصّة الهجرة النبويّة موقف الاختباء في الغار في وصف صلب الأفيشين بعد ما صلب مازيار ، لا بقصد التشبيه ، وإنما لتوليد نوع من الإحساس العميق بالمفارقة بين الموقفين مستوحياً قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا اثْنَيْنِ ﴾⁽¹⁾، فأبو تمام وظّف هذه القصّة توظيفاً عكسياً ، بقصد التعبير عن معان تتناقض المدلول التراثي للشخصية ، فأتى بصورتين متضادتين لإبراز بشاعة الصورة الثانية وفضاعتها . وهذا ليس بالشيء الغريب " فليس من الضروري أن يكون التناص مجرد حضور للنص الآخر على سبيل الاستمداد ، بل الحضور يكون أيضاً على سبيل المعارضة أو المناقضة " ⁽²⁾ .

ويتوجّه أبوتمام إلى الخليفة بخطاب مباشر، فيقول:

فَأَشِدُّ بِهَارُونَ الْخَلِيفَةَ إِنَّهُ سَكَنَ لِيُوحِشَتِهَا وَدَارُ قَرَارِ
بَقَتَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْقَمَرِ الَّذِي حَقَّتْهُ أَنْجُمُ يَعْزُبُ وَنِزَارِ
كَرَمِ الْعُمُومَةِ وَالْخُؤُولَةِ مَجَّةً سَلَفًا قُرَيْشٍ فِيهِ وَالْأَنْصَارِ
سُورَ الْقُرْآنِ الْغُرُّ فَيَكُمُ أُتْرِلَتْ وَلَكُمْ تُصَاغُ مُحَاسِنُ الْأَشْعَارِ

¹ (التوبة 40 .

² (عبد المطلب ، محمد ، هكذا تكلم النص / 51 - 52 .

ويطلب أبو تمام من الخليفة أن يجعل ابنه ولياً للعهد من خلال التلميح بشكل غير مباشر إلى موقف من قصة موسى - عليه السلام - , وهو رجاءه ربّه أن يشدد أزره بأخيه هارون ليعكسها على واقعه , وذلك من خلال وصفه ابن الخليفة الواثق بأنه سكن لوحشة الخلافة , وأنيساً للخليفة مستغلاً اسم هارون كما ورد قوله تعالى : ﴿ **وَاجْعَلْ لِي وِزيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** ﴾ (1). فالعرب كلّمهم بما فيهم نزار تحفل بتولي الواثق ابن المعتصم الخلافة , وترحبّ به كخليفة لأنه سليل قريش أهل الخلافة وأحواله أنصار النبي - صلى الله عليه وسلم - . ويبرز مكانة آل البيت من خلال التناص مع قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ (2) وهذا تأييد له في أحقيته بالخلافة.

ويهدف أبو تمام من هذه التناصات المختلفة إضفاء الشرعية الدينية والتاريخية والأخلاقية على عمل الخليفة , وإدانة الأفسين , وبخاصة أن سبب مقتل الأفسين وشاية وسعي بالسوء بينه وبين الخليفة , ومن هنا فإنّ التناص في هذه القصيدة , غرضه القضاء على ما يتشكّل من ندم أو تساؤل حول ذلك القتل. أمّا إدانة أبي تمام الأفسين , فإنّها تأخذ منحى شخصياً , لأنه كان قد مدحه سابقاً , فهو يريد أن يبرئ ساحته من ذلك الغادر , ويبعد ما قد يُتهم به من علاقة به أو ميل له , فإذا كان يعتذر عن غفلة المعتصم بالأمس في تقريب هذا الغادر , فإنّه يعتذر في الوقت نفسه عن علاقة كانت قد ربطته به فيم مضى .

التناص في شعر المتنبي

قال المتنبي قصيدة في صباه يفخر فيها بنفسه , ويشكو فيها معاناته وغرْبته بين

قومه (3) :

(1) طه 29 - 32 .

(2) الأحزاب 33 .

(3) المتنبي , الديوان 1 / 313 - 324 .

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا فُتِنَتْ شَهِيدٍ بِيَبَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ
وَعُيُونِ المَهَا وَلَا كَعُيُونِ فَتَكَتَ بِالمُتَمِّمِ المَعْمُودِ

ويلاحظ أنّ المتنبّي قد تأثر بأكثر من موروث في مقدمته الطلّية ، فهو في البيت الأوّل منها يعدّ نفسه شهيداً ، لأنّه قتل من قوّة تأثير المحبوبة ، وهو بهذا المعنى يتناصّ مع الحديث النبويّ الشّريف : " إنّ من عشق فعفّ وكفّ وكنم ، فمات ، مات شهيداً " (1). وفي البيت الثّاني يبيّن كثرة الذين قتلوا بعيون أحبّتهم التي تشبه عيون المها ، غير أنّ العيون التي قتلته لا تشبه بغيرها لجمالها ، وتشبيهه العيون الجميلة بالمها قديم وشائع في الشعر العربيّ ومن الأمثلة على ذلك قول عليّ بن الجهم :

عُيُونُ المَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالجِسْرِ جَلَبَنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أُدْرِي وَلَا أُدْرِي (2)

ويتناصّ مع أبي الشّيص في تصويره قوّة تأثير المحبوبة على المحبّ ، حيث يقول :

رَامِيَاتِ بِأَسْهُمِ رِيشُهَا الهُدُ بَ تُشَقُّ القُلُوبَ قَبْلَ الجُلُودِ

يصوّر المتنبّي قوّة تأثير نظرات محبوبته ، فهي لقوّة سحرها وتأثير جمالها ، تنفذ إلى القلوب فتشقّها من غير أنّ تشقّ الجلود بخلاف السّهام المعهودة في سرعة النّفاذ إلى الهدف مستوحياً قول أبي الشّيص :

يَرْمِينِ أَلْبَابَ الرِّجَالِ بِأَسْهُمِ قَدْ رَاشَهُنَّ الكُحْلُ وَالتَّهْدِيبُ (3)

فأبو الشّيص يرى أنّ عيون المحبوبات سهام تصيب ألباب الرّجال ، غير أنّ هذه السّهام أقوى تأثيراً من السّهام المعهودة فهي مكتحلة الأهداب . فقد ضمّن المتنبّي نصّه السّابق ألفاظاً وعبارات ومعاني قول أبي الشّيص : فـ " يرمين ألباب الرّجال بأسهم " تماثل

1) الصّاحي ، الشذرة في الأحاديث المشتهرة 2 / 180 وابن الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد 306 / 3 .

2) ابن الجهم ، علي ، الديوان / 141 .

3) أبو الشّيص ، أشعار أبي الشّيص / 21 .

معنى "راميات بأسهم" ، "وقد راشهن الكحل والتهديب" تماثل "ريشها الهدب" ، ليعبر عن شعوره نحو المحبوبة ، حيث تشرب المنتبى نصّ أبي الشّيص ، وأعاد بناءه من جديد بعد أن هدمه ، وحوّر بعض ألفاظه فـ "ألباب = قلوب" كما أنه استخدم أسلوب التقديم والتأخير في بعض الألفاظ ممّا يدلّ على قدرته في تطويعها وتشكيلها ، وتحوير النصّ الغائب ، ممّا يجعل المتلقّي في حيرة لتحديد تأثير النصّ السّابق في نصّ المنتبى .

ويتابع وصفه لتأثير هذه المحبوبة بقوله :

هذه مهجتي لديك لحيئي فأنقصي من عذابها أو فزيدي

يضع المنتبى روحه بين يدي محبوبته ، فيسلمها إيّاها ، ويترك لها الخيار في التصرف فيها ، فلها أن تزيد عذابه بالهجر أو تنقصه بالوصل . مستحضراً النصّ القرآنيّ الغائب الذي عبّر عن حاله مع محبوبته : ﴿ إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (1) التي تعني إن تعذبهم فأنت مالكهم تتصرف بهم كيف تشاء ، ولا أحد يجرو أن يعترض على ذلك (2) ممّا يدلّ على استسلامه للمحبوبة . ويُعدّ هذا البيت من مبالغات المنتبى ، إذ جعل معشوقته بمنزلة الله - عزّ وجلّ - ، وجعل عذابها مساوياً لعذابه ، مع أن العلاقة بين العاشق والمعشوق تختلف عن العلاقة مع الله - عزّ وجلّ - ، فالمعشوق يستطيع الإفلات من معشوقه ، وعذابه لايساوي عذاب الله - عزّ وجلّ - . وبعد هذه المقدّمة الطلّية يصف معاناته في أرض نخلة ، فيقول :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

ويتناصّ المنتبى مع صورة المسيح - عليه السّلام - بين اليهود ، حيث كان مضطهداً ، ويشعر بالعذاب والمرارة والألم والاستخفاف والغربة ، ليعكسها على واقعه الأليم أثناء

(1) المائدة 118 .

(2) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم 2 / 654 والسيوطي ، تفسير الجلالين / 126 .

إقامته في أرض نخلة , حيث سجن وعذب واضطهد وعانى من الغربة , فهو في هذه القرية لا يفارق صهوة جواده , ودائم الاستعداد لمواجهة عدائهم له والتّصدي لهم , ودائم التيقّظ , إذ يقول:

مَفْرَشِي صَهْوَةَ الْحِصَانِ وَكُنْتُ نَ قَمِيصِي مَسْرُودَةً مِنْ حَدِيدِ
لَأُمَّةٍ (1) فَاضَّةٍ (2) أَضَاةٍ (3) دِلَاصٍ (4) أَحْكَمَتِ نَسَجَهَا يَدَا دَاوُدِ

فأهل أرض نخلة قلبوا له ظهر المجنّ , لذلك لا يفارق ظهر فرسه , وأصبح قميصه على الدوام درعاً محكم النّسج , وكأنّه من صنع داود - عليه السّلام - , ليكفل له السّلامة والنّجاة من طعنات الأعداء . ممّا يدلّ على شجاعته وتأهّبه ويقظته ورفضه للواقع المهين . فغربة المتنبّي هنا إيجابية وليست سلبية , إذ لم تكن غربة الأنبياء في أقوامهم تعني الهزيمة والانسحاب والتّخلي عن المسؤولية ولكنّه الاختلاف والتميّز والسّموّ والعظمة هو ما يجعل الأنبياء غرباء في مجتمعاتهم .

فالمُتنبّي يعاني من عدم الاستقرار , فهو دائم التّنقل والترحال , فيقول :

ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزِّ قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي
أَبْدًا أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجْمِي فِي نُحُوسٍ وَهَمَّتِي فِي سُعُودِ

فهو يسعى في طلب الرزق بهمة عالية , ولكن حظه منحوس مستوحياً قول أبي

تمام لفظاً ومعنى :

هَمَّةٌ تَنْطَحُ النُّجُومَ وَجَدُّ أَلْفٌ لِلْحَضِيضِ فَهُوَ حَضِيضٌ (5)

1 (المتقنة الصنع ينظر ابن منظور , لسان العرب مادة لأم .

2 (الواسعة ينظر نفسه مادة فيض .

3 (الصافية ينظر نفسه مادة وضؤ .

4 (البرق ينظر نفسه مادة دلص .

5 (أبو تمام , الديوان 2 / 289 .

ويحاول أن يبين تميزه وتفوقه , فيقول :

لَا بِقَوْمِي شَرَفْتُ بَلْ شَرَفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

شرف المتنبي نفسه لا بقومه , وهو في هذا المعنى يستوحي قول عامر بن الطفيل :

فَمَا سَوَدَّتْنِي عَامِرٌ عَنِ قَرَابَةِ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بِأُمَّ وَلَا أَبِ (1)

فالمتنبي هنا أخذ معنى عامر بن الطفيل , وأعاد بناءه بلغة وسياق مختلفين , ليدل على أنه إنسان عصامي يشرف به قومه .

ويختتم المتنبي قصيدته بالتناص مع حال صالح - عليه السلام - (2) بين قومه للتعبير

عن معاناته وشعوره بالإغتراب المكاني , فيقول :

أَنَا تَرِبُّ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسِمَامُ الْعِدَا وَغَيْظُ الْحَسُودِ

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّهُ لَهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

فالمتنبي شديد الإعجاب بنفسه , وهو أخو الجود , ومنشئ القوافي التي لم يسبق إلى مثلها , وسمّ قاتل للأعداء , وموضع حسد الحساد وغيظهم , وهو في قوم تداركهم الله في العذاب والشر - يدعو عليهم - غريب مخالف لهم طبعاً وفعلاً , متميز عنهم بفضله وشرفه , مثل صالح - عليه السلام - في تميزه ومعاناته وغربته بين قومه ثمود .

فالمتنبي صاحب رؤية وبصيرة ولا يقبل التكيف مع الآخر إلا وفق فلسفته ومبادئه الخاصة . ولعل موقف الذات الشاعرة وإحساسها بالتميز وبسمو مبادئها ورفعها في مواجهة الآخر هو ما دفع المتنبي إلى تشبيه نفسه بصالح في ثمود , ليرسم صورة للعلاقة الواهنة بين الذات والآخر , فالنبي صالح - عليه السلام - كان صاحب دعوة إلهية سامية , ولكنه قوبل بالرفض وعدم التجاوب من قومه فكان الاختلاف وكانت غربته

(1) الديوان / 13.

(2) ابن كثير , قصص الأنبياء / 93 وأبو عزيز , سعد يوسف , قصص القرآن / 65 .

كذلك فإنّ مهمّة الشاعر تشبه إلى حدّ ما - حسب رؤيته - مهمّة الرّسل حيث تجاوز الآخرين بالاستشراف والرّؤية , فجابها القوم بالرفض والمعاداة حسداً وعاوة كما يجابه الرّسل فكان الاختلاف والغربة (1).

ويلاحظ أنّ المتنبيّ في هذه القصيدة قد أظهر براعة في توظيف التّراث بأنواعه المختلفة , حيث طبعها بطابعه الخاص , وحملها شحنات دلاليّة خاصّة تعبّر عن رؤاه الشعريّة , وصاغها في أجمل صياغة , ممّا أسهم في ذبوع هذه الأبيات وانتشارها . وهذه التّدخلات النّصوصية في القصيدتين السّابقتين تشير إلى غنى تجربة كل من أبي تَمّام والمتنبيّ الثقافيّة والأدبيّة التي يمتلكانها , وانفتاحهما الرّحب على مختلف الثقافات والإفادة منها بقدر ما يخدم أهدافهما الشعريّة . وقد أظهر براعة فائقة في تعاملهما مع النّصوص الدنيّة والأدبية والتاريخيّة التي تمثّلها في هاتين القصيدتين, حيث إنّهما طبعها بطابعهما الخاص , وحملها شحنات دلاليّة خاصّة تعبّر عن رؤاهما الشعريّة مما أدى إلى شيوع هذه الأبيات وسيرورتها . ويلاحظ أنّ أبا تَمّام قد نوّع أكثر من المتنبيّ في تناسّاته , حيث حشد عدداً من أسماء الشعراء المشهورين في البيت الواحد , واقتدى بمسلك الشخصية التي يتحدّث عنها بإشارات شديدة الإيجاز, سريعة اللّمح , ولم يقتصر أبو تَمّام على حشد هذه الأسماء بل تطرّق إلى الإشارة إلى ما يقترن بها بحادثة أو موقف معين عرف عنها , وكأنه يعرض معرفته الواعية بكل ما يحيط بهم .

(1) إبراهيم , نوال مصطفى , المتوقّع واللامتوقّع في شعر المتنبي / 67 - 68.

خاتمة

لقد أدرك النقاد القدماء والمحدثون أهمية التراث الشعري في عملية النظم , فعرفوا أهميته للمحافظة على أصالة العمل الأدبي الذي لا يمكن أن يصدر من فراغ ثقافي أو اجتماعي , فأدركوا أنّ أفضلية الشاعر وريادته تكمن في قدرته على استيعاب التراث وحفظه , لا بقصد المحاكاة , وإنما بالقدرة على البناء عليه , ممّا جعلهم يبيحون أخذ الشعراء عن بعضهم بعضاً ضمن شروط ومعايير تحكم هذا الأخذ , وبخاصة أنّ مجال المعاني قد ضاق على الشاعر المحدث , لأنّ من تقدّمه قد استغرق المعاني , وسبق إليها , وأتى على معظمها .

فالتراث له سيطرته التي تجذب كلّ الشعراء , وهذا لا يعني أن يقع الشاعر ضحية لاستعباد هذا التراث , فالشاعر المجيد هو من يستطيع أن يطوّع هذا التراث في خدمة فنّه دون أن يفنى فيه . فالالتكّاء على التراث لا ينفي عظمة الشاعر , ولا يذيب شخصيته , ولا يحوّل الشاعر إلى نسخة مكرّرة عن الآخرين , فالشاعر المبدع والمميز لا يتوقّف عند استيعاب التراث بل عليه أن يجمع بين تجاربه وتجارب القدماء , ويستغلّ قدراته في معالجة كلّ ما هو موروث , وإخراجه بشكل جديد يناسب عصره .

وكان التراث الديني من الروافد المهمة التي ساهمت في إثراء موهبة كلّ من أبي تمام والمنتبّي الذاتية وإطارهما الثقافي في تكوين أسلوبهما الخاصّ , وتمثّل ذلك في الاستكثار من استيحاء ألفاظ القرآن الكريم , ومعانيه وصوره , وتلميحاته وإشاراته وقصصه ومواقفه , والأحاديث النبوية , وألفاظ أهل الكتاب وقصصهم . واستثمار ذلك كلّه في التعبير عن معانيهما وأفكارهما والكشف عن شعورهما وانفعالاتهما وتقديم رؤاهما وتشكيلاتهما الشعرية .

وقد جاء توظيف التراث الديني في شعر أبي تمام والمنتبي بشكل مدروس ليتسق ما يأخذانه مع ما يقولانه . مما يدل على أصول الثقافة الدينية لديهما وعلى أصالة هذا المصدر .

وكان المنتبي أقل تأثراً بآيات القرآن الكريم في شعره من أبي تمام رغم غلبة الطابع الديني على عصره وانتشار الفتوحات الإسلامية , والجهاد ضد الروم , وانتشار الوعي الإسلامي وذلك لأن المنتبي يركّز في مدائحه وبخاصة لسيف الدولة على بطولاته وشجاعته وتمثله للبطولة والقيم العليا , وهو الطابع العام الذي يغلب على شعره . وهو في هذا النهج قد خالف شعراء المديح الذين كانوا يخلعون على ممدوحهم الصّفات الدينية .

وتواصل أبوتمام والمنتبي مع التراث الأدبي بمختلف أشكاله وأنواعه وبخاصة الشعري , حيث تأثرا بأشعار السابقين , فأصبحت ألفاظهم وتراكيبهم ومعانيهم وإيقاعاتهم مادة ترفدهما بقصد أو بغير قصد جاعلين النصّ المستدعي جزءاً لا يتجزأ من مكونات نصوصهما الشعرية مما منحها حيوية وخصوبة . غير أنّ أبا تمام ركّز في تواصله بالتراث الأدبي على مواقف الشعراء وقصصهم بشكل أكبر . وتميّز بتوظيف الأدياء من خطباء وبلغاء وكتّاب , وشخصيات تميّزت بصفات خاصة .

أمّا بالنسبة للتراث التاريخي والأسطوري , فقد كان لهما حضور بارز في شعر أبي تمام والمنتبي من حيث توظيف الشخصيات والأحداث التاريخية والأنساب وبعض الأساطير , مما يعكس ثقافتها التاريخية والأسطورية , واستثمارها وتوظيفها بما يخدم بناء النصّ الشعري , وقدرتها على نظم الموروث شعراً وتطويعه في سياقها الشعري والشعوري . غير أنّ تأثر المنتبي بالتاريخ كان أقل من أبي تمام , وقد يكون مردّ هذه الظاهرة إلى انصرافه إلى التغني بالأمجاد الحاضرة , فاستغنى بذلك عن التطلع لماضيه .

وأثر التراث في التشكيل الفني للقصيدة , حيث التزم أبو تمام والمنتبّي في أغلب قصائدهما الجادة وموضوعاتها الرّسميّة ببناء القصيدة التقليدي , فتمسّكا بالمقدمات الموروثة المألوفة , فبدأ قصائدهما بالوقوف على الأطلال ووصف آثار الديار , بيد أنّ هذه المطالع جاءت في صورة جديدة , صورة محافظة على الشّكل الخارجي والهيكل العام للمطلع مع التعديل والتّحوير والتّجديد في تفاصيلها وأجزائها , حيث وظّفا فيها التراث بمختلف أشكاله وأنواعه : " الدّيني والأدبيّ والتّاريخيّ والأسطوريّ " , وكذلك فعلا في التّخلص والخاتمة . وعلى الرّغم من بنيتهما الدّاخلية للقصيدة بنسيج لغويّ خاصّ , ومنهج جديد في خلق الصّورة , فإنّهما يخضعان إلى حدّ كبير لمقاييس القدماء في البنية الخارجيّة للقصيدة على مستوى الموضوع والوزن والقافية والبناء الفنيّ , وبخاصّة في قصيدة المدح.

وتأثّر أبو تمام والمنتبّي في لغتهما بالتّراث وبخاصّة معجم الشعراء السّابقين , والطّواهر اللّغوية التي استخدموها , كالمحسنات البديعيّة من طباق وجناس وتكرار الخ .

وقد ساهم التراث أيضاً في تشكيل الصورة الشعريّة عند أبي تمام والمنتبّي , فكانت الصّورة الشعريّة في مجملها امتداداً لصور السّابقين ولغتهم , فأجادا في بعضها , وابتدعا بعضها تبعاً لمعطيات عصرهما وثقافتها ورؤيتهما وموقفهما , حيث استطاعا أن يولّدا من التّصوير تصويراً , ومن التّعبير تعبيراً جديداً , فالنّص اللاحق يتداخل مع النّص السّابق في لغته وصوره ومعانيه . ممّا أدى إلى إثراء النّص الشعريّ عندهما , وتشكيل متن القصيدة تشكيلاً طبيعياً .

وقد بيّنت الدّراسة أن النّصوص تتعلّق مع بعضها بعضاً , وكلّ نصّ يحيل إلى نصّ آخر , فلا وجود لنصّ بكر عدا النّصوص المقدّسة التي ليست من صنع البشر .
وأخيراً فإنّ الدّراسة أظهرت أن التّناص قدر كلّ النّصوص بقصد أو بدون قصد , وأنّ النّص عبارة عن تداخلات تناصيّة متعدّدة , فالنّص لوحة فنّيّة فسيفسائيّة يتشكّل من نصوص متعدّدة , متداخلة مختزنة في ذاكرة المبدع . ممّا ينفي عن الشّاعرين الكبيرين أبي تَمّام والمنتبّي تهمة السرّقة التي ألصقت بهما , لأنّ الشّاعر مهما بلغ من شاعريّة , لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يفصل عن تراثه السّابق والمعاصر له , فيأخذ منه ما يخدم رؤيته الشّعريّة فيعيد تشكيّله وتأليفه بسياقات لغويّة جديدة يعبر من خلالها عن انفعالاته ومشاعره .

وبعد , فإنّني لا أدعي بأنّ هذه الدّراسة المتواضعة هي الفصل في دراسة حركة التّراث في شعر أبي تَمّام والمنتبّي , فما قدمته الدّراسة غيض من فيض , فإنّ أصبت فبتوفيق من الله , وإنّ مسّها قصور أوفتور فمنيّ , فالكمال لله وحده , ولا بدّ للنّقد أن يمارس سلطته ويقوم المعوجّ .

والله الموفق .

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الأمدي , الحسن بن بشر (ت 370هـ) , الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري , تحقيق السيد أحمد صقر , دار المعارف (د.ط) , القاهرة , 1961م .
3. إبراهيم , محمد أبو الفضل وآخر , أيام العرب في الإسلام , (د.ط) , بيروت , (د.ت) .
4. إبراهيم , نوال مصطفى , المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي , دار جرير للنشر والتوزيع ط1 , عمان , 2008 .
5. الأتابكي , جمال الدين (ت 874 هـ) , النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة , مطابع كوستانتسوماس وشركاه , (د . ط) , القاهرة , (د . ت) . (1 - 12) .
6. ابن الأثير , ضياء الدين نصرالله بن محمد (ت 637 هـ) , المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر , تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد , المكتبة العصرية (د.ط) , بيروت , 1995 م . (1 - 2) .
7. ابن الأثير , علي بن محمد (ت 630هـ) , أسد الغابة في معرفة الصحابة , تحقيق خليل مأمون شيحا , دار المعرفة ط3 , بيروت - لبنان , 2007 . (1 - 5) .
8. ابن الأثير , عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774 هـ) , البداية والنهاية , تحقيق مصطفى بن العدول , دار ابن رجب ط1 , المنصورة , 2005 . (1 - 14) .
9. ابن الأثير , مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت 606 هـ) , النهاية في غريب الحديث , تحقيق طاهر أحمد الزاوي وآخر , دار إحياء التراث العربي (د . ت) , بيروت - لبنان (د . ط) .

10. الأحوص , شعر الأحوص الأنصاري , تحقيق عادل سليمان جمال , المكتبة العربية (د.ت) , القاهرة , 1970 م .
11. الأخطل, الديوان , تحقيق سوزان عكاري دار الفكر العربي بيروت ط1 2003.
12. الأرنؤوطي , هدى , ثقافة المتنبي وأثرها في شعره, (د.ط) , (د . ت) .
13. الأزدي , أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت 275 هـ) , سنن أبي داود , دار الحديث (د.ت) حمص - سوريا , (د . ط) , (1 - 5) .
14. الأصفهاني , أبو الفرج (ت356 هـ)الأغاني , تحقيق إحسان عباس وآخرون , دار صادر ط1 , بيروت 2002 م.(1- 25) .
15. الأصفهاني ,أبو القاسم عبد الله بن محمد , الواضح في مشكلات شعر المتنبي , تحقيق محمد الطاهر بن عاشور , الدار التونسية للنشر , (د.ط) 1968 م .
16. الأصمعي ,عبد الملك بن قريب (ت 216هـ), الأصمعيات , تحقيق محمد أحمد شاكر وآخر , دار المعارف ط3 , مصر , (د.ت) .
17. الأعشى , ميمون بن قيس , الديوان , دار صادر ط3 , بيروت 2003م
18. الألباني , محمد ناصر الدين , صحيح الجامع الصغير وزيادته, المكتب الإسلامي ط3 , بيروت , 1988 م . (1-2) .
19. امرؤ القيس , الديوان , دار صادر (د . ط) بيروت , 2003 م.
20. ابن أنس , مالك (ت 179هـ) , الموطأ , تحقيق لجنة من العلماء , دار الجيل ط2, بيروت , 1993 م .
21. أبو الأنوار , محمد , الشعر العباسي , مكتبة الشباب (د.ط) , القاهرة (د.ت).
22. البحثري , الديوان , دار صادر ط1 , بيروت , 200م (1 - 2)

23. البخاري , محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت 256 هـ) , **صحيح البخاري** , تحقيق طه عبد الرؤوف سعد , مكتبة الإيمان , (د . ط) المنصورة 2003 م .
24. البديعي , يوسف , (ت 1073 هـ) , **الصبح المنبى عن حيثية المتنبى** , تحقيق محمد السقا وآخرون , دار المعارف ط3 , القاهرة د.ت
25. ابن برد , بشار , **الديوان** , شرح مهدي محمد ناصر الدين , دار صادر ط1 بيروت (د.ت) .
26. البغدادي , عبد القادر بن عمر (ت 103 هـ) **تاريخ بغداد** , دار الكتاب العربي (د.ط) , بيروت - لبنان , (د .ت) (1 - 14) .
27. **خزانة الأدب ولب لىاب لسان العرب** , تحقيق عبد السلام هارون , مكتبة الخانجي ط3 , القاهرة , 1989م . (1 - 4) .
28. بكار , يوسف حسين , **بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث** , دار الأندلس ط2 , بيروت - لبنان , 1982 م .
29. البلاذري , أحمد بن يحيى بن جابر , **فتوح البلدان** , تحقيق عبد الله أنيس الطباع وآخر , دار النشر للجامعيين (د.ط) , 1927 م .
30. بنكرتن , بنيامين , **تفسير إنجيل متى** , ط3 , 1983 م .
31. بنيس , محمد , **ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب** , مقاربة بنيوية تكوينية , دار العودة ط1 , 1989 م .
32. بهجت , مجاهد مصطفى , **التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول** , وزارة الأوقاف والشؤون الدينية , ط1 , 1982 م .
33. البهيتي , أبو تمام الطائي , **حياته وحياء شعره** , دار الثقافة (د.ط) , 1945م .

34. البهيجي , أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458 هـ) , *السنن الصغرى* , تحقيق خليل أحمد بن الحسين , دار المعرفة ط1 , بيروت , 1999م. (1-2) .
..... *السنن الكبرى* , تحقيق محمد عبد القادر عطا , دار الكتب العلمية ط1 , بيروت - لبنان , 1994 م . (1 - 10) .
- *شعب الإيمان* منشورات محمد علي بيضون , دار الكتب العلمية ط1 , بيروت , 200 م (1 - 9) .
35. تأبط شراً , ثابت بن جابر , *الديوان* , تحقيق عبد الرحمن المصطاوي , دار المعرفة ط1 , بيروت - لبنان 2003 م .
36. والترمذي , أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة , (ت 279 هـ) , *سنن الترمذي* , تحقيق صدقي محمد جميل العطار وآخرون , دار الفكر (د . ط) , 1994م .
37. التطاوي , عبد الله , *ثقافة أبي تمام من شعره* , مكتبة غريب , القاهرة , 1984
..... *القصيدة العباسية - قضايا واتجاهات* , مكتبة غريب (د.ط) , القاهرة
1981 م
38. أبو تمام , حبيب بن أوس الطائي , *الديوان* , شرح الخطيب التبريزي , تحقيق محمد عبده عزام , دار المعارف ط3 , القاهرة , (د.ت) . (1 - 4) .
39. ابن ثابت , حسان , *الديوان* , دار صادر (د.ط) بيروت (د.ت) .
40. الثعالبي , أبو منصور عبد الملك (ت 429 هـ) , *يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر* , تحقيق مفيد محمد قميحة , دار الكتب العلمية ط1 , بيروت , 1983م (1-5)

41. الجاحظ , عمرو بن بحر (ت 255 هـ) , **البيان والتبيين** , تحقيق درويش جويدي , المكتبة العصرية (د.ط), بيروت , 2007 م . (1 - 4)
- **الحيوان** , تحقيق عبد السلام هارون , المجمع العلمي العربي الإسلامي ط3 , بيروت - لبنان , 1968 م . (1-8).
42. ابن أبي جرادة , **الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد** (ت 660هـ) , **زيادة الحلب من تاريخ حلب** , تحقيق سهيل زكار , دار الكتاب العربي ط1 , القاهرة , 1997 م . (1 - 2) .
43. الجرجاني , عبد الله بن عدي بن عبد الله (ت 365 هـ) , **الكامل في ضعفاء الرجال** , تحقيق يحيى مختار عزوي دار الفكر , (د.ت) , بيروت , 1988 م (1 - 7)
44. الجرجاني , علي بن عبد العزيز (ت 366 هـ) , **الوساطة بين المتنبى وخصومه** , تحقيق محمد أبو الفضل وآخر , منشورات المكتبة العصرية (د.ط), بيروت , 1996 م .
45. الجعافرة , ماجد ياسين , **قراءات في الشعر العباسي** , دار الكندي ط1 , الأردن , 2003 .
46. ابن جعفر , قدامة (ت 327 هـ) , **نقد الشعر** , تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي , دار الكتب العلمية (د.ط) , بيروت , (د . ت) .
47. جميل بثينة , **الديوان** , شرح إبراهيم جزيني , دار الكتاب العربي ط1 , بيروت - لبنان , 1968 م .
48. جهاد , كاظم , **أدونيس منتحلاً دراسة في الاستحوان الأدبي وارتجالية الترجمة يسبقها ما هو التناص** , مكتبة مدبولي ط1 , القاهرة 1993 م .

49. ابن الجهم , علي , الديوان , تحقيق خليل مردم بك , دار الآفاق الجديدة , (د.ط), بيروت , (د.ت) .
50. الجيلاني , فضل الله , الصمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري , المكتبة الإسلامية (د . ت) , (د . ط) .
51. الحاتمي , محمد بن الحسن (388 هـ) , حلية المحاضرة , تحقيق جعفر الكتاني , دار الرشيد للنشر (د.ت) الجمهورية العراقية 1989م .
- الرسالة الموضحة , تحقيق محمد يوسف نجم , دار صادر (د.ط) , بيروت 1965م .
52. الحاج , حسن حسين , الأسطورة عند العرب في الجاهلية , المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط1 , 1988م .
53. الحاوي , إيليا , أبو تمام - فنه ونفسيته من خلال شعره , دار الثقافة ط1 , بيروت 1989م .
54. أبو الحجاج المري , يوسف بن الزكي عبد الرحمن , تهذيب الكمال , تحقيق بشار عواد معروف , مؤسسة الرسالة ط1 , بيروت 1980م (1-35) .
55. ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) , الإصابة في تمييز الصحابة , تحقيق خليل مأمون شيحا , دار المعرفة ط1 , بيروت - لبنان , 2004م . (1-4) .
56. ابن حبه الحموي , تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله , خزنة الأدب وغاية الأرب , تحقيق عصام شعيتو , دار مكتبة الهلال ط1 , بيروت , 1987م (1-2) .
57. ابن حزم , علي بن أحمد الأندلسي (456هـ) , جمهرة أنساب العرب , دار الكتب العلمية ط1 , بيروت , 1983م .

58. حسن , عبد الحميد , الأصول الفنية للأدب , مكتبة الأنجلو المصرية (د.ت) القاهرة 1949 م .
59. حسين , طه , مع المتنبي , دار المعارف (د . ت) , مصر , 1962 م .
60. الحطيئة , الديوان , شرح أبي سعيد السكري , دار صادر , (د . ط) , بيروت , 1967 م .
61. ابن حكيم , الطرماح , الديوان , منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي , (د.ت) , دمشق , 1968 م .
62. أبو حمدة , محمد علي , في التذوق الأسلوبى واللغوي لقصيدة أبي تمام في فتح عمورية , دار عمار ط1 , عمان , 1998 م .
63. الحمصي , ديك الجن , الديوان , تحقيق أنطوان محسن القوّال , دار الكتاب العربي ط2 , بيروت 1994 م .
64. ابن حنبل , مسند ابن حنبل , دار الفكر ط2 , بيروت , 1978 م .
65. ابن أبي خازم , بشر , الديوان , تقديم وشرح مجيد طراد , دار الكتاب العربي ط1 , بيروت , 1994 م .
66. الخزاعي , دعبل , الديوان , شرحه ضياء حسين العلمي , مؤسسة النور للمطبوعات ط1 , بيروت - لبنان 1997 .
67. الخزاعي , أبو الشيبص , أشعار أبي الشيبص وأخباره , جمع وتحقيق عبد الله الجبوري , مطبعة الآداب في النجف الأشرف (د . ت) , بغداد 1967 م
68. ابن الخطيم , قيس , الديوان , تحقيق ناصر الدين الأسد , دار صادر ط2 , بيروت 1967 م .

69. خفاجي , محمد عبد المنعم , *دراسات في النقد الأدبي* , دار الطباعة المحمدية (د.ط) , القاهرة (د.ت) .
70. ابن خلدون , عبد الرحمن (ت 808 هـ) , *مقدمة ابن خلدون* , تحقيق أحمد حامد الطاهر , دار الفجر للتراث ط1 , القاهرة , 2004 م .
71. ابن خلكان , محمد بن أبي بكر , (ت 681 هـ) , *وفيات الأعيان* , تحقيق إحسان عباس , دار صادر ط4 , بيروت , 2005 . (1-8) .
72. خليف , يوسف , *تاريخ الشعر في العصر العباسي* , دار الثقافة للطباعة والنشر , د.ط القاهرة , 1981 م .
- *في الشعر العباسي نحو منهج جديد* , مكتبة غريب , (د.ت) , (د.ت) .
73. الخنساء , *الديوان* , دار صادر (د.ط) , بيروت 1963 م .
74. الخواجا , زهدي صبري , *موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري* , منشورات دار صبري للنشر والتوزيع ط2 , الرياض , 1994 م .
75. خورشيد , فاروق , *أديب الأسطورة عند العرب* , مكتبة الثقافة الدينية ط1 , القاهرة , 2004 م .
76. الخويسكي , زين كامل وآخر , *الشعر العباسي , دراسات ونصوص* , دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر , (د.ط) الإسكندرية (د.ت) .
77. ابن ذريح , قيس , *الديوان* , تحقيق عفيف نايف حاطوم , دار صادر ط1 , بيروت 1998 .

78. ذو الرمة , غيلان بن عقبة , **الديوان** , عني بتصحيحه وتنقيحه كارليل هنري هيس مكارتي , مطبعة كلية كمبردج (د.ط) , 1919 م.
79. الذهبي , شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ) , **تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام** , تحقيق عبد السلام تدمري , دار الكتاب العربي (د.ت) , بيروت , 2003 م. (1- 45) .
- **العبر في تاريخ من عبر** , تحقيق محمد السعيد بن بسبوني زغلول , دار الكتب العلمية (د.ط) بيروت (د.ت) (1-4).
80. ربابعة , موسى , **التناص في نماذج الشعر العربي الحديث** , مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع (د.ط) , إربد , 2000 م.
81. الرباعي , عبد القادر , **الصورة الفنية في شعر أبي تمام** , المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط2 , بيروت 1999 م .
- **الصورة الفنية في النقد الشعري - دراسة في النظرية والتطبيق** , مكتبة الكتاني (د.ت) , إربد , 1995 م .
82. الربداوي , محمود , **الفن والصنعة في مذهب أبي تمام** , المكتب الإسلامي , 1971 م .
83. ابن أبي ربيعة , عمر , **الديوان** , شرح يوسف شكري فرحات , دار الجيل , بيروت , بيروت , 1990 م .
84. ابن رشيق القيرواني , علي بن الحسن (ت 456 هـ) , **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** , المكتبة العصرية . ط1 , بيروت 2001 م . (1 - 2)

85. **قراءة الذهب في نقد أشعر العرب**, تحقيق منيف موسى, دار الفكر اللبناني (د.ط), بيروت (د.ت).
86. ابن الرومي, علي بن العباس بن جريج, **الديوان**, ضبط وشرح عمر فاروق الطباع, دار الأرقم بن أبي الأرقم ط1, بيروت لبنان, 200 م.
87. زراقت, عبد المجيد, **دراسات في الشعر العباسي وأعلامه**, دار ابن باديس ط1, بيروت 200 م.
88. الزمخشري, أبو القاسم جار محمود بن عمر (ت 538), **المستقصى من أمثال العرب**, دار الكتب العلمية ط2, لبنان, 1977 م. (1-2).
89. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**, تحقيق عبد الرازق المهدي, دار إحياء التراث العربي, (د.ط), بيروت (د.ت). (1-4).
90. ابن زهير, كعب, **الديوان**, تحقيق أنطوان القوال, دار الفكر العربي ط1, بيروت 2003
91. ابن سعد, محمد (ت 230), **الطبقات الكبرى**, دار صادر (د.ط), بيروت 1960م. (1-8).
92. السعدني, صلاح, **التناص الشعري قضية أخرى لقضية السرقات**, منشأة المعارف (د.ط), الإسكندرية - مصر, 1991
93. السعدني, مصطفى, **قراءة المعنى الشعري - رؤية حديثة لقضية قديمة في ضوء شرح مشكلات ديوان أبي تمام للمرزوقي**, منشأة دار المعارف, الإسكندرية, 1994م.

94. ابن سلام, محمد(232هـ), **طبقات فحول الشعراء**, دار المدني (د. ط), جده (د. ت).
95. سلطان, منير, **الصورة الفنية في شعر المتنبي**, منشأة المعارف, الاسكندرية, 2002 م.
96. ابن أبي سلمى, زهير, **الديوان**, شرح أبي العباس ثعلب بن يحيى بن زيد الشيباني, الدار القومية للطباعة والنشر (د.ط) القاهرة 1994 م.
97. السلمي, أشجع, **الديوان**, تحقيق خليل بنيان الحسون, دار المسيرة ط1, بيروت, 1981 م.
98. السمرة, محمود, **عبد القاهر الجرجاني - الأديب الناقد**, المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ط1, بيروت, 1969 م.
99. **مدخل إلى النقد الأدبي**, وزارة التربية والتعليم وشؤون الشباب ط1, سلطنة عمان, 1985 م.
100. ابن سنان الخفاجي, محمد بن عبد الله (ت 466هـ), **سر الفصاحة**, تحقيق عبد المتعال الصعيدي, مكتبة ومطبعة صبح (د.ط), مصر, 1952 م.
101. السيد الحميري, **الديوان**, تحقيق شاكر هادي شكر, دار مكتبة الحياة, (د. ط) بيروت (د.ت).
102. السيوطي, جلال الدين وآخر, **تفسير الجلالين**, تصنيف أبي عبيدة هاني الحاج, دار الكيان ط2, الرياض, 2006 م.
103. **تفسير وبيان القرآن الكريم مع بيان أسباب النزول**, إعداد محمد حسن الحمصي (د.ط), (د.ت).

الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير , دار الفكر ط1 , بيروت - لبنان
2003 م (1 - 3)

104. شعيب , محمد عبد الرحمن , المتنبى بين ناقيه بين القديم والحديث , دار
المعارف , (د . ت) , مصر , 1964 م .

105. شلبي , سعد إسماعيل , مقدمة القصيدة في شعر أبي تمام والمتنبى , مكتبة
غريب (د . ت) (د.ط)

106. أبو شوارب , محمد مصطفى , شعرية التفاوت - مدخل لقراءة الشعر العباسي ,
دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر (د.ط) , الإسكندرية 2002 م .

107. ابن أبي شيبة , أبو بكر عبد الله بن أبي محمد العباسي الكوفي (ت 235هـ) ,
مصنف ابن أبي شيبة , تحقيق محمد عوامه مطبعة الدار السلفية الهندية القديمة دار
القبلة (د.ط) , (د.ت) .

108. الصالحي , محمد بن طولون (ت 953 هـ) , الشذرة في الأحاديث المشتهرة ,
تحقيق كمال بسيوني زغلول , دار الكتب العلمية ط1 , بيروت - لبنان , 1993 م

109. الصفدي , صلاح الدين خليل بن أبيك , الوافي بالوفيات , اعتناء أيمن فؤاد
سيد , دار صادر ط2 , بيروت , 1992 م . (1 - 22) .

110. الصقلي المغربي , أبي علي الحسين بن عبيد الله (ت 392 هـ) , التكملة وشرح
الأبيات المشككة من ديوان أبي الطيب المتنبى , تحقيق أنوار أبو سويلم , دار عمار
للطباعة والنشر (د.ت) دار عار للطباعة والنشر (د.ت) .

111. ابن أبي الصلت , أمية , الديوان , تقديم وتعليق سيف الدين الكاتب وآخرون , دار
مكتبة الحياة (د . ت) بيروت - لبنان , (د.ط) .

112. الصولي , أبو بكر محمد بن يحيى (ت 335هـ) , أخبار أبي تمام , تحقيق خليل محمود عساكر وآخرون , المكتب التجاري (د.ط) , بيروت (د.ت)
113. ابن ضرار , الشماخ , الديوان , شرح وتقديم قدرى مايو , دار الكتاب العربي (د.ت) , بيروت - لبنان , 2004 م .
114. ضيف شوقي , الفن ومذاهبه في الشعر العربي , دار المعارف , ط 10 , 1960 .
115. الطائي , حاتم , الديوان , شرح إبراهيم الجزيني , دار الكتاب العربي ط 1 , بيروت لبنان 1968 م .
116. ابن طباطبا , محمد بن أحمد , (ت 322هـ) , عيار الشعر , تحقيق عباس عبد الساتر , دار الكتب العلمية ط 1 , بيروت _ لبنان , 1982 م .
117. الطبري , أبي جعفر محمد بن جرير (ت 210 هـ) , جامع البيان , دار الفكر , (د.ت) , 1988 م (1 - 15) .
118. تاريخ الطبري , تاريخ الأمم والملوك , دار الكتب العلمية ط 1 , بيروت 1407هـ (1-5) .
119. ابن الطفيل , عامر , الديوان , رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب , دار صادر (د.ط) , بيروت 1963 .
120. العامري , لبيد بن أبي ربيعة , الديوان , قدم له إبراهيم جزيني , دار القاموس الحديث بيروت .
121. العاملي , بهاء الدين محمد بن حسين , الكشكول , تحقيق محمد عبد الكريم النمري , دار الكتب العلمية ط 1 , بيروت لبنان 1998 (1 - 2)

122. عباس، إحسان، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، دار الشروق للنشر والتوزيع ط1، رام الله، 2006 م.
123. أبو العباس، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، دار الكتب العلمية ط2، بيروت، 2002 م. (1 - 8).
124. ابن العبد، طرفة، **الديوان**، تحقيق وشرح نخبة من الأدباء دار الفكر للجميع بيروت 1968 م.
125. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، شرح أحمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط2، القاهرة، 1956 م. (1-9).
126. عبد المطلب، محمد، **هكذا تكلم النص**، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د.ط)، مصر، 1997 م.
127. العبسي، عنتر بن شداد، **الديوان**، دار صادر، (د.ط) بيروت، 1958 م.
128. أبو العتاهية، **أشعاره وأخباره**، تحقيق شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، (د.ط)، دمشق، 1965 م.
129. العجلوني، إسماعيل بن محمد، (ت 1162هـ) **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، دار إحياء التراث العربي ط3، بيروت 1355هـ (1-2).
130. ابن العديم، عمر بن أحمد، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر (د.ط)، بيروت - لبنان (د.ت). (1-12).
131. عزام، عبد الوهاب، **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، دار المعارف ط3، مصر (د.ت).

132. أبو عزيز , سعد يوسف , **قصص القرآن** , دار الفجر للتراث ط2 , القاهرة , 2004 م .
133. ابن عساكر , علي بن الحسن الشافعي (ت 571هـ) , **تاريخ مدينة دمشق** , تحقيق عمر بن غرامة العمروري , دار الفكر (د.ت)بيروت - لبنان 1995م (1 - 70)
134. العسكري , الحسن بن عبد الله, **الصناعتين** (ت 395 هـ) , تحقيق مفيد قميحة, دار الكتاب العلمية ط2 , بيروت - لبنان , 1989م.
135. ابن عطية , جرير , **الديوان** , شرح محمد بن حبيب , تحقيق نعمان محمد أمين طه , دار المعارف , (د.ط) , مصر , (د.ت) , (1-3)
136. علوش , سعيد, **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة** , دار الكتاب اللبناني ط1 , بيروت - لبنان , 1985 م
137. علي , محمد كرد , **رسائل البلغاء** (المدبر , إبراهيم بن محمد) , (ت 279هـ) (الرسالة العذراء) , لجنة التأليف والترجمة والنشر ط3 , القاهرة , 1946 م .
138. ابن العماد , شهاب الدين عبد الحي بن أحمد (1089 هـ) , **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** , تحقيق عبد القادر الأرناؤوط , دار ابن كثير ط1 , بيروت 1981م (1 - 10) .
139. العميدي , محمد بن أحمد , **الإبانة عن سرقات المتنبي** , تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي , دار المعارف (د . ط) , مصر 1961 م .

140. العيني , بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد , **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** , مراجعة صدقي جميل العطار , دار الفكر ط 1 , 1968 م . (1-16) .
141. الغدامي , عبدالله , **الخطبة والتفكير (من النبوية إلى التشريحية)** الغدامي , عبدالله , **الخطبة والتفكير (من النبوية إلى التشريحية)** , كتاب النادي الثقافي ط 1 , جدة السعودية 1985 م .
142. الغنوي , كعب بن سعد , **الديوان** , تحقيق عبد الرحيم الوصيبي , مكتبة الآداب ط 1 , القاهرة , 1998 م .
143. الفرزدق , **الديوان** , تحقيق كرم البستاني , دار صادر (د . ط) , بيروت , (د . ت)
144. فريد بك , محمد , **تاريخ الدولة العلية العثمانية** , دار النفائس (د . ط) , بيروت (د . ت) .
145. ابن قتيبة , عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) , **الشعر والشعراء** , تحقيق أحمد محمد شاكر , دار الحديث ط 2 , القاهرة , 2006 (1-2) .
146. ابن قدامة , جعفر , (327 هـ) , **نقد الشعر** , دار الكتب العلمية , (د . ط) , بيروت (د . ت) .
147. القرشي , محمد بن أبي الخطاب (ت 170 هـ) , **جمهرة أشعار العرب** , دار المسيرة ط 1 , ؟بيروت , 1978 م .
148. القرطاجني , أبي الحسن حازم (ت 684 هـ) , **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** , تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة , دار الكتب الشرقية (د . ط) , (د . ت) .

149. القزويني , جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 539 هـ) , **الإيضاح في علوم البلاغة** , وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين , دار الكتب العلمية ط 1 , بيروت - لبنان 2003 م .
150. القزويني , أبي عبد الله محمد بن يزيد (ت 257 هـ) , **سنن ابن ماجه** , تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي , دار إحياء التراث العربي (د . ت) , (د . ط) , (1 - 4)
151. القلقشندي , أحمد بن علي , **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** , تحقيق يوسف علي طويل , دار الفكر ط 1 , دمشق 1971 . (1 - 14) .
152. كباية , وحيد صبحي , **الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس** , منشورات اتحاد الكتاب العرب , (د . ت) , 1999 .
153. كبريت , سمير محمد , **المتنبي** , دار المعرفة ط 1 , بيروت - لبنان . (د . ت)
154. الكتبي , محمد شاكر (ت 764 هـ) , **فوات الوفيات** , تحقيق إحسان عباس , دار صادر , (د . ط) , بيروت (د . ت) . (1 - 5) .
155. كثير عزة , **الديوان** , جمعه وشرحه إحسان عباس , دار الثقافة , بيروت - لبنان , 1971 م .
156. ابن كثير أبي الفداء إسماعيل , **تفسير القرآن العظيم** , تحقيق عبد الرازق المهدي (ت 774 هـ) دار الكتاب العربي (د . ت) , بيروت 2005 م . (1 - 6) .
157. **قصص الأنبياء** , تحقيق عصام الدين الصبابطي , دار الفكر للتراث ط 1 , القاهرة (د . ت) .
158. كحالة , عمر رضا , **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة** , مؤسسة الرسالة ط 8 , بيروت 1997 م . (1 - 5) .

159. ابن كلثوم , عمرو , **الديوان** , تحقيق إميل بديع يعقوب , دار الكتاب العربي , (د.ت) , بيروت , 2006 م
160. ماضي , شكري عزيز , **من إشكاليات النقد العربي الجديد** , المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1 , بيروت 1997 م .
161. ابن مالك , كعب , **الديوان** , تحقيق مجيد طراد , دار صادر ط1 , بيروت , 1997 م .
162. المبرد , محمد بن يزيد (ت 285 هـ) , **الكامل في اللغة** , تحقيق محد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر ط3 القاهرة 1997 م (1-)
163. المتقي , علاء الدين علي بن حسام الدين (ت 975 هـ) , **السيوطي** , **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** , تحقيق بكري حباني وآخر , مؤسسة الرسالة ط5 , 1981 م . (1 - 8) .
164. المتنبّي , أحمد بن الحسين , **الديوان** , بشرح أبي البقاء العكبري , ضبط وتصحيح مصطفى السقا وآخرون , دار المعرفة (د.ط) , بيروت - لبنان (د.ت) .
165. مرشدة , عبد الباسط , **التناص في الشعر العربي الحديث - السياب ودنقل ودرويش أنموذجاً** , دار ورد للنشر والتوزيع , ط1 , عمان , 2006 م.
166. المرزباني , محمد بن عمران (ت 384 هـ) , **الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء** , تحقيق محمد حسين شمس الدين , دار الكتب العلمية ط1 , بيروت 1995 م
167. المسعودي , علي بن الحسين (ت 346) , **مروج الذهب ومعادن الجوهر** , تحقيق محيي الدين عبد الحميد , دار المعرفة (د.ط) , بيروت , (د.ت) .

168. ابن المعتز , عبد الله , **البديع** , نشر أغناطيوس كراتشوفسكي (د.ط) , لندن , 1935 م .
169. **ديوان ابن المعتز**, تحقيق محمد بديع شريف , دار المعارف , مصر. (1-2)
170. **طبقات الشعراء** , دار المعارف ط4 , القاهرة , (د . ت) .
171. المعري , أبو العلاء , **ديوان سقط الزند** , دار صادر , (د.ت) , بيروت , 1963 م .
172. ابن معمر , جميل , **الديوان** , شرح إبراهيم جزيني, دار الكتاب العربي ط1 , بيروت , 1968 م .
173. ابن الملوح , قيس , **الديوان** , شرح عدنان زكي درويش , دار صادر , (د.ت) , بيروت 1994 م .
174. مناع , هاشم صالح , **أبوتمام الطائي - حياته وشعره** - , دار الفكر ط1 , بيروت , 1994 م
175. المنذري , زكي الدين عبد العظيم **مختصر صحيح مسلم** , تحقيق محمد ناصر الدين الألباني , منشورات لجنة إحياء النة (د . ت) , (د . ط) .
176. ابن منظور , محمد بن مكرم , **لسان العرب** , اعتناء أمين محمد عبد الوهاب وآخر , مؤسسة التاريخ العربي ط3 , بيروت , (د.ت) , (1-18) .
177. ابن منظور المصري , **أبو نواس في تاريخه وشعره ومبازله وعبثه ومجونه** , قدم له عمر أبو النصر , دار الجيل (د.ط) , 1975 م .
178. منير , سامي , **ملاحم وحدة القصيدة في الشعر العربي بين القديم والحديث** , الهيئة المصرية للكتاب ط1 , فرع الإسكندرية 1989 م .

179. المولى , محمد أحمد جاد وآخرون, أيام العرب في الجاهلية , دار إحياء الكتب العربية (د.ت) , مصر (د.ط) .
180. الميداني , أحمد بن محمد , مجمع الأمثال, تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم , المكتبة العصرية ط1 , صيدا - بيروت , 2007 م . (1 - 4) .
181. النابغة الذبياني , الديوان , تحقيق كرم البستاني , دار صادر , بيروت 1963 م
182. ابن ناصر الدين , محمد بن عبد الله (ت842هـ) توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم , تحقيق محمد نعيم العرقسوسي , مؤسسة الرسالة ط1 , بيروت 1993 م . (1- 9) .
183. نافع , عبد الفتاح صالح , لغة الحب في شعر المتنبي , دار الفكر للنشر والتوزيع ط1 , عمان , 1983 م .
184. ناظم , أحمد , التناص في شعر الرواد , دار الشؤون الثقافية العامة ط1 , بغداد , 2004 م .
185. النديم , أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق الوراق , الفهرست , تحقيق رضا تجدد بن علي دار المسيرة ط3 , بيروت , 1988 م .
186. نعجه , فتحي أسعد إسماعيل , الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي , ط1 , عمان , 2000 م .
187. أبو نواس , الديوان , شرح علي فاعور , دار الكتب العلمية ط3 , بيروت - لبنان 2002 م .

188. النويري , شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب , **نهاية الأرب في فنون العرب** , تحقيق مفيد قمحية وجماعة , دار الكتب العالمية ط1 , بيروت - لبنان , 2004 م . (1 - 33).
189. النيسابوري , أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري , **صحيح مسلم** , دار الفكر ط3 , بيروت , 1978 م . (1 - 18) .
190. الهاشم , جوزف , **أبو الطيب المتنبي** - شاعر الطموح والعنفوان , دار المفيد , (د.ت) , لبنان , (د.ط.) .
191. ابن هشام , عبد الملك , **السيرة النبوية** , تحقيق عادل أحمد عبد الموجود , مكتبة العبيكان ط1 , 1998 م . (1 - 4) .
192. هلال , هيثم , **أساطير العالم** , دار المعرفة ط1 , بيروت - لبنان , 2004 م .
193. الهمداني , محمد بن عبد الملك بن إبراهيم (ت 521هـ) , **تكملة تاريخ الطبري** , تحقيق ألبرت يوسف كنعان , المطبعة الكاثولوكية , (د.ط.) , بيروت , 1958م
194. ابن الوردة , عروة , **الديوان** , دار صادر , (د.ط) , بيروت 1964 م .
195. وضاح اليمن , **الديوان** , تحقيق محمد خير البقاعي , دار صادر ط1 , بيروت 1996 م .
196. ابن وكيع , الحسن بن علي (393 هـ) , **المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي** , تحقيق محمد يوسف نجم , دار صادر (د.ط) بيروت (د.ت) . (1-2).
197. ابن الوليد , مسلم , **الديوان** , تحقيق سامي الدهان , دار المعارف ط3 , القاهرة (د.ت) , (1 - 3) .

198. ياقوت الحموي , شهاب الدين , معجم البلدان , دار صادر (د.ط) , بيروت , 1957م .

199. ابن يعمر , لقيط , الديوان , تحقيق محمد التونجي , دار صادر ط1 , بيروت , 1998م .

200. تفسير العهد الجديد , بيروت , 1877م .

الرسائل الجامعية :

1. جوخان , إبراهيم عقله عبد الرحمن , التناص في شعر المتنبي , رسالة دكتوراه , جامعة اليرموك , إربد - الأردن , 2006م .

2. الرباعي , ربا عبد القادر , التضمين في التراث النقدي والبلاغي , رسالة ماجستير , جامعة اليرموك , إربد - الأردن , 1997م .

3. العزام , محمود عيسى محمد , الشاهد الأدبي في النقد العربي القديم مفهومه ووظيفته , رسالة ماجستير , جامعة اليرموك - إربد , 1999م .

4. كنعان , محمد دروبي سالم , المختارات الشعرية ومعاييرها النقدية حتى نهاية القرن الرابع الهجري , رسالة ماجستير , جامعة اليرموك , إربد , 1983م .

5. هلال , ريم عبد القادر , حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي , رسالة دكتوراه , جامعة تشرين , 1998م .

الدوريات:

1. اصطيف , عبد النبي , التناص , راية مؤتة , مجلد 2 , عدد 2 , 1993م .

2. عبد الرحمن نصرت , المطر - مواضع وروده في مواضع الشعر الجاهلي - ,

دراسات - مجلة علمية تصدر عن الجامعة الأردنية م 6 ع 1 أيار 1979م .

3. العزاوي , نعمة , لغة الشعر عند أبي تمام , المورد م 25 ع 2 1997م.
4. عياش , ثناء نجاتي , التناص الديني في شعر رزّيك , مجلة الجامعة الأردنية لدراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية , م 23 , ع 2 , 2005 .
5. غضبة , عبد الرحمن , استلهام التراث في شعر أبي تمام , مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية , جامعة قطر , السنة 3 , العدد 3 , 1991 م .
6. القمري , بشير , مفهوم التناص بين الأصل والامتداد , الفكر العربي المعاصر / عدد (60 - 61) , 1989 م .
7. الكبيسي , طراد , التناص في القصيدة العربية الحديثة , الأعلام , ع (11 - 12) , 1987 م .
8. موسى , خليل , التناص والأجناسية في النص الشعري , الموقف الأدبي , عدد 305 , 1996 م .
9. هدارة , محمد مصطفى , الأبعاد النظرية لقضية السرقات وتطبيقاتها في النقد العربي القديم , مجلة فصول م 6 , ع 1 , 1985 م .
10. هلال , ريم عبد القادر , حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي , رسالة دكتوراه , جامعة تشرين , 1998 م .

الانترنت

1. ar.wikipedia.org/wiki/عنقاء - 50k - Cached
2. www.amwague.com/amwague/17/derasat.asp - Cached

ABSTRACT

The heritage movement in the poetry of Abu Tamam and Mutanabi

The research includes an introduction and four chapters. The researcher allocated the introduction to talk about the position of the ancient critics from the heritage, describing the importance of the poet's culture, and the position of modern critics of taking from heritage. In the fourth chapters, the original research material was distributed.

In the first chapter of the research, the researcher talked about the impact of the religious heritage in terms of the activation of the Quranic text, its pronunciation, its meaning and image, and stories relate to it.

She also talked about the activation of the prophet's sayings "Hadith" and the contact with the bible (the New Testament & the Old Testament).

While she allocated the second chapter for the literary heritage in the poetry of Abu Tamam and Mutanabi. She talked about the poets' stories, their positions, attitudes, utterance, meanings and images. And other writers, preachers and rhetoricians, who are famous for certain features and proverbs.

In the third chapter, she focused on the impact of the historical heritage in the poetry of Abu Tamam and Mutanabi in terms of historical figures, events and facts.

In the fourth and last chapter, the researcher discussed the impact of the heritage on the artistic shape of constructing the

poem, the language, the poetical image, quotation and inclusion, the contextual texts in the poetry of Abu Tamam and Mutanabi.

The research ended with a conclusion which includes the most important results the researcher reached in this paper.